دكتور عبد الودود شلبى

موسوعة
أدب الرحلات

ما لا يعرفه المسلمون عن المسلمين فى العالم
النص الكامل لكتاب حول العالم الإسلامى
فى ثلاثين عاما

الجزء الثانى

الناشر

مركز الراية للنشر والإعلام

اسم الكتاب : موسوعة أدب الرحلات
(الجزء الثانى)
بقلـــم : دكتور/ عبد الودود شلبى
الطبعة : الثانية ٢٠٠٤
الناشر : مركز الراية للنشر والإعلام

رقم الإيداع : ٢٩٩٧ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولى I.S.B.N. : 977 - 5967 - 64 - 3

الرحلة اليابانية

الرحلة اليابانية

لقد بدأت معرفتى باليابان فى فترة مبكرة من العمر منذ كنت تلميذا فى كتاب القرية.

كانت الحرب اليابانية الصينية فى عامها الثانى .. لقد بدأت هذه الحرب عام ١٩٣٦م وكانت هناك صحيفتان تصلان إلى القرية هما صحيفتا المصرى والجهاد بالإضافة إلى صحيفة الأهرام التى كانت تصل إلى دوار عمدة القرية.

فى الصفحات الأولى لجريدة المصرى كنت أرى صورا لجنود الجيش اليابانى وهم يقتحمون المدن الصينية بسهولة ولأول مرة أسمع عن بكين وكانتون وشنغهاى.

ثم قامت الحرب العالمية الثانية، وانضمت اليابان إلى دول المحور وانطلق الجيش اليابانى كإعصار مدمر نحو الهند الصينية وتايلاند أو مملكة سيام وبلاد الملايو واندونيسيا، وبخاصة بعد تدمير الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربر (ديسمبر ١٩٤١م).

وكان سقوط سنغافورة حدثا مدويا حين استولى الجنرال اليابانى (ياماشيتا) على هذه القاعدة البحرية البريطانية بخدعة عسكرية أذهلت العالم كله.

وفى الأزهر الشريف فى السنة الثانية الابتدائية كان لنا أستاذ اسمه الشيخ مصطفى الصاوى، كان هذا الشيخ يصدر مجلة أسبوعية اسمها "وطنى" أو"بلادى" كانت كل صفحة فى هذه الجريدة تفيض حبا وتقديرا لليابان، كما كانت تتغنى بانتصارها التاريخى الرائع على الجيش البريطانى، كما كانت تتغنى بانتصارها فى مطلع هذا القرن على الأسطول الروسى.

كما كانت قصيدة حافظ إبراهيم عن فتاة اليابان التى تتحدث عن نفسها والتى يقول مطلعها :

لا تلم كفى إذا السيف نبا	صح منى العزم والدهر أبى
أنـا يـابـانيـــة لا أنثــنى	عن مرادى أو أذوق العطبـا
هكذا الميكاد[1] قـد علمـنا	أن نرى الأوطـان أما وأبـا

كانت هذه القصيدة أغنية على لسان شيخنا وهو يحدثنا عن اليابان فى أية مناسبة.

وفى عام ١٩٦٢م فوجئت بطلب من الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشيخ "محمود شلتوت" - رحمه الله- وكنت فى هذا الوقت أعمل سكرتيرا فنيا فى مكتبه فوجئت به يطلب منى تدريس علوم الدين واللغة لعدد من الطلبة اليابانيين.

ومنذ ذلك التاريخ بدأ أول اتصال عملى وشخصى مع الإسلام والمسلمين فى اليابان.

فكيف وصل الإسلام إلى اليابان ...؟

ومتى وصل الإسلام إلى بلاد الشمس المشرقة .. كما كانت تعرف فى غابر الزمان ؟

تقول إحدى الروايات التاريخية : إن أول اتصال رسمى بين الإسلام واليابان حدث فى نهاية القرن التاسع عشر عندما زارت بعض السفن الحربية العثمانية - أيام السلطان عبد الحميد - عندما زارت الجزر اليابانية زيارة مجاملة، وفى أثناء عودة هذه السفن اصطدمت - بسبب العواصف - بصخور

---

(١) الميكاد أو الميكادو - اسم قديم لامبراطور اليابان.

إحدى الجزر فمات معظم بحارتها .. أما الذين نجوا فقد أرسلت اليهم الحكومة اليابانية سفينة لنجدتهم ثم حملتهم بعد ذلك إلى (اسلامبول)(١) التى تعرف اليوم باسم (استانبول) ..؟

وقد أعقب هذه الحادثة قيام أول علاقات دبلوماسية بين اليابان وبين إحدى الدول الإسلامية.

كما تقول هذه الروايات : إن إمبراطور اليابان طلب من السلطان عبد الحميد إرسال عدد من الأئمة والدعاة ليعرضوا الإسلام على الشعب اليابانى، ولكن السلطان عبد الحميد اعتذر لعدم وجود الأئمة والدعاة المؤهلين لهذه الرسالة المقدسة (٢)..!

وعندما وقعت الحرب بين اليابان وروسيا فى بداية هذا القرن.. وهزم فيها الروس هزيمة منكرة ارتجت لها أنحاء الدنيا.

سافر إلى اليابان فى أعقاب هذه الحرب داعية مسلم إسمه "الشيخ عبد الرشيد إبراهيم" كان مفتيا لسيبيريا، وكان صديقا للجنرال اليابانى (أكاشى) رئيس أركان حرب القوات المسلحة اليابانية.

عندما سافر الشيخ عبد الرشيد إلى طوكيو بدأ يدعو الناس إلى الإسلام فآمن على يديه خلق كثير كانوا هم النواة الأولى لأول مجتمع إسلامى فى اليابان.

ويقول اليابانيون : إن أول من أسلم من اليابان رجل إسمه "شوكواريجا" وقد اختار لنفسه بعد ذلك إسم (أحمد)، وأن أول من حج من اليابان رجل إسمه

---

(١) اسلامبول : أى المدينة الممتلئة بالإسلام. ولا تزال كذلك حتى الآن والحمد لله...!

(٢) ولا تزال هذه المشكلة قائمة . حتى الآن ..!

(عمر ياما أوكا) وكان ذلك فى سنة ١٩٠٩م. وأول من ترجم معانى القرآن إلى اللغة اليابانية (عمر ميتا) وقد زرناه فى مستشفى طوكيو حين زيارتى لليابان قبل سنوات.

ومن أشهر المساجد فى اليابان مسجد (تاجويا) ومسجد (جوبى) ومسجد(طوكيو).

ويبلغ عدد الجمعيات والمؤسسات الإسلامية في اليابان حوالى (١٤) أربع عشرة جمعية من أهمها جمعية مسلمى اليابان والاتحاد العام لمسلمى اليابان، ومركز الثقافة الإسلامية فى "هوكايدو" شمال اليابان.

ولكن المفاجأة الكبرى التى سمعنا بها فى اليابان كانت عن أول مصرى يصل إلى هذه البلاد داعيا إلى الإسلام وأن هذا الرجل لو بقى فى اليابان لاعتنق معظم سكانها الإسلام ..!!

كان اسم هذا الداعية (الشيخ على الجرجاوى) كان صحفيا يصدر مجلة إسمها مجلة "الإرشاد" فى مطلع هذا القرن. وقد سجل الشيخ "على" أحداث رحلته إلى اليابان فى كتاب إسمه (الرحلة اليابانية) وهو كتاب مضى أكثر من تسعين عاما على نشره وطبعه فى مصر المحروسة ..!

بحثت عن كتاب (الرحلة اليابانية).. فلم أجد له أثرا.. ولم أقابل إنسانا يعرف عنه خبرا.

واتجهت إلى مكتبة الأزهر القديمة .. فإذا بمفاجأة أخرى جديدة .. لقد قدم إلىّ الأخ مدير المكتبة كتابا يحمل العنوان نفسه، كان اسم هذا الكتاب (الرحلة اليابانية).. ولكن المفاجأة كانت فى إسم المؤلف.. لم يكن مؤلف كتاب هذه (الرحلة) شيخا من شيوخ الكتابة فى هذا العصر. بل كان "أميرا" من أكبر أمراء الأسرة المالكة التى كانت تحكم مصر.

كان اسم هذا الكتاب الذى طبعته المطبعة الأميرية فى عام ألف وتسعمائة وعشرة (الرحلة اليابانية) لسمو الأمير الجليل محمد على باشا البرنس شقيق الحضرة الفخيمة الخديوية حفظهما الله تعالى .. آمين .!!!

يقول الأمير محمد على فى مقدمة رحلته (... ... لما كان حب الأوطان طبيعة مفطورا عليها الإنسان وجب على العاقل أن يطوف فى بلاد الله ما استطاع ويرى كثيرا من الأمكنة والبقاع ويعرف ما لكل من العوائد التى يترتب عليها جزيل الفوائد وإذا رأى أن جهة من الجهات أكثر ثروة وأعظم من أمته قوة بحث فى أسباب ذلك بحث المدقق الخبير وعرفه معرفة الناقد البصير حتى إذا عاد إلى وطنه عرّف ذلك إلى أهل وطنه.

وإذا رأى أمة مضمحلا حالها كاسفا بالها عرف أسباب ذلك الكساد وما يترتب عليه من مضرات العباد وحذر من ذلك أهل بلاده بقدر استطاعته ومبلغ اجتهاده ويكون إذا أخبر بشئ مخبرا عن مشاهدة عيان لا عن تخمين وحسبان فيحصل بذلك على فوائد جليلة ومزايا جزيلة أهمها منفعة وطنه الذى فيه ربى وببحبوحة فضله حبى والفوز برضا الله ومزيد ثوابه بنفعه للبلاد وخدمته للعباد وأحب عباد إلى الله أنفعهم لعباده وزيادة علمه واتعاظه بأحوال الناس وتباين طباعهم وأخلاقهم واطلاعه على كثير من الأسرار الإلهية المكنونة والقوانين المدبرة المصونة التى دبر الله بها شئون المخلوقات وأحكم بها نظام الكائنات(١).

وعاودت البحث مرة ثانية حتى عثرت على الكتاب الخاص برحلة الشيخ على الجرجاوى، وقد كتب على غلافه (الرحلة اليابانية) لصاحبها الضعيف على أحمد الجرجاوى – صاحب جريدة الإرشاد– الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥ هجرية الموافق لسنة ١٩٠٦ ميلادية.

---

(١) الرحلة اليابانية ... لسمو الأمير الجليل "محمد على باشا"، صفحة ٧ وما بعدها. المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩١٠م.

إذن "الشيخ على" كان (أزهريا) وصعيديا من جرجا ، ولو تنبه المسئولون فى الأزهر لمنحوا اسمه وسام الفنون والعلوم فى مناسبة الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر.

كما كان صحفيا، ولكن نقابة الصحفيين لم تكن قد أنشئت فى هذا الوقت.. لتمنحه عضويتها.

يقول الشيخ "على" عن الباعث أو السبب لقيامه بهذه الرحلة (١): (إن للعادة حكما لا يمكن الخروج عنه وقد سن الأدباء قديما سُنة احتذى مثالها ونسج على منوالها من جاء بعدهم من أهل حرفتهم.

ومن تلك العادات وهاتيك السنن أن يؤلف العالم والكاتب فى فنون شتى مؤلفات برسم بعض الأكابر والأعيان وليس لهم حظ ما فى الفوائد المادية اللهم إلاّ إذا سعت إليهم بنفسها وإنما جل قصدهم من تأليف الكتب برسم الأعيان زيادة الإعتناء بها لدى الكافة وإن كانت في الدرجة القصوى من البلاغة وجلالة الموضوع.

والذى قوى عندهم العزيمة على التأليف إقبال الأكابر على مطالعة المؤلفات المفيدة فى الأوضاع الجميلة.

هذا كتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان ألفه برسم الخليفة المتوكل وكتاب العقد الفريد للملك السعيد. وكتاب الهدية السعيدية فى الحكمة الطبيعية ألفه الإمام محمد فضل الحق الخير أبادى وأهداه إلى مليك بلاده محمد سعيد خان

(١) ... هذا كلام لا يصدر إلا عن قلب رجل مسلم .. وقد أخبرنى الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت أنه كان يوم الأمير محمد على فى مسجده الملحق بقصر المنيل كل أسبوع أى فى يوم الجمعة. وبعد الفراغ من الصلاة والخطبة كان الأمير والشيخ يقفان على باب المسجد لتحية المصلين وتوديعهم ..!

بهادر. ولو أردت إحصاء المؤلفات المهداة إلى الأمراء وأهل الفضل والأدب لغلطت فى العد وضاع الحساب.

هذا وأنى وضعت هذا السفر فى رحلتى إلى بلاد اليابان وأودعته من أخبار تلك الأمة الراقية ما تغنى مطالعته عن النديم والسير من أشياء شاهدتها فى ذهابى وإيابى فى البلاد الأخرى رأيت من إتمام الفائدة ذكرها فى هذه الرحلة.

وحسبى شرفا أنها رحلة أول مصرى وطئت قدمه تلك الأرض من قديم الزمان إلى الآن. وقد اتبعت سُنة أولئك المؤلفين ولكن رأيت أن أهدى رحلتى إلى كل عالم وأديب فى مصر خصوصا الناشئة الحديثة التى هى موضع آمال الأمة(١).

وهناك مقصد آخر أرى من الضرورى الإلماع إليه. وهو أننا أصبحنا فى عصر تتسابق فيه الأمم إلى إحراز قصب السبق فى ميدان الحضارة فأجدر بالشبيبة المصرية أن تطالع مثل هذه الرحلة ليعلموا أن فى الشرق أمة فى الثلاثين ربيعا (٢) من سنى حياتها الجديدة تنظر إليها الأمم الأخرى نظر الإجلال والاعتبار حتى إذا قرؤوا ما لم يصل إلى علمهم عنها دبت فى نفوسهم الحمية فنزعوا رداء الكسل.

وقالوا حى على خير العمل. فإذا عرف هذا علم أننى لم أتحمل الأخطار ووعثاء الأسفار ولم أعتمد فى الإنفاق إلا على الخلاق لأجل نفع بلادى وخدمة دينى وجامعتى وهذا هو أول مبرر لوضع هذه الرحلة.!

---

(١) الرحلة اليابانية .. لصاحبها الضعيف على أحمد الجرجاوى - صاحب جريدة الإرشاد ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٢٥ هجرية الموافق ١٩٠٦ ميلادية ص ٢ وما بعدها .

(٢) أنه يقول ما قاله الأمير محمد على.

على أن الأسباب والبواعث التى تسوق المرء إلى استهال كل صعب والاستهانة بكل خطر يعترضه وهو ناء عن أوطانه قد تختلف فى القيمة والاعتبار وإن كان مجموعها متحدا إفادته ما لم يستفد فى الإقامة مهما علا كعبه وارقت درجته بين الطبقة المتنورة بنور العلم من أمته.

فمن الناس من يخالف الأسفار فى سبيل الاتجار وإنماء الثروة ومنهم من يضرب فى الأرض ويقطع الطول منها والعرض. منقبا فى مجاهلها مفتشا فى مناكبها عن غامر يستعمره. أو معدن يكتشفه. ومنهم من يعاشر الأمم المباينة له فى الجنس والدين والعادة فينقل إلى ساسة الأمم ومدبرى الممالك مالا غنى لهم عنه حيال وظيفتهم فى المجتمع الإنسانى.

ومنهم من يتحمل ألم الغربة ولوعة فراق الأهل فى سبيل طلب العلم والاستنارة بنور العرفان، ومنهم من يجوب القفار. ويركب البحار لاكتشاف جيل من الناس لم يكن قبل معروفا. ومنهم من ينتقل بين الشعوب العريقة فى الهجمية والتى لا دين لها لنشر تعاليم دينه وأصول مذهبه غير مبال بما يعترض طريقه من أنواع الخطر. وصنوف وعثاء السفر.

فهذه كلها غايات حميدة. وبواعث شريفة تبرر العمل على الوصول إليها. وإن تفاوتت أقدارها من حيث الفائدة العائدة منها على الإنسان.

هذا وقد كنت أقرأ فى الصحف المحلية ما تنقله من الأنباء المتواترة بانعقاد مؤتمر دينى فى بلاد اليابان بأمر الميكاد والحاكم على تلك البلاد وتوجه البعثات الدينية من المسلمين وغيرهم لحضور هذا المؤتمر الذى تنحصر أعماله

---

(١) يقصد بهذا القول أنها أمة حديثة عهد بالمدنية الحديثة بينما كانت مصر قد سبقت اليابان فى طريق هذا التمدين منذ أيام محمد على باشا فكيف تقدمت اليابان وسبقتنا. ولماذا بقينا نحن كما كنا..؟ !!

فى البحث فى أصول كل دين فكنت أتابع الكتابات فى كثير من إعداد جريدتى (الإرشاد) حاضا على تأليف وفد من أفاضل العلماء المصريين للاشتراك مع الوفود الأخرى لحضور جلسات هذا المؤتمر ونشر التعاليم الدينية الإسلامية بين أمة الشمس المشرقة.

إذ مسلمو مصر أولى بأن يحوزوا هذه الفضيلة لوجود الأزهر بين ظهرانيهم وهو المدرسة الدينية الوحيدة فى العالم الإسلامى التى يقصدها الطلاب المسلمون من كل قطر ومن كل بلد.

كما أن غيرى من أرباب الصحف الإسلامية ضم صوته إلى صوتى ولكن لما لم أجد فى الهمم إنبعاثا ولا فى العزائم نشاطا. طفقت أبحث عن من يرافقنى من أخواتى المسلمين فى الرحلة إلى اليابان للدعوة إلى الإسلام فكان ذلك أندر من الكبريت الأحمر . !!!

وبينما أنا كذلك وإذا برجلين فاضلين من علماء وحكماء بل وفلاسفة هذا العصر الحاضر وفقهما الله أن يذهبا معى إلى هاتيك البلاد.

أحدهما صاحب الفضيلة الشيخ أحمد موسى المصرى المنوفى إمام المسجد الكبير بكلكتا(١) بالهند . وثانيهما من أفاضل المملكة التونسية (لم يرد ذكر اسمه) هذان الفاضلان كانا خاطبانى فى هذا الخصوص ورغبا فى مرافقتى إلى اليابان لهذا الغرض الشريف والمقصد المنيف وقد قالا فيما خاطبانى به أننا لا نقصد إلا وجه الله الكريم وخدمة الدين القويم.

ولم أكد أسمع كلامهما هذا حتى أعلنت عزمى على صفحات الجرائد العربية اليومية والأسبوعية التى نقلت عنها رائد الأستانة والهند والأفغان وقازان وغير ذلك من الجرائد السيارة.

(١) الرحلة اليابانية - الشيخ على أحمد الجرجاوى - ص ٤ وما بعدها.

وفيما جاء فى إعلانى أنى لا أقبل درهما واحدا من أحد من الناس على سبيل المساعدة المادية حتى ولا قيمة اشتراك جريدتى.!

وهذه يدى رهينة بذمتى أنى لم أكن أردت باعلانى هذا شهرة وحسن سمعة وجميل ذكر. ولكن توقعت من بنى وطنى اتهامى بأنى اتخذت هذه الرحلة حبالة لصيد الدرهم والدينار. لا العمل لوجه الله الكريم. فأردت نفى ما عساه يعلق بأذهانهم من اتهامى بهذه التهمة.!!!

أما الآن وقد انفذت عزيمتى وأمضيت فى رحلتى هذه نحو الثمانية شهور. فقد رأيت من الواجب علىّ أن أسطر ما شاهدته فى ذهابى وإيابى فى هذا السفر. إفادة لأبناء وطنى عموما والذين يهمهم الاطلاع على أحوال الأمم الأخرى خصوصا. واقتداء بكل رحالة من الغربيين يغادر أهله وبلاده ثم يعود إليها محتقبا من غريب الأخبار ما تغنى مطالعته عن لحن الأوتار ومؤانسة السمار.

وإنى لم أقصد برحلتى هذه فى الحقيقة مجرد الاشتراك مع الذين ذهبوا إلى اليابان فى نشر تعاليم الدين الإسلامى. بل كانت رغبتى متوجهة أيضا إلى استطلاع أحوال هذه الأصقاع ومقدار ما وصلت إليه من المدنية وتقدمها فى العلوم شأن من سبقنى من السائحين(١).

لقد فعل الشيخ (على) فى رحلته ما فعله ابن بطوطة .. من قبله ..! فقد سجل كل ما شاهد ورأى فى جميع البلدان التى رآها وشاهدها .. لأننا – كما يقول ... : أصبحنا فى عصر تتسابق فيه الأمم إلى إحراز قصب السبق فى ميدان الحضارة فأجدر بالشبيبة المصرية أن تطالع مثل هذه الرحلة ليروا أن فى الشرق أمة فى الثلاثين ربيعا من سنى حياتها الجديدة تنظر إليها الأمم الأخرى

(١) المرجع السابق.

نظر الإجلال والاعتبار. حتى إذا قرأوا ما لم يصل إلى علمهم عنها دبت فى نفوسهم الحمية فنزعوا رداء الكسل. وقالوا : حى على خير العميل[1] ..

من أجل هذا ... بدأ الشيخ (على) فى تسجيل خواطره وآرائه منذ تحرك به القطار من (مصر المحروسة) فى طريقه إلى الاسكندرية .. حتى ركوب الباخرة منها إلى إيطاليا ثم العودة فيها إلى الاسكندرية وسائر موانئ الشرق الأقصى.

يقول الشيخ على :

فى صبيحة يوم الجمعة ٣٠ يونيه سنة ١٩٠٦ أفرنكية أخذت الأهبة للسفر وما أن وصلت إلى محطة القاهرة حتى رأيت لفيف الأصدقاء والمحبين قد جاؤا لوداعى. وما أصعب موقف الوداع وأشده تأثيرا فى النفس : فكنت أطارح أخوانى عبارات الوداع والدمع فى الجفن حائر. حتى إذا تحرك القطار أسلمته المحار.

ومازال القطار سائرا الهوينا حتى إذا اجتاز المنحنى واستقام له الطريق أخذ ينهب الأرض نهبا لا يشق له غبار وتضل دون شأوه الأنظار وكنت فى هذه الحالة أودع القاهرة وكلما ابتعدت عنها تضاءلت فى نظرى تلك الصروح المردة والقصور الشامخات حتى غابت عن لحظ العين ولم أعد أنظر إلا إلى منارتين يلوح للناظر إليهما من هذه المسافة أنهما ركبتا على قمة جبل المقطم فعلمت أنهما منارتا جامع القلعة الذى أنشأه (محمد على باشا) رئيس العائلة الخديوية الذى كانت توليته على مصر مفتتح تاريخ جديد لها ومازالت ترد على ذاكرتى الوقائع التى ولدتها الأيام فى عهده حتى وقف القطار فى محطة قليوب وحينئذ خطر بذاكرتى سعادة الشواربى باشا الذى له أثر اليد البيضاء على هذه البلدة

(١) الرحلة اليابانية ص ٣.

وخلد بمآثره فيها ذكرا جميلا يذكره به سكانها كلما ذكر الكرام الذين خدموا الإنسانية بجاههم وأموالهم وكل ما فى وسعهم حتى سار مدحهم فى سائر الأزمان والأجيال مسير الأمثال.!

وبعد أن قام القطار من قليوب صرت فى حالة مدهشة وأسف شديد وما ذلك إلا لذكراى أن أول جلسة للمحكمة المخصوصة (١) عقدت لمحاكمة قاطنى هذه البلدة وتسرب الفكر حينئذ إلى حادث دنشواى لأنه كان قريب العهد بالحدوث فشعرت بالتهاب بين الجوانح وسمعت فى أعماق قلبى أزيزا كأزيز المراجل وكأن الفؤاد يرشق بنبال تكسر فيه النصال على النصال ..

فأخذت ألتمس الوسائل التى بها أنفس عن قلبى الغمة بمحادثة بعض الركاب تارة وبالقراءة تارة أخرى حتى وقف القطار على محطة بنها فنظرت إلى محل السراى التى كان يختلف إليها المرحوم عباس باشا الأول والتى استشهد فيها ولم يذكر أحد من المؤرخين هذه الحادثة بالتفصيل.

ولذلك كانت الحقيقة غامضة ولن تزال كذلك ضميدا مستترا فى صدر الأيام. ومهما تكهن الباحث عن أسباب التعدى على هذا المقام الرفيع فلا يكون مبلغ علمه إلا أن التنافس فى الملك والتحاسد عليه قد يوقع الملوك فى مثل هذه الأخطاء وليست هذه بالأولى فى الإسلام وحوادث ملوك الأنام.!!!

ثم صار القطار حتى وصل إلى مدينة "طنطا" وهى فى الدلتا بمنزلة القلب من الجسم ووجه الشبه بينهما أن عند هذه المدينة تجتمع كل أطراف خطوط

---

(١) المحكمة المخصوصة: هى المحكمة التى شكلتها قوات الاحتلال الانجليزى فى مصر لمحاكمة المصريين الذين يقاومون الاحتلال. ومن أشهر محاكمات هذه المحكمة: محاكمة الوطنيين فى "دنشواى" ومحاكمة الوطنيين فى "قليوب".

السكك الحديدية التى فى أنحاء الدلتا كما أن القلب تجتمع عنده أطراف العروق التى توزع الدم على سائر أنحاء الجسم..!!

وفى هذه اللحظة خطر بذاكرتى رجل الدنيا وواحدها ومحسن مصر الكبير ذو الأيادى البيضاء والهمة الشماء من هو فى عقد الكرماء اليتيمة العصماء المرحوم أحمد باشا المنشاوى أمير الغربية وبطل القرشية.!

فنظرت نظرة فى تاريخ حياة هذا الرجل العصامى فإذا هو مملوء بالحوادث الغريبة والوقائع المدهشة.!

ومن العجب أن المصريين لا يتذكرون لهذا الرجل إلا مبراته الجمة وإحساناته التى طوق بها جيد الإنسانية ولم يأت بمثلها مصرى غيره على كثرة عدد الأغنياء فيهم من أمثاله.

على أنه لم يكن فى الكرم أقل منه فى النجدة والشهامة وأباء الضيم وإغاثة الملهوف فقد حفظ له التاريخ حادثة مذبحة طنطا فى ابان الثورة العرابية حيث رد يد الثائرين على المسيحيين واليهود[1] القاطنين فى طنطا وآوى منهم نحو الألفى نسمة إلى سرياه بالقرشية[2] وآمنهم وحملهم إلى بلادهم على نفقته الخصوصية بعد أن دفن موتاهم وتلطخت ثيابه بدمائهم حيث كان يحملهم وهم مطروحون فى الشوارع والأزقة ويضعهم على العربات.

وقد أهدته الدول الأوروبية جزاء هذا الجميل بنياشين علقها على صدره مكان الدماء ولولا خوف الإطالة لذكرت من حوادثه الغريبة شيئا كثيرا .!

ولما غادر القطار مدينة طنطا ووصل إلى محطة كفر الزيات واجتاز الكوبرى

---

(١) كانوا من الأجانب الذين عاونوا الاحتلال البريطانى.

(٢) القرشية – قرية كبرى . تقع قريبا من "طنطا".

الممتد على النيل ذكرت فى الحال ما وقع لأميرين من أمراء العائلة الخديوية فى عهد إسماعيل باشا إذ كان هذان الأميران راكبين فى قطار السكة الحديدية قاصدين الاسكندرية ولما وصل القطار بهما إلى كفر الزيات كان الكوبرى مفتوحا على خلاف العادة فسقط القطار فى البحر وغرق كثير من الركاب وممن غرق أحد هذين الأميرين ونجا الآخر فيمن نجا. ولهذه الحادثة ذكر باق إلى الآن فى أفواه العامة والخاصة ولكن المؤرخين أغفلوه كأنه لم يكن من الحوادث ذات البال فى تاريخ مصر السياسى وما قلناه من خصوص السبب فى قتل عباس باشا الأول فى سراى بنها يقال فى هذه الحادثة !

وهكذا بقيت مفكرا فى صروف الأيام والليالى التى كانت أرض مصر مرسحا(١) لتمثيل روايتها حتى وصلنا إلى محطة الاسكندرية.

غادرت الاسكندرية على باخرة من بواخر الشركة الايطالية. وقد أقلعت الباخرة فى أصيل ذلك اليوم الذى سافرت فيه ولم تمض ساعة على سير الباخرة حتى اعترى جميع الركاب دوار من البحر فباتوا ليلتهم فى سكون تام وأغلبهم لم يتناول شيئا من الطعام إلا فى ضحى الغد.

وما كنت قبل ذلك أعلم أن بلدة تسير بأهلها على وجه الماء وذلك أن الباخرة على كبرها وكثرة عدد الركاب فيها تشبه بلدة ذات أسواق ومحال عمومية وقهاوى يختلف إليها الناس عند الفراغ من أشغالهم. حيث يوجد فى الباخرة محل متسع فيه جميع أنواع البقالة. فهو حانوت من جهة. ومحل عمومى من جهة أخرى لأنك تجد فيه طاولات وكراسى يجلس عليها المسافرون ويمضون أوقاتهم فى لعب النرد والشطرنج والضومينو وما أشبه ذلك ويشربون فى هذا المحل قهوة أو شايا أو مشروبات روحية.!

---

(١) أى مسرحا.

وكنت كلما ضجرت من الوحدة أتوجه إلى هذا المحل. وبترددى عليه عرفت أحد السوريين وكانت وجهته الجزائر لطلب الرزق فى تلك البلد حيث ضاقت فى وجهه طرق الكسب فى الشام معللا هذا بظلم الحكام وقسوة الأحكام.

ولكن عرفت أنه ممن يذمون سياسة الدولة العلية تقليدا لأنى سألته عن وجه ظلامته فلم يهتد إلى الصواب المقنع. هذا فضلا عن جهله التام بحالة بلاده السياسية والاقتصادية فظهر لى أنه ليس من أهل الطبقة التى من شأنها أن تحيط علما بمثل هذه الأوضاع. وكنت أحادثه فى غير هذا الباب اضطرارا إلى الأنيس والصبر .

وفى اليوم الثالث بعد خروجى من الاسكندرية وصلت الباخرة بنا إلى حدود إيطاليا وألقت مراسيها فى ميناء "نابولى" ونابولى هى المدينة الرابعة فى إيطاليا بعد "رومه" و "برند يزى" و "فينسيا" البندقية من حيث التجارة والمعارف كما أنها من أهم الموانئ لها فى البحر الأبيض المتوسط. وكنت قبل أن ترسو الباخرة فى الميناء نظرت على بعد أشْبه شئ بمنارة المسجد فسررت وقلت لعل بهذه المدينة مسلمين لهم مسجد وهذه منارته. ولكن حينما نزلت إلى البر علمت أنها فنار البحر على شكل منارة المسجد لتهتدى به البواخر ليلا إلى الميناء.!

ولعلمى بأن الإقامة فى "نابولى" تستغرق عشر ساعات اغتنمت الفرصة للتجول فى شوارعها لأشاهد آثار المدينة الغريبة، فكنت حيثما مشيت أجد الأنظار شاخصة إلى أن الزى الشرقى المصرى فى نظر هؤلاء غريب ..!!

وكان بودى أن أمكث بضعة أيام فى نابولى لأشاهد ما فيها من الآثار وأطلع على أخلاق وعوائد القوم أكثر مما عرفته فى هذه المدة الوجيزة.

وقد أعاد إلى ذاكرتى وجودى فى نابولى حادثتين تاريخيتين رأيت أن

أذكرهما على سبيل الاستطراد. أولاهما تتعلق بساكن الجنان إسماعيل باشا الخديو الأسبق. وثانيتهما تتعلق بالمرحوم أحمد باشا المنشاوى .

وإنى لا أقول شيئا عن الأولى لأن أمرها معلوم وأما الثانية فهى أن المرحوم أحمد باشا المنشاوى(١) لما كان فى دار السعادة(٢) عقب الثورة العرابية ووشى به الواشون بأنه هاجر من مصر إلى الشام فدار السعادة لأجل دس الدسائس وإغراء أمراء العرب وغيرهم على مبايعة إسماعيل باشا بالخلافة وكثر مراقبوه والجواسيس لم تفارقه أينما وجد فترك الإقامة فى الأستانة وأراد أن يهاجر إلى أوربا فحسن إليه السفير الفرنسى أن يذهب إلى تونس وأكد له أنه إذا ذهب إليها وأقام بها يجد من راحة البال والإكرام ما لا يجده فى غيرها من بلاد أوروبا .

فقبل المنشاوى باشا وعقد العزيمة على المهاجرة إلى تونس ولكنه رأى أن يعرج فى طريقه على نابلى حيث بها إقامة المرحوم إسماعيل باشا لمقابلته وعرض ما أشار به السفير عليه.

فلما أراد السفر من دار السعادة أعطاه السفير خطاب توصية إلى معتمد فرنسا فى تونس كما أخبره بأنه بعث بخطاب آخر إلى المعتمد للاحتفال به عند وصوله.

غادر المنشاوى باشا "دار السعادة" وعرج على "نابلى" وقابل إسماعيل باشا(٣) وعرض عليه ما أشار به السفير فنصح له بالابتعاد عن كل الأمور السياسية التى تضر بصالح الوطن ووصاه بوصايا أخرى نافعة ..!!!

(١) الذى تحدث عنه سابقا أثناء وقوف القطار فى محطة طنطا.

(٢) "دار السعادة" المقصود بها هنا هى مدينة "اسلامبول" أو استامبول كما تعرف الآن.

(٣) كان الخديو إسماعيل منفيا إلى ايطاليا بعد خلعه من كرسى الخديوية واستيلاء ابنه "توفيق" على السلطة.

ويقال : إن المنشاوى أطلع إسماعيل باشا على خطاب السفير فقرأه مترجما بالعربية وقد وصف السفير المنشاوى باشا بالشيخ فاستغرب ذلك وسأل الخديو عن هذا الوصف فقال له : إن لفظ الشيخ عند الأوروبيين يدل على التبجيلوالتعظيم..!!

وبينما المنشاوى باشا جالس فى أحد المحال العمومية إذا برجل طليانى كان تاجرا فى الاسكندرية قبل الثورة مر به وعرفه فسلم عليه وجلسا معا يتحادثان وقد سأل الرجل المنشاوى باشا عن محل إقامته فوصفه له وطلب منه أن يوالى زيارته مادام مقيما فى "نابلى" .

ولما افترقا توجه هذا الرجل إلى الجمعيات الخيرية وقال لرؤسائها كيف يوجد بين ظهرانينا ذلك الرجل الذى حمى المسيحيين يوم مذبحة طنطا وتلطخت ثيابه بدماء القتلى منهم الذين كان يحملهم من الشوارع وهم جثث هامدة وأوى الألوف منهم فى منزله بالقرشية وسفرهم إلى بلادهم على نفقته ولم تعلموا بوجوده هنا ولم تحتفلوا به وتجروا له المظاهرات الودية. فاجتمع أعضاء هذه الجمعيات وقرروا فيما بينهم إجراء مظاهرة الإجلال والتعظيم للمنشاوى باشا..!!

ففى اليوم الثانى استيقظ المنشاوى من منامه فوجد المئات من أعضاء هذه الجمعيات أمام منزله فنزل ورحب بهم فدعوه إلى مأدبة أدبوها لأجله واعتذروا له عن عدم معرفتهم بوجوده فى "نابلى" فلبى الدعوة.

وفى ثانى يوم أتى إليه رؤساء وأعضاء هذه الجمعيات وكثير غيرهم من أكابر القوم هناك ومعهم الموسيقى وعملوا له موكبا حافلا كان يومه مشهودا حيث غصت الشوارع بالمتفرجين والموكب يسير والمنشاوى فى مقدمة الجميع وحوله الرؤساء والأعضاء وأمامهم الموسيقى حتى وصلوا إلى محل الاحتفال،

هناك تليت الخطب الرنانة فى مدح المنشاوى وتعداد مآثره على المسيحيين والأوروبيين منهم خصوصا فى وصف المذبحة التى حدثت فى "طنطا"، وكان المنشاوى باشا واقفا على منبر وبين كل خطبة وأخرى يقلد نيشانا فاخرا وهو يذرف الدموع من تأثير الحالة ..!!!

وأقام المنشاوى معظما محترما حتى سافر إلى تونس ولا داعى لذكر ما قوبل به سعادته فى تونس لأن الوقت غير مناسب ..!!!

من "نابولى" فى إيطاليا .. تحركت الباخرة مرة ثانية فى طريقها إلى الشرق الأقصى مرورا بالاسكندرية وبورسعيد والسويس وعدن وبومباى، وكلكتا .. وسنغافورة واسمها يعنى (مدينة الأسد.. وقد مرت هذه المدينة كما يقول الشيخ علىّ بأطوار شتى.

وكانت فى القرن الثانى عشر عاصمة (ماليزيا) التى تفرقت فى الشرق الأقصى وقامت بها فى هذه المدة ثورات داخلية لا داعى لذكرها الآن. وفى القرن الثالث عشر استولى عليها بعض ملوك الجاوه وبعد قليل من الزمن نقلت العاصمة منها إلى (ملقا) فاضمحلت وأخذت فى الانحطاط شأن المدن التى تكون قاعدة للممالك ثم ينقل منها رونق الملك وبهاء السلطان إلى غيرها.

وفى عام سنة ١٨٤٤ تدخل الإنكليز فى شؤون هذه الجزيرة وكان سلطانها يدعى السلطان "جوهر" فطمعه الإنجليز بأموال وأعطوه فى بادئ الأمر اثنى عشر ألف جنيه دفعة واحدة ورتبوا إله أربعة آلاف وثمانمائة جنيه سنويا ثم تنازل عن السلطة إليهم من هذه الجزيرة والجزر المجاوره لها(١) وهكذا يكون شأن البلاد التى يقضى عليها المقدور بالأخذ فى أسباب الموت الأدبى.

---

(١) وهكذا .. ضاعت معظم ممالك الإسلام.

وهذه الجزيرة واقعة بقرب الطرف الجنوبى فى شبه جزيرة (ملاى) ويفصلها عنها بوغاز سنجافورة وهواؤها معتدل لكن أغلب أرضها غير صالحة للزراعة.

ويقال : إنه يوجد حيوان مفترس من فصيلة النمر لا يكاد يمضى أسبوع حتى يفترس واحدا من الأهالى الذين لا قدرة لهم على مطاردته أو صيده.

وبهذه البلدة تجار من الهند يجلبون إليها البضائع من الهند. ولهولنده تداخل فى سياسة هذه البلاد. والمسلمون[1] هناك أمرهم عجيب. متمسكون بآداب الدين. من جهة العبادة فقط. ولكن فى الشؤون الأخرى التى عليها قوام حياة الأمم والشعوب لا هم عندهم ولا غيرة تحركهم إلى الأخذ فى أسباب النهوض. وفى الإشارة ما يغنى عن التصريح.!

وبهذه البلدة منتزه جميل للغاية يوجد فيه كل نباتات المنطقة الحارة وبها قلعة كبيرة محصنة على تل مرتفع بجوار المساكن التى يسكنها الصينيون وأهل هذه البلدة هم أهل وداعة ولطف يعدون من الطبقة العالية ممن تهذبوا وتنوروا بنور العلم أو الذين نشأوا فى العائلات ذات الحسب والنسب. وفيها بضائع جميلة تحمل إليها من الجهات. وهى بهذه المزية تعد من أمهات بلاد الشرق الأقصى عمرانا ومدنية.

من (سنغافورة) أقلعت بنا الباخرة إلى هونج كونج، ومنها إلى (يوكوهاما)، ومن (يوكوهاما) ركبنا القطار إلى مدينة (طوكيو).

يقول الشيخ على الجرجاوى فى كتابه (الرحلة اليابانية) :

---

(١) كان المسلمون يشكلون غالبية سكان هذه الجزيرة قبل الاحتلال البريطانى.. ثم بدأوا يتناقصون فى عهد الاحتلال حتى أصبحوا أقلية أى ٢٠٪ عشرون فى المائة من السكان.

إن مؤتمر الأديان الذى عقد فى (طوكيو) كان تحت إشراف الإمبراطور والحكومة اليابانية، وقد حضر هذا المؤتمر ممثلون لجميع الديانات المعروفة فى العالم .. كما كان ممثل الإسلام فى هذا المؤتمر (عالم) أرسله السلطان عبد الحميد بدعوة خاصة من الإمبراطور والذى كان اسمه فى ذلك الوقت (متوهيتو).

* فى جلسات المؤتمر استطاع المندوب الإسلامى أن يعرض الإسلام عرضا مبسطا، وأن يبين شموله واستيعابه لكل مظاهر التطور الحضارى والعلمى منذ بدء الخليقة وإلى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها.

* كما أوضح فى كلمته أن الإسلام يؤمن بجميع الرسالات الإلهية التى جاء بها الرسل كما يؤمن بجميع الكتب التى أنزلت على هؤلاء الأنبياء والرسل ويعتبر الإيمان بجميع الرسل والكتب كالإيمان بالقرآن والنبى محمد ﷺ .

* كما بين أن الإسلام كشريعة تستوعب كل شىء فى هذه الحياة بدءا من حركة الكون فى السماء والأرض... حتى الحيوان شملته شريعة الإسلام بالرحمة ووضعت القوانين التى توفر له الحماية وتحول بين مالكه وبين إرهاقه أو استعمال القسوة معه.

* كما بين المتحدث باسم الإسلام أن طلب العلم فى الإسلام فريضة على كل مسلم ومسلمة، وأن الجهل والتخلف يعنيان الهلاك والموت فى الدنيا والآخرة ..!

وما كاد المتحدث ينتهى من كلامه .. حتى أقبل الناس عليه من كل فج وبدأوا يسألونه عن الإسلام فى تلهف وشوق.

* ولكننا- كما يقول الشيخ على الجرجاوى- قصرنا وأهملها ولم نقم بواجب الدعوة ولم نعد الدعاة المؤهلين للقيام بهذه الرسالة وتركنا الميدان خاليا

للآخرين الذين لا يألون فى مؤمن إلا ولا ذمة [1].. وبهذا أفلتت الفرصة . وفقد المسلمون (قوة عظمى) كان من الممكن أن تدخل فى الإسلام وتعلى من شأنه فى هذه الدنيا.

ويقول الشيخ على :

لما حضر الأعضاء المندوبون من قبل دولهم لحضور المؤتمر على حسب رغبة (الميكادو)[2] الذى أصدر أمره الرسمى بانعقاده. استقبلوا أحسن استقبال وأعد لهم محالاً للسكنى لائقة بكرامتهم وكرامة الدول المرسلة لهم. وأعد لهم كل ما يلزم لكل وفد إلا الأطعمة فإنها لم تكن على مصاريف الحكومة اليابانية والسبب فى هذا ليس البخل أو الاقتصاد ولكن لعدم معرفة ما يوافق كل وفد من أنواع المأكل فلذلك جعلوا لهم حرية اختيار الأطعمة ..!!

ولم يكد يستقر قدم هؤلاء الوفود حتى حدثت ضجة كبرى بين المبشرين المسيحيين واضطربت أفكارهم أيما اضطراب سواء فى ذلك الكاثوليك منهم أو الأرثوذكس أو البروتستانتت وقد اجتمع بعض أعضاء هذه الوفود من غير المسلمين بالمبشرين وسألوهم عن نتيجة أعمالهم من التبشير وأخذوا فكرهم من جهة الدين الذى يميل إليه اليابانيون أكثر من سواه من الأديان الأخرى.

فأجابهم المبشرون بما يأتى :

إننا لا يمكننا أن نجزم جزما حقيقيا أو نرى رأيا صائبا عن الدين الذى هو أكثر موافقة لليابانيين. وذلك أن منهم من اعتنق الدين المسيحى وبعد أن أوضحنا لهم قواعده وتعاليمه وعانينا من ذلك ما عانيناه من المشاق رأيناهم

---

(١) "إلا" أى " قرابة . والذمة معناها العهد.

(٢) (الميكادو) لقب كان يطلق على ملوك اليابان فى هذا الزمان.

رفضوا كل ما ألقى إليهم رفضا تاما ولم نعلم السبب الذى ألجأهم إلى هذا الرفض حيث كنا نجتهد فى إزالة ما علق بأذهانهم ..!

ومنهم من دخل فى الديانة المسيحية ومكث مدة ثم خالفها واتبع شريعة (كونفوشيوس) ويدعون أن هذه الشريعة من مبادئها أن تؤلف بين القلوب على أننا إذا تصفحنا تعاليمها نجدها كلها خرافات واعتقادات فاسدة ومهما كان فلابد من وجود سبب دعاهم إلى مخالفة الدين المسيحى بعد أن اعتنقوه.

وبما أن حرية الأديان فى اليابان مستوفية كل شروط الحرية ولم نفلح نحن مع مكثنا هذه المدة الطويلة فكيف بنا لو كانت هذه الحرية مفقودة.؟!

والأغرب من هذا كله أن كثيرا من الذين اعتنينا بهم من أبناء اليابانيين وأدخلناهم فى مدارسنا وصرفنا عليهم المبالغ الطائلة فى وجوه كثيرة غير المأكل والمشرب يخالفوننا تمام المخالفة، وهم ليسوا بالعدد القليل بل يعدون بالآلاف وبذلك تكون المصيبة مضاعفة(١).!!!

مصيبة ارتدادهم عن الدين ومصيبة المصاريف الكثيرة ومصيبة تعبنا الذى ذهب أدراج الرياح فنحن الآن فى حيرة ما بعدها حيرة ..!!

فلما سمع الوفود من المبشرين هذه الأقوال وعرفوا ما لقوه من الشدائد مع عقم النتيجة صاروا فى حيرة من أمرهم واعترتهم الدهشة وقالوا:

إذا كان هؤلاء مكثوا مدة طويلة وصرفوا مبالغ طائلة وفتحوا مدارس عديدة وللآن لم يحصلوا على ثمرة أتعابهم. فكيف بنا ونحن حديثو العهد بالقدوم إلى اليابان ..؟

---

(١) المبشرون.لا يدعون إلى دين وليست لهم رسالة إنسانية وإنما هم دعاة غزو وفتن فى أى مكان يعملون فيه.

ويقول الشيخ على :

(... ... لما وفدنا إلى اليابان ووصلنا إلى طوكيو شاع خبر وصولنا . بين المبشرين المسلمين والمسيحيين. وكان فى طوكيو أحد علماء وفضلاء مسلمى الهند يدعى السيد حسين عبد المنعم وهو شريف النسب فجاء إلينا وأظهر لنا بشرا زائدا وإرتياحا من حضورنا إلى اليابان. وأخبرنا أنه قدم إلى هذه البلاد على نفقة بعض أفاضل مسلمى الهند للتبشير بالإسلام وأن له نحو الخمسة شهور وهو متشوق إلى من يعضده ويساعده من المسلمين فى نشر لواء الإسلام ولم يجد أحدا ولذلك كان يقاسى متاعب شتى شأن المنفرد فى عمل جليل يحتاج إلى معين. فاتفقنا جميعا على أن نكون يدا واحدة وأن نؤلف جمعية. وفعلا تم الاتفاق وصار هو الخامس لنا .

وبعد هذا الاتحاد والاتفاق قررنا أن نستأجر محلا لسكنانا أولا وليكون محلا للجمعية ثانيا . ثم بعد ذلك أخذنا نبحث على المحل الموافق وفى أثناء البحث حصل التعارف بين حضرة السيد حسين عبد المنعم وبين رجل يابانى من مشاهير التجار بطوكيو يدعى المسيو (جازنيف) وهو على جانب عظيم من الفطنة والذكاء وطيب النفس وكرم الأخلاق.

وصادف أنه سأل حضرة السيد حسين عن الغرض من أخذ المنزل فعرفه بأننا مسلمون ونريد أن نأخذ منزلا للسكنى وللجمعية فما كان من هذا الرجل الأريحى إلا أن طلب من حضرة السيد حسين أن يقابله معنا .

ولما حضر معه قابلنا بالترحيب ولما استقر به المقام طلب منا أن نشرح له قواعد الإسلام ونبين له أمر تفضيله على سائر الأديان. فكان حضرة السيد حسين يترجم باللغة الانكليزية ما تقرره جمعيتنا .

فلما وقف هذا اليابانى على حقيقة الدين الإسلامى وذاق حلاوته فى قلبه فلم يلبث إلا أن قال لنا :

اعتبرونى من الآن فى عداد المسلمين، فلقناه الشهادة وهنأناه على خروجه من الظلمات إلى نور الإيمان وبذلك حصل لنا كلنا السرور التام واستبشرنا بنجاح الآمال. وبعد أن أسلم قال لنا : إنى فى استعداد تام إلى كل ما تكلفوننى به من المصالح كما أنى تبرعت لكم ولجمعيتكم بمنزل هو ملك لى لا أطلب منكم أجرته ما دمتم هنا وهذا كله إكرام لهذا الدين الذى باعتناقى إياه أصبحت أسعد السعداء..!!!

والذى سهل أيضا علينا هداية القوم إلى ديننا القويم أن حالة اليابانيين الطبيعية ساعدت كثيرا على اعتناق الإسلام لأنهم قوم عندهم استعداد طبيعى لقبول كل ما يوافق العقل ونفى كل ما يخالفه مهما أثبتوه بجميع أوجه السفسطه والمواربة.

وأول دليل على أنهم فى استعداد كاف لقبول الأوصاف الصحيحة حبهم لوطنهم هذا الحب النادر المثال لأن من كان هذا الشعور فيه طبيعيا فهو أقرب إلى الهدى من الضلال والرشد من الغى.

فلو كان المسلمون أرسلوا وفودهم إلى اليابان قبل هذا الأوان واستعملوا هذه الطريقة التى استعملناها لكان المسلمون منهم الآن يعدون بالملايين لا بالألوف[١] ...؟!!!

أما الذين اعتنقوا الإسلام على أيدينا فبلغ عددهم نحو الاثنى عشر ألفا. فلو كان المبشرون المسلمون وفدوا إلى اليابان من زمن مديد كما بينت لكان

---

(١) وهذا ما أكده لنا العالم اليابانى المسلم الحاج عمر متيا.

عدد المسلمين أضعاف هذا العدد بكثير. ومن الذين أسلموا على يدنا كثير من الحكام والتجار المعتبرين وذوى الحيثيات وكثير من الوسط فى الأمة.

وأول من أسلم على يدنا جناب المسيو (جازنيف) ثم (أتر الكيبو) و(انستليز بو) و(كور فارى) وغيرهم من العظماء الذين لو كتبنا أسماءهم لاحتجنا إلى مجلد ضخم ..!!

ومنهم لم يرد تغيير إسمه الأصلى ولا تغيير إسم عائلته فعرفناهم أن هذا لا ضرر فيه. والذين لهم زوجات تدين بالدين المسيحى لم يردن أن يغيرنه. فعرفناهم أيضا أن هذا جائز فى الإسلام والذين لهم زوجات باقيات على الاعتقادات الفاسدة عرفناهم أن الإسلام يأبى ذلك كل الإباء. مع أننا وطدنا الأمل بأن المسيحيات وغيرهن سيعتنقن الدين الإسلامى قريبا حيث هن مطيعات محبات لبعولتهن.

هذا وقد عقدنا جلسات جمعيتنا ثمانى عشرة مرة وكل مرة كان يعتنق الإسلام الخلق الكثير كما بينا.

والذى يقارن بين الذين اعتنقوا الدين الإسلامى من اليابانيين والذين تمذهبوا بالمذاهب الأخرى منهم مع اعتبار المدة والعدد يجزم بأنه لا يمضى عقد من قرن إلا ويكون المسلمون اليابانيون يعدون بالملايين(١) ..!!!

وبعد أن أقمنا فى مدينة طوكيو نحو الأسبوعين أردت أن أتجول فى بلاد اليابان ووافقنى على ذلك حضرة الحاج مخلص محمود والسيد حسين عبد المنعم واخترنا الذهاب إلى مدينة (كيوتو) عاصمة اليابان القديمة لأنها المدينة الوحيدة بين سائر مدن اليابان بعد طوكيو من حيث جودة هوائها واستكمالها

---

(١) كان هذا ممكنا لو اهتم المسلمون بالدعوة وإرسال الدعاة إلى اليابان.

أنواع الحضارة والمدنية ولما فيها من كثرة المتنزهات الجميلة والمسافة بينها وبين طوكيو نحو الست ساعات تقريبا لراكب السكة الحديدية.

ولما كان من شأن المسافرين في صحبة أن يتجاذبوا أطراف الحديث كان حضرة الحاج مخلص محمود يحدثنا عن أحوال الروسيا وما يلاقيه الرعايا هناك من أنواع الظلم والاستبداد مما لم يسمع بمثله إلا في عهد الرومانيين وعلى الخصوص الرعايا المسلمون الذين كان يقص علينا من أحاديث إضطهاد الروس لهم وظلمهم إياهم ما يجرى شؤون العيون بدل الدمع دما ويدع القلب الذي كأنه قدّ من الصخر إلى الرأفة بهم والتوجع لهم الأمر الذى دعانا إلى التباحث والنظر فى مستقبل الإسلام والمسلمين بعد أن تسلم اليابان..!!!

فمن قائل : إن إسلام اليابان يعيد ماضى مجد هذا الدين الذى طوته الأيام والليالى، ويحيى ما اندثر من معالم عزه وتمكينه ويغرس فى نفوس الأمم جمعاء الإسلام كما كان فى تلك العصور السالفة.

ويعللون هذا القول بأن الأمة اليابانية هى الدولة الشرقية التى انفردت بسمو المنزلة وعظم الجاه والمهابة فى نظر كل الدول والحكومات فى الشرق والغرب فإذا أسلمت فلابد من أن ينضم إليها مسلمو الصين والهند أيضا لداعى الجوار فيتألف من هذه الأمم الثلاث قوة إسلامية كبرى فى البر والبحر وبذلك يعتز العالم الإسلامى بأجمعه ويكون الميكادو فى هذا الحين كصلاح الدين الأيوبى ومن ماثله من ملوك الأندلس الذين أبدوا مركز الخلافة ولم يؤثر استقلالهم فيها تأثيرا يذكر.

وتكون كل الممالك الإسلامية المستقلة متحدة الكلمة باسم الدين وإن كانت لم تجتمع تحت جامعة الحكم وتكون طوكيو قبلة مسلمى الشرق الأقصى كما أن دار السعادة قبلة مسلمى الشرق الأدنى ..!!

ولقد حادثت كثيرا ممن لقيتهم من أهل الصين والهند فى هذا الصدد فكل قال بهذا القول.

وأكبر دليل على أن إسلام اليابان لا خطر فيه بل فيه كل الخير للجامعة الإسلامية هو :

أولا: أن الأمة اليابانية إنما بلغت هذه الدرجة من الاستعداد للأخذ بأسباب العلو والرفعة.

ثانيا: أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تضمنت أحكامه من العبادات والمعاملات كل ما به سعادة الأمم على تباين الأجناس والعوائد فهو بلا ريب يزيد فى استعداد القوم إلى الرقى المادى والأدبى. والذى يؤيد هذا أنهم يبحثون عن الدين الموافق للعقل. فهم إذا قاموا بالشعائر الدينية لا يقومون بها بصفتها عبادات أو أوامر أو نواهى فقط بل ينظرون إلى الحكم والمقاصد المودعة فى هذه العبادات والمعاملات ويعملون بها كما يؤدنها بصفتها شعائر دينية.

فإذا حج منهم إناس كثيرون مثلا واجتمعوا فى تلك الأماكن المقدسة بغيرهم من المسلمين سألوا كل أهل قطر عن أحوالهم الاجتماعية وعن كل باقى بلادهم من أسباب الحضارة وغير ذلك مما يزيدهم معرفة بأحوال أخوانهم المسلمين وفى هذا من النفع العام ما لا يحصيه قلم وينفذ دونه مداد المحابر ..!

ومما يلفت النظر فى مذكرات هذا الداعية المسلم أن اليابانيين لم يتقبلوا المسيحية بالترحاب والقبول. فالذين اعتنقوا المسيحية رجعوا بعد ذلك عنها إلى نحلة "بوذا" و"كونفشيوس"، وقد بحث المبشرون عن السر فى هذه الردة الجماعية بعد ما بذلوه وتحملوه فى سبيل نشر المسيحية فى صفوف اليابانيين.

وقد تعرض الرحالة المسلم لمناقشة هذه القضية فكتب يقول :

من المعروف لدى كل سياسي خبير بدخائل السياسة الأوروبية أن الغربيين يتخذون الدين وسيلة توصلهم إلى مقاصدهم السياسية، وقد كانت حوادث الصين، وثورة "البكسر" أعظم درس لليابانيين في هذا الخصوص، لأن ثورة "البوكسر" أصلها ناشئ عن الإرساليات الدينية المسيحية التي تجاوزت حد الاعتدال في التبشير بالدين المسيحي حتى أحرجت صدور الصينيين فكان ما كان.

وقد حصلت أوروبا على أغراضها بهذه الوسيلة فصار لها نفوذ في الصين بل امتلكت فيه بقاعا لم تكن تملكها بأية وسيلة غير الوسيلة الدينية[1].

ولما جعلت دولة اليابان الديانات حرة في بلادها ووفد إليها المبشرون استعملوا الطرق نفسها التي كانوا يستعملونها في الصين، ولا حاجة إلى ذكرها هنا ... بل غاية ما يقال هو أنهم لم يتبعوا طرق الاعتدال في دعوة اليابانيين إلى إعتناق الدين المسيحي، وأيضا فإنهم أخذوا ينتشرون في الجزر اليابانية ويفتحون المدارس لأجل نشر العلوم في الظاهر، وفي حقيقة الأمر أنهم جعلوها متجرا لكثرة المصاريف التي يتكبدونها في هذا البقاع.

فلما رأت الحكومة اليابانية منهم أنهم لم يتبعوا الخطة التي من شأنهم أن يتبعوها أنذرتهم انذارا رسميا، ونقلت الصحف أخبار ذلك على اختلافها كما نقل إلى أنحاء المعمورة كلها. ومما جاء في هذه الانذارات :

إنكم أيها المبشرون لما قدمتم إلى بلاد اليابان لأجل نشر تعاليم الديانة المسيحية، وفتح المدارس لتعليم الناشئة العلوم العصرية، حمدنا قصدكم وشكرنا

---

(١) وهذا هو الهدف الحقيقي لعصابات التنصير في العالم.

انظر في هذا الموضوع : كتاب "التبشير والاستعمار" تأليف د/مصطفى الخالدي ، ود/عمر فروخ.

لكم غيرتكم على النوع الإنسانى، وقابلناكم بالترحيب، وسهلنا لكم كل الوسائل التى بها تتمكنون من الإقامة بيننا إقامة الراحة والأمان على الأرواح والأموال والأغراض شأننا مع كل غريب يفد إلى بلادنا لأجل نفع ابن جنسه، ولكننا لم نلبث إلا قليلا حتى رأيناكم خالفتم سنة الاعتدال فى هذه الأحوال، ورسمنا لكم الخطة التى تسيرون عليها وأبلغناكم إياها رسميا عساكم تكونون جاهلين بأخلاق وعوائد البلاد وحتى لا يكون لكم عذر فيما بعد إذا عاملناكم بخلاف معاملتنا الأولى، فلم تلتفتوا إلى هذه الخطة، ولم تعملوا بها، ونبذتم ما رسمناه لكم وراء ظهوركم.

أما الآن وقد فعلتم هذا فإن الحكومة تنذركم إنذارها الأخير، وتحذركم عواقب الخروج عن حد الاعتدال. فإن عملتم بما رسمناه لكم أولا فبها ونعمت. وإلا حل بكم ما حل بأمثالكم فى بلاد الصين [1].!!!

وإذا كان ابن بطوطة قد اشتهر برحلته التى تنقل فيها بين أقطار العالم المختلفة، وبقيت أخبار رحلته هذه مرجعا لدراسة أحوال هذه الأقطار فى عصره، فإن "الرحلة اليابانية" التى قام بها الشيخ على الجرجاوى لم تكن تقل عن رحلة ابن بطوطة أثرا وأهمية.

فقد بدأ هذا الشيخ رحلته من (مصر المحروسة) إلى الاسكندرية. ثم ركب منها البحر إلى تونس، ومراكش، وايطاليا، ثم كر عائدا إلى السويس وجدة وعدن، وبومباى، وكولومبو، وسنغافورة، وهونج كونج، ومن هناك استقل باخرة إلى "يوكاهاما" و"طوكيو".

وإذا كان ابن بطوطة قد اشتهر بمغامراته التى سجلها فى رحلته، فقد

(١) المبشرون فى كل مكان يتصرفون تصرف العصابات وليس الدين عندهم سوى رداء يتسترون وراءه حتى لا يفتضح أمرهم بين الناس.

حرص الشيخ على الجرجاوى فى كل بلد زاره على دراسة أحواله وتاريخه وحضارته، لينقل النافع من هذا كله إلى أبناء دينه وملته، وكما يقول الشيخ على فى مقدمة رحلته:

هذا وإنى وضعت هذا السفر فى رحلتى إلى بلاد اليابان وأودعته من أخبار تلك الأمة ما تغنى مطالعته عن النديم والسمير، ومن أشياء شاهدتها فى ذهابى وإيابى إلى البلاد الأخرى رأيت من إتمام الفائدة ذكرها فى هذه الرحلة.

وهناك مقصد آخر أرى من الضرورى الإلماع إليه. وهو أننا أصبحنا فى عصر تتسابق فيه الأمم إلى إحراز قصب السبق فى ميدان الحضارة فأجدر بالشبيبة المصرية أن تطالع مثل هذه الرحلة ليروا أن فى الشرق أمة تنظر إليها الأمم الأخرى نظرة الإجلال والاعتبار حتى إذا قرأوا عنها دبت فى نفوسهم الحمية ، فنزعوا عن أنفسهم رداء الكسل .. وقالوا : "حى على خير العمل"...

ومن أطرف ما سجله الشيخ فى رحلته هذه الواقعة التى تعرض لها فى مدينة (نابولى) بايطاليا :

(... ... بينما أنا مار فى بعض الشوارع وإذا بصوت مناد . يقول : يا محمد [1]!!! وكرر ذلك مرارا . فإذا بأحد الطليانيين يشير على بالوقوف. فوقفت. وأتى فحيانى بتحية المسلمين وصافحنى قائلا: إنك شرقى، ويظهر لى أنك من أهل العلم، فقلت : نعم .. فقال لى : إنى أستاذ فى المدرسة الشرقية. وأحب أن تزور المدرسة لترى كيف تعلم لغتكم العربية فى مدارسنا .. فشكرته على شعوره، وطلبت منه مرافقتى إلى السفينة لألبس ملابس غير التى علىّ. حيث كنت بملابس السفر. فلبىّ طلبى وكنت أحادثه فى الطريق. فإذا هو يتكلم بالعربية

(١) يقول الشيخ على .. لقد سألت الأستاذ الايطالى كيف عرفت أن اسمى محمد؟ فأجاب الأستاذ الايطالى : نحن نعتبر كل مسلم محمدا ..!!!

الفصحى بغير لحن، وقد أعطانى (كارتا) باسمه (توليوبزوشى) كما قدمت له (كارتا) أيضا.

ولما وصلنا إلى المدرسة قدمنى للرئيس والأساتذة فقابلونى بالحفاوة وبالغوا فى الاحتفاء بى. وكان حضرة المسيو (توليوبزوشى) خاليا من حصة الدراسة فى هذا الوقت، فطلب منى اختبار التلامذة فى اللغة العربية وتاريخ العرب. وهم خليط من الطليان والفرنسيين وغيرهم. فاختبرتهم في فصولهم كلها .. فدهشت لنجابتهم وذكائهم وسرعة أجوبتهم .. الأمر الذى جعلنى أتمنى لو يكون اهتمام مدارسنا المصرية بلغتنا العربية كاهتمام الايطاليين بها(١)..!!!

وكان التلميذ إذا تكلم بالعربية لا يلحن قط، لأنه تلقى اللغة بحسب القواعد النحوية، فكان يجيد النطق إذا تكلم بجواب عن سؤال أو قرأ فى كتاب.!

وغاية الأمر أن الخط العربى هناك مثل خط أهل تونس والجزائر والمغرب الأقصى.

ولم يقتصر القوم على تعليم اللغة العربية فقط. بل إنهم يدرسون لهم تفسير القرآن بطريقة عجيبة. حيث يحفظ التلميذ السور الصغيرة وبعض الآيات مع فهم المعانى ومعرفة كم من الآيات فى السور مكية وكم فيها مدنية..!

فلينظر المصرى العربى إلى هذه العناية العظمى بأمر اللغة العربية والقرآن الشريف من قوم ليسوا من العرب. ولا ممن يدينون بالدين الإسلامى الحنيف، وليقارن بينها وبين ما تلاقيه لغتنا فى نظارة المعارف من عدم الإهتمام وليتخذ له بذلك عبرة ..!!!

---

(١) ترى ... ماذا كان سيقول الشيخ على لو عاش حتى هذا اليوم ليرى العجب. وليشهد مصرع اللغة العربية حيثما ذهب..!

لقد كان الشيخ على الجرجاوى واحدا من هؤلاء الرواد الذين اختاروا التضحية طريقا إلى الله، وإلا فكيف يستطيع رجل مثله التنقل والترحال بين مختلف الأقطار مسافرا أكثر من اثنى عشر ألف ميل محتملا ما يعجز عنه أولو العزم من الرجال ما لم يكن دافعه إلى ذلك إيمان يتخطى الصعاب. وروح جياشة بالأمل والعمل لخير المسلمين والإسلام.

ماذا كان يمكن أن يحدث لمثل هذا الرجل لو ظهر فى أمة غير مسلمة ..!

إن (ليفنجستون) الرحالة الإنجليزى المنصر خلد إسمه فى كل صحيفة وكتاب. وأقيمت له التماثيل والنصب فى كل مدينة وميدان، ونحن لا نطالب بمثل هذا التكريم الذى يرفضه الإسلام ... وإنما نطالب علماءنا ومفكرينا بتكريم هذا الرجل على نحو يشجع غيره من الدعاة والرواد. وهو تكريم يفرضه الإسلام لا يضيع عنده أجر عامل من الرجال أو النساء.

وفى هذا يقول الشيخ الجرجاوى موجها كلامه إلى العلماء والأغنياء :

أنتم يأيها العلماء . ويا ورثة الأنبياء. ويا من هم بمنزلة النجوم فى هداية الأمة بل وقادتها إلى سبيل الخيرات: كيف تقاعدتم وتكاسلتم واحجمتم عن أداء هذا الواجب الدينى ؟

ألستم كهؤلاء المبشرين الذين خرجوا من ديارهم . وفارقوا أهلهم وعشيرتهم. وجابوا القفار وقطعوا عرض البحار. تارة يلفحهم الهجير. وأخرى يضرهم الزمهرير.. كل ذلك فى سبيل نشر دينهم فى تلك البلاد؟

أهم خلقوا من حديد حتى تكون قواهم فوق قوى البشر فى احتمال مشاق السفر. أم دينهم أوضح من دينكم حجة وأقوى محجة. أم ذهبوا بدعوة خصوصية دون سائر الناس؟

ليس هذا ولا ذاك وإنما الهمم تتفاوت . والعزائم تتبارى والواجبات صادفت من يؤديها ويقوم بها .!

تمحلنا لكم اسم العذر من سكرتكم عن محو هذه البدع التى فشت وانتشرت فى البلاد. وكثر من جرائها الفساد. وحطت من كرامة الدين. وقلنا : إن الذنب للحكومة التى أباحت فتح بيوت المومسات العاهرات. وسهلت للشبان الدخول فى الحانات ومغازلة الغانيات الراقصات جهارا بلا خفاء ولا استحياء... فقولوا لنا يرعاكم الله : ما عذركم فى عدم تأليف لجنة منكم تذهب إلى بلاد اليابان أو الصين للدعوة إلى الإسلام؟ قولوا لنا . وقولكم الحق. وأصدقونا الحديث وأنتم أهل الصدق : أتؤلف اللجنة من السماسرة والتجار؟

أم من كل بناء ونجار؟

أم من الصيدليين وأنتم بين جدران الأزهر تتلون الكتاب "كتاب الله" . وتفسرون معناه. وتدرسون حديث الرسول وعلوم المعقول والمنقول. وتلقبون بالألقاب الجليلة. ما بين العلامة وصاحب الفضيلة !!!

إن وظيفتكم ليست فى الزى واللباس. وليست قاصرة على حمل الكراسى. بل وظيفتكم تأييد الدين. ورعاية شأن المسلمين، فالدعوة إلى الإسلام أولى منكم بالاهتمام .. ألم تفهمونا معنى قول سيد الكائنات : (إنما الأعمال بالنيات)؟ ألم تقرأوا فى الكتاب المبين قوله تعالى :

﴿ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾

أما أنتم أيها الأغنياء والموسرون فإنكم خالفتم سيرة كل ذوى الغنى

واليسار من الأمم الأخرى. تلك السيرة التى أنتم بها أولى وأحرى : إذ أنتم تجهدون أنفسكم ليل نهار فى كسب الدرهم والدينار، وتبذلون ما تجمعونه فى سبيل الملاهى والعقار، ومظاهر الأبهة والفخار، أو فى لعب القمار، أو تكتنزونه خوفا من الدهر أن يوقعكم فى شرك الفقر، أو تدلون به إلى الحكام طمعا فى رتبة أو نيشان. أو يساعدوكم على ظلم فلان وفلان .!!!

أما هؤلاء فانهم يبذلون أموالهم فى نشر العلوم والصنائع، وغير ذلك من وجوه المنافع، وبذلك سادت الأمم الراقية وارتقت بمقدار إنحطاطكم فى الهمم.

أليس من الخسران المبين أنكم تمنعون زكاة المال، ولا تؤدون شكر المنعم به عليكم وتذهبون فى كل صيف من كل عام إلى أوروبا وتبذرونه ذات اليمين وذات الشمال فى سبيل شهواتكم النفسية، وبعد صرف الدرهم والدينار تفدون محتقبين الأوزار والذل والعار على حين أنكم ترون الأغنياء من الأمم الأخرى تجود بالمال للبعثات العلمية والدينية وترقية العلوم العصرية.!!!

ماذا عليكم لو فتحتم اكتتابا لتأليف بعثة دينية تسافر إلى بلاد اليابان وتنشر التعاليم الدينية. والعقائد الإسلامية. على أن المال لديكم لا يوزن بالميزان: بل يكال بالقفزان !!!

أما دينه فلأنه سعى فى الدعوة إليه، وأما وطنه فلأنه بفعله هذا يجعل الأمم الأخرى ترمق المصرى بعين الاعتبار. وأما نفسه فلأنه اكسبها فضيلة من أعظم الفضائل؟!

هذه كلمتى قلتها. وأنى على يقين بأنها لا تعدم منصفا كشف الله عن بصيرته حجاب الضلال، ولا تلبس عليه الحق بزور المقال، كما أنها لا تعدم من من خلقه المجادلة فى الله بغير علم ولا هدى . والله يرشدنا إلى الطريق المستقيم.

ترى هل كان الشيخ (على الجرجاوى) على علم بما يقع بالمسلمين والإسلام فى هذه الأيام؟ أم ترى كشف له عن الغيب الذى انتقل إليه قبل ستين عاما وخمسة أعوام.

أم هى مأساة الإسلام مع المسلمين، الذين تخلوا عن رسالتهم ودورهم فى هذه الحياة؟ أم هو الجحود والتنكر - اللذان اتسم بهما هذا العصر- لأئمة الإصلاح والجهاد الدعاة ؟!!!

فى مستشفى طوكيو المركزى التقينا بالحاج "عمر ميتا" مترجم معانى القرآن إلى اللغة اليابانية كان مريضا لا يقدر على الحركة. لكنه تحامل على نفسه وقام ليرحب بنا. ثم قال :

لقد كان من سوء حظنا نحن ... مسلمى اليابان .. أن ترك المسلمون والعرب الساحة اليابانية خالية أمام المبشرين .. ملوك الشر فى هذا العالم ..!!!

كما كان من سوء حظنا نحن مسلمى اليابان أن لم نصادف داعية فى مستوى الداعية المصرى العظيم الشيخ على الجرجاوى ... غير أن الفرصة لاتزال قائمة أمام العرب والمسلمين لو أحسنوا الاختيار.

اختيار الدعاة المزودين بثقافة العصر واختيار الدعاة الراسخين فى العلم..!!

روسيا
تاريخ أسود وحاضر
أشد سوادا

روسيا

تاريخ أسود وحاضر

أشد سوادا !

منذ سنوات نشرت مجلة التايم - عدد ١١ ابريل ١٠٨٨م بحثا تاريخيا بمناسبة مرور ألف عام على دخول المسيحية إلى روسيا.

فقد أصبحت المسيحية الدين الرسمى فى روسيا منذ عام ١٩٨٨م عندما قرر الأمير فلاديمير اعتناق المسيحية واعتبارها الدين الرسمى للدولة.

ولكن قبل أن يحدث ذلك .. كانت هناك محاولات جادة من قبل الروس لاعتناق الإسلام.

وتقول الروايات التاريخية: إن من الأسباب التى صرفت هؤلاء الروس من المضى فى هذه المحاولة أنهم - أى الروس- عندما علموا بأن الإسلام يحرم الخمر. صرفوا النظر عن اعتناقه. لأنهم لا يستغنون عنها ويعتبرونها متعتهم الوحيدة فى هذه الدنيا .!

هذا بالإضافة إلى أسباب أخرى ترجع فى مضمونها إلى التقاليد الإسلامية العريقة وفى أسلوب الحياة الذى يجب أن يكون تطبيقا عمليا لأحكام الدينوالشريعة.

كان الروس فى هذه الفترة أمة متوحشة، كما كانت القذارة من صفاتهم الواضحة وقد وصفهم ابن بطوطة وصفا. لو عرفه الروس لأخرجوا جثته من القبر بعد أن ينسفوه بقنبلة نووية..!!!

ويقول الرحالة "ابن فضلان" فى وصف "الروس" :

هم شقر حمر، أجسامهم كالنخيل. ويحمل الرجل منهم فأسا وسيفا وسكينا فى كل مكان.

وهم ينقشون أجسادهم بالصور ورسوم الأشجار بطريقة "الوشم" من أقدامهم حتى العنق..!!

وتضع المرأة على صدرها ما يزينه من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد ويدل ما تضعه على صدرها على مكانة زوجها وثرائه. ويزينون الأثداء أيضا بحلقات فيها سكين ..!!

وأعظم الحلى فى نظرهم : "الخرز الأخضر".

وهم يعيشون جماعات، لكل منهم سريره وجواريه. ويتناكحون نهارا جهارا بدون حياء..!!

ويغسلون وجوههم من آنية واحدة وبنفس الماء دون تقزز أو قرف.!!

وهم تجار، يأتون إلى بلاد السلاف يحملون معهم فى سفائنهم الجلود والجوارى واللحم والبصل واللبن والنبيذ وغير ذلك.

ويعرض كل تاجر بضاعته، بعد أن يصلى لخشبة معه لها وجه إنسان وحوله وجوه صغار، ويمنحها هدية مما أتى به.

وكلما مر عليه الوقت دون أن يبيع، ضاعف فى الهدية، للكبير وأعطى أيضا للصغار، حتى يتيسر له بيع ما معه، فإذا ما انتهى من تجارته فإنه يشترى بعض الغنم والبقر، فيذبحه، ويتصدق ببعضه، ويضع الباقى أمام الخشب. فتأكله الكلاب وهو يظن أن ربه قد قبل هديته..!!

ومريضهم منبوذ مع طعامه وشرابه..

ولهم عادات غريبة مع الموتى..

فإذا كان الميت فقيرا، صنعوا له قاربا صغيرا. ووضعوه فيه وأحرقوه وإن كان غنيا. قسموا ثروته ثلاثة أقسام:

قسم لأهله. وقسم لكسائه. وقسم لنبيذه يوم الحرق.

وهم دائمو الشرب والسكر. ولا يموت كبير منهم إلا ورافقه أحد جواريه أو غلمانه.

وشاهد "ابن فضلان" طقوس دفن رجل. مع جارته.

وكانت هذه الجارية قد أعلنت عن رغبتها فى مصاحبة سيدها إلى قبره. وعندما أعلنت هذا أخذت الجوارى الأخريات يعتنين بها. ويغسلنها. ويشترين لها أحلى الثياب. وهى فرحة مستبشرة.

فإذا جاء يوم الحرق، وضعوا أخشابا على هيئة أركان، ومدوا فوقها لوحا، تنام عليه الجارية. ويلتفون حولها يتمتمون بكلام غير مفهوم.

ثم يأتون بسرير، ويضعون عليه ثيابا ملونة فاخرة. وتأتى امرأة عجوز يقال لها : ملك الموت. فتفرش على السرير الفرش والثياب.!

وتسير السفينة حتى مكان المقبرة. فيخرجون الميت من الخشب الذى كان فيه. ويخرجون ما معه من نبيذ وفاكهة. فيلبسونه سروالا وخفا وعباءة من الحرير لها أزرار من ذهب. ويضعون على رأسه طاقية من فرو السمور محلاة بالحرير، ويحملونه إلى السفينة. ويجلسونه ويسندونه بالمساند ويضعون أمامه النبيذ والفاكهة والريحان، ثم يأتون بخبز ولحم وبصل فيجعلونه بين يديه. ثم يشقون كلبا نصفين. ويضعون جميع سلاحه بجانبه..!!

وبينما يتم هذا على السفينة، يكون هناك دابتان تجريان وهم يجرون وراءهما، لا يجعلونهما تستريحان لحظة واحدة. حتى تتعبا تماما، فيقطوعهما بالسيف ويلقوا لحمهما فى السفينة.

وكذلك يفعلون ببقرتين ثم ديك ودجاجة.

وأثناء ذلك تنتقل الجارية من قبة لأخرى. وفى كل قبة يوجد رجل يجامعها ويقول لها: (قولى لولاك انى فعلت هذا لمحبتك) ..!!!

كانت الآلة الروسية الجهنمية -ولاتزال- هى الوسيلة المثلى لمعاملة المسلمين فى كل الأمصار التى خضعت لحكم الروس.. وقد استبشرت هذه الأمصار والأقطار خيرا بعد سقوط الإمبراطورية القيصرية فى موسكو.

وزاد من تفاؤل المسلمين واستبشارهم ما أعلنه "لينين" عن قيام نظام جديد يمنح الحرية لكل المسلمين لا فى روسيا فقط.. بل وفى كل أنحاء الدنيا..!!

لم يكن أحد يعرف فى ذلك الوقت أن الثورة "البولشفية" ثورة ضد الرأسمالية، ولتحقيق مصالح العمال والفلاحين ، فانخدعوا بها إلى حين.

كان "لينين" يريد استرضاء المسلمين فى داخل الإمبراطورية الروسية وخارجها، ففعل مثل ما فعل نابليون عندما قدم بحملته إلي مصر، وطبع منشورا باللغة العربية فى جزيرة "مالطة" يبين فيه أنه قد قدم إلى هذه البلاد ليحمى الإسلام والمسلمين، وقام رجاله بتوزيع المنشور عند وصوله إلى القاهرة.

ومع بداية الثورة البولشفية صدر منشور موجه إلى المسلمين ممهور بتوقيع لينين وستالين، وكان فى الاعتبار بطبيعة الحال المليون جندى من المسلمين الذين لا يزالون فى الجيش، ولم يكن القتال قد توقف.

يقول المنشور المؤرخ فى ٢٢ نوفمبر ١٩١٧م أى بعد شهر من الثورة :
"يامسلمى روسيا .. يامسلمى الشرق .. أيها الرفاق.. أيها الأخوة :

إن أحداثا عظيمة تحدث الآن فى روسيا.. ان العهد الدموى الذى بدأ بسبب أطماع الاستعماريين والامبرياليين فى أرضكم قد قارب النهاية.. وتحت ضربات الثورة الروسية فإن النظام الاستعبادى يتقوض بناؤه الآن .. وأن حكم الطغاة والمستبدين ومصاصى الدماء يقترب من أيامه الأخيرة الآن.. وإن عالما جديدا يولد الآن.. عالم الأحرار والعمال. وعلى رأس ثورة الفلاحين والعمال يقوم مجلس الشعب الممثل بالقوميسار الروسى.

إن عهد الرأسماليين والامبرياليين يتداعى، وأن الأرض تميد من تحت أرجلهم، وتشتعل الثورة من تحت أقدامهم.

وفي خضم هذه الأحداث العظام، نلتفت إليكم يا مسلمى روسيا والشرق الذين استرقكم الاستعمار واستلب أموالكم وأراضيكم.

يا مسلمى روسيا .. يا تتار الفلوجا والقرم.. أيها القرغيز وسكان سيبيريا والتركستان، يا سكان القوقاز الأبطال وقبائل الشاشان، وسكان الجبال الأشداء.. أنتم يا من هدمت مساجدكم وحطمت معابدكم.. ومزق القياصرة الطغاة قرآنكم وحاربوا دينكم .. وأبادوا ثقافتكم وعاداتكم ولغتكم.

يا أيها المسلمون .. ثوروا من أجل دينكم وقرآنكم وحريتكم فى العبادة .. إننا هنا نعلن احترامنا لدينكم ومساجدكم.. وأن عاداتكم وتقاليدكم حرة لا يمكن المساس بها.

ابنوا حياتكم الحرة الكريمة المستقلة دون أى معوقات.. ولكم كل الحق فى هذا .. واعلموا أن جميع حقوقكم الدينية والمدنية مصونة بقوة الثورة .. ورجالها

والعمال والفلاحين والجنود وممثليهم .. لهذا نطلب منكم تأييد الثورة ومساندتها لأنها تقوم من أجلكم ومن أجل حريتكم الدينية والمدنية.

يا مسلمى الشرق ..

يا مسلمى ايران وتركيا وبلاد العرب والهند.

أنتم يا من تاجر مصاصو الدماء الأوروبيون المستعمرون بحياتكم وأوطانكم وحريتكم لعدة قرون من الزمان.

أنتم يا من يتآمر عليكم هؤلاء اللصوص الذين يتقاسمون أرضكم ويشعلون نار الحرب لتكونوا أتونها ثم يستلبون بعد ذلك أرضكم وثرواتكم.

أما نحن فنعلن بأعلى صوتنا أن الاتفاقيات السرية التى أبرمت بين روسيا القيصرية وبين فرنسا وبريطانيا الاستعماريين، والتى بموجبها اقتسموا أراضيكم أيها المسلمون، واستلبوا ثرواتكم، ونهبوا خيراتكم، نعلن أنها باطلة .. ونعلن أن خطط القيصر المخلوع - وحكومة "كرينسكى" التى أزاحها الشعب - للاستيلاء على القسطنطينية عاصمة الخلافة الإسلامية باطلة ولاغية.

إن حكومة جمهورية روسيا الثورية ومجلس الشعب الأعلى فيها يعلنان أنهما ضد احتلال أراضى الغير بالقوة.. ونعلن أن القسطنطينية ينبغى أن تبقى بيد المسلمين.

كما نعلن أن الاتفاقية السرية بين بريطانيا وروسيا القيصرية لاقتسام ايران بينهما لاغية وباطلة.. ونعلن أننا سنسحب قواتنا من ايران بمجرد انتهاء العمليات العسكرية.. ونضمن استقلال ايران الكامل.

وإننا نعلن أيضا أننا ضد تقسيم تركيا واقتطاع أرمينية منها، وأن هذه الاتفاقيات السرية لاغية وباطلة.

ليس من روسيا أيها المسلمون سيأتى استعبادكم بل من الدول الأوروبية.

من هؤلاء اللصوص مصاصى الدماء الذين استعمروا أرضكم واستلبوا ثروتكم وزجوا بأبنائكم فى أتون حرب لا يأتيكم منها إلا الدمار، وفى مقابل ذلك كله يقتسمون ما بقى من أرضكم وثرواتكم، وكأنكم وبلادكم غنائم الحرب المنتظرة.

أيها المسلمون .. ثوروا ضد هؤلاء الطغاة الكفرة الذين سرقوا ثروات بلادكم واستعبدوا أوطانكم.. نعم ثوروا الآن فى هذا الوقت الذى تشتعل فيه الثورة وينهدم فيه بنيان الطغيان والاستبداد ويتقوض فيه نظام الاستعمار.

ثوروا فإن أية شرارة الآن ستكون حريقا يلتهم بنيان الطغيان والاستبداد والاستعمار.

إن الهنود المسلمين الذين ذاقوا الذل والاستعباد لقرون طويلة يثورون الآن ضد بريطانيا العظمى، ويرفضون أن يبقوا حول أعناقهم الأغلال التى غلتهم بها بريطانيا لعدة قرون من الزمان.

اليوم لا يمكن السكوت على هذا الظلم وعلى هذا الاستعباد.

هذا وقت الثورة ضد المستعمرين الانجليز الغاصبين لأوطانكم، المحاربين لدينكم، المستبيحين لمقدساتكم، الناهبين لثرواتكم.

الآن أيها الأخوة والرفاق هو الوقت المناسب للثورة واصنع مستقبلكم الحر الباسمبأيديكم.

تقدموا أيها المسلمون لتحرير أوطانكم، وارفعوا أعلام ثورتكم، فإن أعلامنا قد رفعت من أجل حرية المستعبدين والمظلومين.

يا مسلمى روسيا..

يامسلمى الشرق ..

هلموا إلينا جميعا ..

إلى طريق الحرية والعدالة لنبنى هذا العالم من جديد على أسس الحق والخيروالعدل.

التوقيـــع

جوزيف ستالين   فلاديمير لينين

* * *

ترى .. هل تغير شىء فى روسيا؟ وقد كانت ولاية صغيرة إسمها "موسكوفيا" ؟ ولاية لا تزيد مساحتها على مائتين وخمسين كيلو مترا؟ ولاية صغيرة يحكمها المسلمون. قبل أن يستفحل شرها وتصبح إمبراطورية كبرى..؟

لم يتغير شىء.. فالدب لا يغير جلده حتى بين جبال الصقيع! كما أن (الأفعى) لا تتخلص من سمومها فى البيات الشتوى إلى أن يأتى الربيع.!

ومسلمو هذا القرن الذى نعيش فيه يتميزون[1] بالطيبة المفرطة وحسن النية الذى يصل إلى درجة السذاجة. وربما كان هذا من توالى المحن والخطوب عليهم ، فهم يحبون من يبتسم لهم وإن كان ينوى قتلهم، ويصدقون كل من يقول لهم أنا حاميكم ومحقق أحلامكم وإن كان لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

وربما لأن الخيارات أمامهم ضعيفة ومحدودة وليست واسعة ومتنوعة.

---

(١) د/أحمد شوقى - شمس الإسلام - ص ١٩١ ومابعدها.

ولا ننسى سنوات القهر والاستبداد التى عاشوها فى القرون الأخيرة التى سبقت القرن العشرين. ناهيك عن الخلط السياسى والاضطراب الذى أخل بقوتهم وشغلتهم بأنفسهم فلم ينتبهوا إلى تطور العالم وتغير التاريخ.

فمع إزدياد الضغط المسيحى على العالم الإسلامى بداية من القرن الخامس عشر الميلادى واستكمالا للحروب الصليبية التى استمرت قرونا، كانت القوى الإسلامية الكبرى ممثلة فى الصفويين بأرض فارس والعثمانيين فى آسيا الصغرى، والمماليك فى مصر والشام والحجاز، كلها فى صراع وحروب، انتهت بتغليب العثمانيين وتفوقهم، ولكنها أضعفت البنيان السياسى الإسلامى بالتأكيد.

وظهر هذا جليا بانشغال العثمانيين عبر قرون فى مكافحة روسيا وأوروبا، في الوقت الذى يتقدم فيه الأوروبيون لانتقاص الأراضى الإسلامية من هنا وهناك فى دأب وصبر وعلى الأطراف فى أفريقيا وآسيا.

لقد كان الاضطهاد فى عصر القياصرة ناشرا جناحيه، فى كنف الموظفين الروسيين (بريكاز والمبشرين المسيحيين، بتأييد رسمى من الدولة القيصرية، لذلك لا يعتبر الاضطهاد الدينى فى روسيا أمرا حل بها حديثا، إنما الاضطهاد الشيوعى المرعب الذى هز العالم الإسلامى والإنسانى قاطبة، ضرب من برنامج مواصلة القضاء على الدين الإسلامى، مع عظيم الفارق بين اضطهاده واضطهاد الدين المسيحى فى روسيا الحمراء.

(رفع "هيرما هان") أسقف قازان فى بداية القرن السادس عشر تقريرا إلى أعتاب مولاه القيصر "تيودور"، يسرد فيه - بلسان محرق بالغ الأثر- حوادث فشل التبشير المسيحى.. وارتداد المسيحيين الجدد إلى دينهم الأصلى الإسلامى، وجرأتهم فى إقامة شعائرهم الدينية بمساجد أقاموها من جديد.

وبناء على هذا التقرير الأسقفى قام القيصر المذكور بأخذ تدابير صارمة ضدهم، وأبلغهم حرمانهم من أملاكهم مع إجبارهم على الإقامة فى حى أنشئ خاصة لهم بمدينة قازان، تحت إشراف أحد أمراء الروس. ثم كلف الشبان تكليفا بالزواج من روسيات، والبنات من روسيين ومن خالف الأمر كان مصيره إلي السجن وتعذيبه فيه بوضع القيود فى يديه ورجليه وضربه بالسياط، وكما لو كان هذا التعذيب غير كاف لاشباع نفسية القيصر فأمر فوق ذلك بهدم المساجد التى بنيت من عصور، وبطرد المسلمين من مدينتهم، وكان له ما أراد.

وأما البلاشفة فقد كتموا بمهارة خططهم السرية، وحقيقة موقفهم من الدين ، وتمكنوا من الظهور أمام الشعوب - إلى حين تركيز القوة فى يدهم- بمظهر مخبب إلى النفوس، وعلى أثر إطمئنانهم للموقف الخارجي، بدأ الحزب الشيوعى ينشر خلاياه المنظمة أدق تنظيم فى أرجاء الاتحاد السوفيتى، فعمدت هذه الخلايا الالحادية إلى إستئصال شأفة الدين ، أولا : بالقضاء على القضاة ، والمفتين، والمدرسين، والوعاظ، والخطباء، والأئمة والمؤذنين، واحتلوا المدارس، والجوامع، والمساجد، وألغوا فى القرم والبلاد الإسلامية الأخرى المحاكم الشرعية وديار الإفتاء.

وقد أصبح كل ذلك أثرا بعد حين. ثم حولوا المساجد والجوامع إلى مسارح واصطبلات لخيول قولخوز. أو مخازن لمؤن وذخائر، أو إلى أندية، أو إلى دور للسينما وما إلى ذلك من أشياء لا يقرهم عليها شرع ولا قانون، وقد جمع البلاشفة نسخ القرآن والكتب الدينية وأحرقوها حرقا. لم يشهد الإنسان هذا الإنحطاط الخلقى حتى فى القرون الهمجية الأولى، ونجت من أيدى الملحدين بعض الجوامع النادرة التى اعتبرت أثارا عمرانية، أو أمرت موسكو بعدم مساسها لتتخذها عند اللزوم دليلا ضد ما قد يتسرب إلى البلاد الخارجية من أخبار مزورة وكاذبة !! فى نظرها، وبذلك انقطع الآذان المحمدى فى أنحاء

القرم، والبلاد الإسلامية السوفيتية، ولا أحد يجرؤ على أداء شعائره الدينية فيها لما فيه من خطر هلاكه.

وصل الاضطهاد الدينى فى القرن ذروته عام ١٩٣٨م حيث لم يعد الناس يشاهدون فيها شيئا باسم الدين بعد إحراق نسخ القرآن والكتب الدينية، وقلب المدارس والمساجد إلى مؤسسات شيوعية، وقتل العلماء والعظماء أو نفيهم إلى سيبيريا.

وقد حدث فى -كوزلو- أن اعتقل فى ليلة من ليالى عام ١٩٣٨ آخر من بقى من العلماء، وبعد التعذيب أتى الشيوعيون بهم منهوكى القوى إلى مبنى تكرير مياه المدينة المقام على شاطئ البحر الأسود، واسمه (فودا قنال) ثم زجوا بهم فى سكون الليل وعلى الانفراد فى عجلات الماكينات الخلفية المعدة بطريقة خاصة من قبل الإدارة الشيوعية، لتكون مذبحة للإنسان فى (الفردوس الشيوعى) على أرض القرم، وأما العمال المكرهون على القيام بهذه العملية الشنيعة فلا يزالون على قيد الحياة لاجئين إلى أوروبا وتركيا.

هذه الصورة البشعة المروعة فى القرم لا تبلغ بشاعة الصورة الوحشية التى تمثلت فى التركستان الغربية والشرقية حيث يقطن - أو كان يقطن- أربعة وأربعون مليونا من المسلمين، تناقص عددهم على يد آلة الإبادة السوفيتية الشنيعة إلى ستة وعشرين مليونا فقط.

فلندع كاتبا آخر يحدثنا عن وسائل التعذيب الجهنمية، التى سلطت على العنصر الإسلامى فى التركستان الغربية الخاضعة لروسيا، والتركستان الشرقية التابعة للصين الشيوعية.

إنه الأستاذ "عيسى يوسف آلب تكين" الذى قدرت له الحياة من جديد بعد فراره من الإدارة الجهنمية الرهيبة. ليكتب كتابه (المسلمون وراء الستار

الحديدى) يحدثنا فيه عن (صور من التعذيب والقتل) وسنضطر أن نغفل ذكر بعضها هنا لأنها من القذارة بحيث يخرس ذكرها كل أدب إنسانى مكتفين بما تطيق الآداب الإنسانية أن نذكره للناس... وهذه هى :

(١) دق مسامير طويلة فى الرأس حتى تصل إلى المخ.

(٢) إحراق المسجون بعد صب البترول عليه وإشعال النار فيه.

(٣) جعل المسجون هدفا لرصاص الجنود يتمرنون عليه.

(٤) حبس المسجونين في سجون لا ينفذ إليها هواء ولا نور وتجويعهم إلى أن يموتوا.

(٥) وضع خوذات معدنية على الرأس وإمرار التيار الكهربائى فيها.

(٦) ربط الرأس فى طرف آلة ميكانيكية وباقى الجسم فى ماكينة أخرى، ثم تدار كل من الماكنتين فى اتجاهات متضادة، فتعمل كل واحدة مقتربة من أختها حينا ومبتعدة حينما آخر حتى يتمدد الجزء من الجسم الذى بين الآلتين، فإما أن يقر المعذب أو أن يموت.

(٧) كىّ كل عضو من الجسم بقطعة من الحديد مسخنة إلى درجة الإحمرار.

(٨) صب زيت مغلى على جسم المعذب.

(٩) دق مسمار حديدى أو إبر الجراموفون فى الجسم.

(١٠) تسمير الأظافر بمسمار حديدى يخرج من الجانب الآخر.

(١١) ربط المسجون على سرير ربطا محكما ثم تركه لأيام عديدة.

(١٢) إجبار المسجون على أن ينام عاريا فوق قطعة من الثلج أيام الشتاء.

(١٣) نتف كتل من شعر الرأس بعنف، مما يسبب اقتلاع جزء من جلد الرأس.

(١٤) تمشيط جسم المسجون بأمشاط حديدية حادة.

(١٥) صب المواد الحارقة والكاوية فى فم المسجونين وأنوفهم وعيونهم بعد ربطهم ربطا محكما.

(١٦) وضع صخرة على ظهر المسجون بعد أن توثق يداه إلى ظهره.

(١٧) ربط يدى المسجون وتعليقه بهما إلى السقف وتركه ليلة كاملة أو أكثر.

(١٨) ضرب أجزاء الجسم بعضا فيها مسامير حادة.

(١٩) ضرب الجسم بالكرباج حتى يدميه، ثم يقطع الجسم إلي قطع بالسيف أو بالسكين.

(٢٠) إحداث ثقب فى الجسم وإدخال حبل ذى عقد واستعماله بعد يومين كمنشار لتقطيع قطع من أطراف الجرح المتآكل.

(٢١) ولكى يضمنوا أن يظل المسجون واقفا على قدميه طويلا يلجأون إلي تسمير أذنيه فى الجدار.

(٢٢) خياطة أصابع اليدين والرجلين وشبك بعضهما إلي بعض.

(٢٣) وضع المسجون فى برميل مملوء بالماء فى فصل الشتاء.

(٢٤) والنساء حظهن من مثل هذا العذاب أنهن يعرين ويضربن ضربا مبرحا على ثديهن وصدورهم. أما بقية تعذيب النساء فإننا نمسك عنه. لأن

المواقع التى اختاروها من أجسامهن والطرق الدنيئة التى استعملوها تجعلنا نستحيى من ذكرها وكتابتها.

فأما تعليم الإلحاد للتلاميذ الصغار فتتولاه الدولة بكل أجهزتها، وأما تعليم الدين فتنص الفقرة ١٢٢ من قانون العقوبات لروسيا السوفيتية المطبوع عام ١٩٣٨ فى موسكو على ما يلى:

(.. إن تعليم الدين للأحداث فى مدارس الدولة أو المدارس الخاصة أو فى المعاهد الشبيهة بهما يعاقب عليه القائمون بأمره بالحبس لمدة أقصاها سنة مع الشغل).

وفى أثناء الحبس تتم وسائل التعذيب الوحشية التى سبقت الإشارة إليها(١).

فى طريقنا إلى "باكو" عاصمة أذربيجان ركبنا الطائرة المصرية إلى "استنبول" أولا... ثم ركبنا طائرة "تركية" من "استنبول" إلى "باكو" ثانيا.

كنا نخوض بين صفحات التاريخ فى السموات العلا وعلى الأرض. هنا كانت للإسلام والمسلمين دولة ودولة قوية مرهوبة حتى "أرمينيا" لقد فتحها المسلمون أيام الخليفة الراشد عمر. وكان فتح المسلمين "لأرمينيا" إنقاذا لشعبها من الدولة الرومانية التى فعلت بالأرمن الشئ نفسه الذى فعلته مع الأقباط فى مصر فكان فتح المسلمين فتحا شاملا رحب به الأرمن حكومة وشعبا تماما كما حدث فى مصر منذ أربعة عشر قرنا.

لن نتوقف كثيرا عند هذه الزوايا "النفسية" التى تتنكر للمسلمين حتى فى أخص خصائصهم الأخلاقية والحضارية ..!

---

(١) المسلمون فى الاتحاد السوفيتى، د/محمد على البار، الطبعة الأولى ١٩٩٣م- ص ٦٠.

فنحن فى طريقنا إلى شعب مسلم قد خرج توا من نفق "الإلحاد"، "الاستعباد"و"الهمجية"..!

مسكينة "باكو".. إن فى ملامح وجهها بقايا دموع من دماء شهدائها..!

هؤلاء "الشهداء" الذين لم يجد (جورباتشوف) مكانا يشفى فيه "غله" ويستر فيه "عورته" سوى أذربيجان وعاصمتها "باكو"..!

لقد حذره (ريجان) أن يطلق رصاصة واحدة على ثوار لاتفيا. ولتوانيا واستونيا.. لأن هؤلاء مسيحيون. كما أنهم من دول "البلطيق" التى فرضت أمريكيا حمايتها عليهم رغم أنف روسيا و«جورباتشوف» ..!

أما المسلمون فى أذربيجان فمن يحميهم سوى الله.. لقد سالت الدماء أنهارا فى شوارع "باكو" .. وتناثرت الأشلاء كما تناثر الرصاص بلا رادع.

وفوق قمة "تل" على حافة العاصمة زرنا مقابر هؤلاء الشهداء والضحايا فخورين بآبائهم وتضحياتهم ..! إن روح الإيمان لم تمت ..! وأن الشرارة المقدسة فى قلوب المسلمين لاتزال متقدمة تتوهج..!

لقد كانت "أذربيجان" من أغنى الجمهوريات فى الاتحاد السوفيتى الهالك .. إن رائحة "النفط" تشمها فى أى مكان تذهب إليه.. سواء فى قلب العاصمة أم على شاطئ بحر قزوين ..

نجد الصورة نفسها فى بقية الولايات الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى قبل أن يرحل فمعظم ثروات هذا الاتحاد كانت تأتى من بلاد المسلمين لا من موسكو أو بطسبرج..!

لكن لم يكن أحد بقدر على القول .. أو الزعم بأن هذا الاتحاد كانت فلسفته تقوم على الإلحاد.. إلا أن الروح الصليبية كانت هى المحرك الأساسى

فى سياسة هذا الاتحاد.

لقد كان الرئيس الأذربيجانى (حيدر علييف) هو الأكفأ والأقدر على رئاسة الاتحاد السوفيتى من (بريجنيف) و(جورباتشوف) لقد تخطته اللجنة المركزية عدة مرات كى لا يكون رئيسا. أما لماذا فلأنه من أصل (مسلم)..!!!

فى لقائنا مع الرئيس (حيدر علييف) فى قصر الرئاسة بترتيب من شيخ الإسلام (شكر الله باشا زاده) تحدث إلينا الرئيس عن الماضى والحاضر. لقد قرأنا كثيرا من الكلمات التى لم يقلها..! فلم يرد الرجل أن ينكأ الجراحات التى لم تندمل.! وآثر الإشارة عن التوضيح لمن يفهمون مدلول الكلام الذي لم يقله..!

غير أن القاعة كلها ضجت بالتبكير عندما قدم إليه المصحف. لقد انحنى الرئيس يقبل المصحف ويضعه على عينه.!

لقد انهارت قلاع الإلحاد فى لحظة..!

وعادت ألوية "حذيفة بن اليمان، والحسن والحسين" تخفق عالية فى سماء "باكو" العاصمة.!

وها هى طائرتنا تحلق فى سماء موسكو ..!

لم يكن ذلك ممكنا قبل أن تسقط الشيوعية، ولا قبل أن ينسحب الاتحاد السوفييتى من أرض أفغانستان المسلمة.

وقد لا يعرف الكثيرون، من الأخوة أو القراء . أنه كان لى مع الشيوعية موقف، وكان لهذا الموقف آثاره الخطيرة كما سوف تعرف .. ففى عام ١٩٦٥م.. وفى شهر أغسطس من هذا العام بالذات. نشرت فى مجلة "نور الإسلام" التى كنت أشرف عليها آنذاك نشرت (فتوى) تحرم الزواج بين الشيوعى وأية فتاة مسلمة أو بين المسلم وأية فتاة شيوعية..!!

كانت هذه الفتوى ردا عن سؤال من إحدى المذيعات فى البرامج الموجهة من القاهرة وقد سألتنى هذا السؤال بعد أن تقدم لخطبتها شاب تعرف أنه شيوعى. وكان من الممكن أن تنسى هذه الفتوى كغيرها من فتاوى كثيرة فى أضابير المجلة، أو فى عقول قرائها الطيبين الذين يعيش معظمهم فى "الكفر" أو "العزبة" أو "القرية"..!!

ولكن الله - جلت حكمته - أراد لهذه (الفتوى ذيوعا لم يكن متوقعا، وانتشارا وضجيجا بلغ أركان الدنيا.

لقد زارنى فى مكتبى مصادفة الأستاذ (محمود الكولى) محرر الشئون الدينية فى صحيفة الأهرام ، ما كادت عيناه تقع على صورة الفتوى وهى لاتزال "بروفة" قبل الطبع. حتى هجم عليها وطلب صورة منها. ثم طار بها إلى صحيفة الأهرام التى نشرتها فى اليوم التالى وفى صدر صفحتها الأولى ..!

وفى الساعة الثامنة من مساء هذا اليوم الذى نشرت فيه الصحيفة هذه الفتوى .. كنت أستمع إلى النشرة المسائية فى محطة الإذاعة البريطانية .. فإذا بخبر هذه الفتوى يتصدر هذه النشرة بل كان الخبر الأول فيها..!

لم أنم تلك الليلة..! وكيف أنام بعد أن تطايرت شظايا هذه القنبلة فى كل قطر وعاصمة.. وقد قامت الدنيا فى القاهرة المحروسة.. وانطلق زبانية الشيوعية يندون بالأزهر وشيخه فى ذلك الوقت الشيخ حسن مأمون - وبالرجعية التى تقف فى وجه التحول الاشتراكى مع "ماركس" و"انجلز" و"لينين" ..!!

* * *

كان الرئيس عبد الناصر على موعد للقيام بزيارة إلى موسكو بعد أسبوع .. وهذا الذى نشر يمكن أن يفسد هذه الزيارة أو على الأقل يبطل مفعولها

وأثرها فى الإستجابة لمطالب مصر من الاتحاد السوفيتى الذى كان يمثل فى هذا الوقت "كل شىء" بالنسبة للقادة أو الساسة؟!!

وأشهد .. أن نشر هذه الفتوى وبهذه الصورة وفى جريدة الأهرام التى كان يرأس تحريرها "محمد حسنين هيكل" وفى الصفحة الأولى. وفى العمود الأول منها.

أشهد .. بأن "عبد الناصر" لم يكن شيوعيا..!! وإلا.. لو كان هو كذلك .. لدفنت قبل أن يطلع الفجر! هذا إن لم يختف البيت والشارع الذى كنت أسكن فيه من على ظهر الأرض..!!

وأذكر وللتاريخ أيضا.

أن الصديق اللواء المرحوم -عاطف سعد- السكرتير المساعد للمؤتمر الإسلامى قبل إختفائه ... حضر إلى مكتبى بعد ثلاثة أيام من صدور هذه الفتوى، كان معه رجل أخافنى مظهره المتصلب ... وعيناه اللتان لا تطرفان بعد أن يصوبها إلى وجهك .!!!

لقد قال لى اللواء – رحمه الله – :

– من أصدر هذه الفتوى ..!

– قلت له مترددا .. ولماذا ؟

– قال اللواء عاطف : جئت لأقبل يده ..!!!

– (يا ما أنت كريم يارب) ..؟

قلت ذلك فى نفسى بعد أن أخبرنى بأن التيار الأقوى فى رئاسة الجمهورية يؤيد ويساند هذه الفتوى ..!!

وأن المعارضين لها قلة معروفة بالانحياز والولاء لموسكو.!!!

بل حدث فى معتقل "مزرعة طرة". أن دعيت للاشتراك فى محاضرة من تلك المحاضرات التى كانت تنظمها "المباحث العامة" لتوعية المعتقلين فى هذا المعتقل.

لقد قلت فى هذه المحاضرة : أننا مسلمون. وسنبقى مسلمين. ولن يكون للشيوعية والشيوعيين مكان فوق أرض مصر المسلمة..!! وأننى كمسلم .. أعتبر نفسى قريبا من المسيحى الذى يؤمن بوجود الله- من الشيوعى - حتى وإن كان هذا الشيوعى يحمل إسما مسلما أو ولد فى بيت مسلم !!!

لقد هاج الشيوعيون فى المعتقل .. وكانوا مجموعة صغيرة من "الماويين" أى من الذين يعتنقون الشيوعية على مذهب "ماوتسى تونج" وسمعهم المعتقلون وهم يهتفون بسقوط "عبد الوبود جونسون".. وكان "جونسون" هو الرئيس الأمريكى فى هذا الوقت ..!!!

فهل كان من الممكن أن أزور موسكو ولى عندها هذا الملف..؟!!

وإذا كان الشيوعيون يهتفون بسقوطى فى مصر.. وفى داخل سجن فماذا يفعل بى الشيوعيون فى موسكو لو وقعت فى الفخ...!!

ومنذ عشرة أعوام التقيت فى حفل عشاء أقامته دار الشروق تكريما للمفتى "باباخونوف"(١) .. التقيت بالمستشار السياسى السوفييتى فى القاهرة .. لقد سر الرجل بمعرفتى وتمنى لو قبلت دعوة لزيارة الاتحاد السوفييتى ..؟

فاعتذرت بأدب.. ووعدته بالاستجابة لهذه الدعوى بعد انسحاب الاتحاد السوفيتى من أرض المسلمين والعرب..!!

---

(١) دراسات إسلامية ، ص ٢٠٠ ومابعدها.

إن "موسكو" كمدينة .. لا أكرهها.. فروسيا.. وبالرغم من التصاقها بالغرب دولة نصف شرقية .. وشعبها خليط من شعوب وقوميات يربطنا بها إيمان وعقيدة .. حتى سيبيريا التى كانت منفى لكل من يفكر فى الحرية أو يتفوه بكلمة يشم منها رائحة التمرد أو الثورة .. سيبيريا هذه .. لنا فيها أشقاء وأخوة، وفيها مساجد ومعاهد ترفع صوت الإيمان والعقيدة.

وبالرغم من هذا كله .. كنت أحب رؤية موسكو.. لم أكن أشعر بنفور داخلى من رؤية هذه المدينة. أما لماذا ..؟ فلأن الكراهية والحب عاطفتان تتسمان بالتمرد، ولا تخضعان لميزان العقل والمنطق..؟

مثلا .. لا أجد حافزا واحدا يدعونى لزيارة أمريكا.. أما لماذا فإنى .. لا أجد لهذا النفور حتى هذه اللحظة سببا واحدا معقولا.

فالرجل كما يقول المثل الشعبى (تدب مطرح ماتحب) وإن كنت في الواقع لا أكره الشعب الأمريكى .. الطيب القلب.!

إن معظم من عرفتهم من الأمريكان .. يتسمون بالطيبة .. أقصد عامة الشعب – لارجال الدين ولا المخابرات ولا السياسة..!!

بل إن كل أصدقائى الذين زاروا أو عاشوا فى أمريكا يؤكدون هذه الحقيقة.

ولكن ما الحيلة. إذا كان قلبى يتصور أمريكا (بعبعا) مخيفا ويتصور شوارعها ومدنها "غابة" تصول فيها الوحوش جيئة وذهابا..!

لم أشعر بمثل هذا الخوف وأنا أخطو أولى خطواتى فى شوارع موسكو.

هذا وبالرغم من تحول هذه المدينة إلى "مافيا"..!! وإلى عصابات تهدد حياتك وأمنك نهارا وليلا..!!!

فى فندق "كوزموس" أى الفضاء باللغة الروسية. وقد اختاروا لهذا الفندق هذا الإسم قريبا من الفندق.. كانت التعليمات من إدارة الفندق ألا تفتح الباب لأحد لا تعرفه..! وأن تتأكد دائما من إغلاق غرفتك بعد أن تدخل إليها أو تخرج..

الشىء الوحيد الذى لم يكن عليه قيد هو "الهوى"..!!!

كدت أبكى حين رأيت فتاة صغيرة فى سن السادسة عشرة وهى تعرض نفسها علنا..!!! إننى أنظر إلي مثل هذه البائسة نظرتى إلي أى فتاة أو امرأة فى هذه الدنيا.. إن "عرض" البشرية ومن وجهة نظر الإسلام واحد!... وأن امتهان عرض أية فتاة أو امرأة - تحت ضغط الفقر والحاجة- هو إمتهان ل"عرض" البشرية كلها..!!!

وروسيا الاتحادية كما قال أحد المسئولين فى قاعة المؤتمر الذى سافرنا من أجله.. روسيا الاتحادية. كما قال هذا المسئول دولة مسيحية إسلامية .!

فالمسلمون فى روسيا الاتحادية يمثلون حوالى ١٤٪ من مجموع السكان. إن فى موسكو العاصمة وحدها حوالى مليون مسلم.. وهناك جمهوريات إسلامية كثيرة تقع داخل روسيا منها جمهوريات : تتاريا . وبشكيربا . وموروفيا . وتشوفاشيا، وداغستان، وجمهورية القرم، وجمهورية الشيشان، وجمهورية كباردبا، وجمهورية قرتشاى.. صحيح .. أنها جمهوريات صغيرة، ولكنها بالنسبة لروسيا تمثل أهمية من حيث الموقع والثروة.

وقد حكم التار المسلمون موسكو أكثر من قرنين وكانت ولاية موسكو تدفع الجزية لهؤلاء التتار سنويا ..؟!

ومن العجيب أن المسلمين التتار الذين التقيت بهم فى موسكو يختلفون عن

"تتار" المغول الذين خرج من بينهم "هولاكو" و"جنجيز خان" و"تيمور لنك" أو تيمور الأعرج..!!! يختلفون عنهم فى كل شىء فى طول القامة. وبياض البشرة وجمال الصورة.. لم أصدق وأنا أرى الفتيات المسلمات من تتار روسيا. وقد كساهن الحجاب جمالا فوق جمالهن.. وكن أشبه بالفراشات اللاتى يبهرك خفتهن ورشاقتهن..!! لم أصدق أن هؤلاء تتار أبدا.!

سألت "إلدار" الشاب التتارى المسلم الذى يعمل فى إذاعة "الرسالة" التى أنشأتها "لجنة مسلمى آسيا".

قلت له : إلدار..- أى يا صاحب الدار باللغة التتارية. من أنتم ؟ ومن أين جئتم؟

فقال لى : نحن تتار بلغاريا.. لا تتار منغوليا.. ولا يحتاج المدقق الفاحص إلى دليل للتميز بيننا وبين تتار منغوليا.

ومن العجيب أن "تتار" روسيا هم الذين قاموا بنشر الإسلام فى معظم الولايات الإسلامية الداخلة ضمن اتحاد روسيا. بل إن هؤلاء التتار هم الذين حملوا الإسلام إلى "سيبيريا" وغيرها من الأطراف البعيدة فى روسيا.

ولكن متى دخل الإسلام إلى تتاريا؟

يقول المؤرخون :

لقد وصل الإسلام إلى (تتاريا) فى بداية القرن الرابع الهجرى عندما وصل التجار المسلمون إلى حوض نهر الفولجا، بل تجاوزها إلى منطقة القرم فى شمال البحر الأسود.

غير أن الدفعة الأساسية للدعوة الإسلامية فى حوض الفولجا وصلت بإسلام التتار، فعندما احتلها قياصرة روسيا فى سنة (٩٦٠هـ-١٥٥٢م) كان

الإسلام منتشرا بين سكانها، واضطهد أهلها، وحاول الروس جذبهم إلى المسيحية بالقوة والقهر ولكنهم فشلوا، ولقد بذلت الإمبراطورة كاترين الثانية جهودا جبارة فى هذا المجال فى سنة (٩٩٢هـ-١٧٧٨م) فأمرت بأن يوقع كل الذين اعتنقوا المسيحية على قرار كتابى يتعهدون فيه بترك خطاياهم وتجنب الاتصال بالمسلمين الكفار.!

وقد طبق هذا بالقوة على التتار المسلمين ولكنهم كانوا مسيحيين اسما، ثم تخلصوا من هذا التعسف، وظلوا على إسلامهم ولقد دونت أسماؤهم فى السجلات المسيحية زورا ووقف التتار فى ثبات وقوة ضد المنصرين وحملاتهم وشهد القرن التاسع عشر الميلادى عدة قوانين تحد من انتشار الدعوة، لدرجة أن القانون الجنائى الروسى كان يعاقب كل شخص يتسبب فى تحويل مسيحى روسى إلى الإسلام بالأشغال الشاقة، ورغم هذا انتشرت الدعوة بصورة سرية ولما صدر قانون حرية التدين فى روسيا فى سنة (١٣٢٣هـ-١٩٠٥م) سنحت الفرص للدخول فى الإسلام بصورة جماعية، وقد بلغ عدد من أعلنوا إسلامهم فى سنة (١٣٢٤هـ-١٩٠٦م) خمسين ألفا.

وهكذا أخذت الدعوة الإسلامية فى الانتشار، ودخل السكان فى الإسلام أفواجا وسارت الدعوة الإسلامية قدما فى حماسة بالغة وكان كل مسلم داعية إلى دينه، ولقد خدمت الدعوة الإسلامية هجرة جماعات ممن احترفوا الحياكة فى القرى الإسلامية فى زمن الشتاء، واعتنق هؤلاء الإسلام وعند عودتهم إلى قراهم تحولوا إلى دعاة للإسلام، وأثمرت دعوة التتار أنصارا فى سيبيريا وغيرها، وقبل استيلاء السوفيات على السلطات كان فى مدينة "قازان" عاصمة جمهورية تتاريا جامعة إسلامية بها سبعة آلاف طالب فى مستهل القرن العشرين وكان بها مطبعة أخرجت مليون نسخة من مائتين وخمسين كتابا فى سنة (١٣٢٠هـ-١٩٠٢م). كما كان بمدينة قازان مكتبة إسلامية، كان يزورها

عشرون ألف قارئ سنويا وانتشرت المساجد حتى بلغت مسجدا لكل ألف مسلم فى جمهورية تتاريا..!!

وهكذا كان الإسلام مزدهرا فى تتاريا قبل الثورة الماركسية فى روسيا ولقد نشأ فى قازان مركز للدعوة الإسلامية واجتهد علماء قازان فى الدعوة وطبعوا منشورات لها. واهتموا بالتعرف على الإسلام باللغة التتارية، وانتشر الدعاة (مليات) وطلاب جامعة قازان فى القرى والفيافى يدعون الناس للإسلام ونشطوا فى هذا الأمر بعد صدور قانون حرية التدين فى روسيا فى سنة ١٩٠٥م ونجحوا فى بث الدعوة الإسلامية بين تتار سيبيريا.

وبعد أن استولى السوفيات على الحكم تغيرت الأوضاع، وواجه التتار حربا قاسية على معتقداتهم، فأغلقت المدارس الإسلامية ودمرت المكتبات والمطابع الإسلامية فى قازان عاصمة تتاريا، وواجه المسلمون مواقف مؤلمة وثاروا ضد الاضطهاد الدينى، وقدموا العديد من الشهداء، حتى أولئك الذين تعاونوا مع الشيوعيين فى البداية، مثل السلطان "على أوغلى" والذى دعاه السوفيات باسم عالياف، وقد نادى بتوحيد المسلمين فى روسيا فى كيان دولة واحدة تتحد مع السوفيات على مستوى تواحد، فقبض عليه فى سنة (١٣٤٢هـ-١٩٢٣م)، وأعدم فى سنة (١٣٥٦هـ-١٩٣٧م) ولقد رفض السوفيات وحدة الأراضى الإسلامية بل أخذوا يجتهدون فى تفتيتها إلى قوميات للقضاء على هذه الوحدة...!!!

ولقد أدمج الروس كل المناطق الإسلامية التى توجد فى روسيا الأوروبية فى إدارة دينية واحدة مقرها فى مدينة "أوفا" عاصمة جمهورية بشكيريا، وتشرف على المسلمين فى سيبيريا أيضا، وجردوا هذه الإدارة من كل السلطات فأصبحت أمرا شكليا.

وعندما تسمع كلمات مثل "بخارى" وسمرقند، وطشقند وفرغانه وقاراب ونسف، وخوارزم، وزمخشر، ومرو، وترمذ، وبيهق.. فاعلم أن كل هذه المدن وكل هذه البلاد قدمت للإسلام أعظم العلماء، وأعظم الفلاسفة وكلها تقع فى جمهوريات آسيا الوسطى. أو التركستان الغربية أو بلاد ما وراء النهرين.

ومن هنا لا يعرف الإمام أحمد بن حنبل ؟ صاحب المسند وصاحب المذهب؟

هذا الإمام الجليل الذى حج ماشيا خمس مرات، وقضى فى السجن والمحنة حوالى ثلاث سنوات، وصبر على الفقر سبعين سنة، وصلى عليه يوم وفاته مليون ونصف مليون مسلم، وبكى عليه المسلمون واليهود والنصارى والمجوس حيث تحولت بغداد يوم وفاته إلى مأتم وحتى قال عنه : "يحى بن معين" :

أراد الناس أن نكون مثل أحمد بن حنبل. لا والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ولا على طريقة أحمد..!

أتدرون أين ولد هذا الإمام .. أو من أين جاءت أسرته؟

لقد ولد .. أو حملت به أمه، وهو فى مدينة "مرو" أتدرون أين مرو؟ إنها فى الولايات الإسلامية فى بلاد التركستان ولا تزال حتى اليوم توجد هناك قرية فى "أوزبكستان" قريبا من بخارى إسمها "عرب خانه".

ومن منا لم يسمع أو يعرف الإمام البخارى. صاحب أصح الكتب بعد القرآن؟

إن اسمه الحقيقى "محمد بن إسماعيل"، أما كلمة البخارى ، فهى نسبة إلى مدينة "بخارى" التى ولد فيها.

أتعرفون أين هذه المدينة ؟ أنها فى "أوزبكستان".

والإمام "النسفى" صاحب التفسير المشهور..!!

لقد ولد فى مدينة"نسف" وهى أيضا من بلاد ما وراء النهرين أو آسيا الوسطى.

و"الزمخشرى أبو القاسم محمود بن عمر" الملقب بجار الله صاحب تفسير "الكشاف" لقد ولد فى مدينة زمخشر وهى أيضا تابعة لإحدى الولايات الإسلامية فى هذه المنطقة.

وهل تعرفون أين ولد الإمام "الترمذى" المحدث والمحقق ؟ وصاحب كتاب "سنن الترمذى"؟

لقد ولد الإمام الترمذى فى مدينة "ترمذ" فى الجمهوريات الإسلامية ولا يزال قبره موجودا هناك.

وهل تعرفون أين ولد "الفارابى"..!

الفيلسوف المسلم والذى كان يطلق عليه اسم (أرسطو) الشرق؟

لقد ولد فى مدينة "فاراب" إحدى المدن الإسلامية فى بلاد ما وراء النهرين..

وهل تعرفون أين ولد "ابن سينا" العالم الطبيب الفيلسوف .. ..؟

لقد ولد فى مدينة "أفشنه" بالقرب من مدينة "بخارى" حيث ولد الإمام البخارى .

إنها أمثلة فقط للعظماء من رجالات الإسلام وأئمة الدين الذين ولدوا فى الولايات الإسلامية أو التركستان الغربية أو بلاد ما وراء النهرين.

إن هذه المنطقة .. آسيا الوسطى.. أو بلاد ما وراء النهرين سيحون وجيحون.. هذه المنطقة كان يطلق عليها فيما مضى -حديقة العباقرة- !!! أى عباقرة الإسلام والمسلمين من أئمة الحديث والتفسير. والفقه والفكر. والفلسفة وعلوم التصوف والطب والحكمة.

ومنذ أن اجتاحت القوات الروسية هذه الأقطار إبان حكم القياصرة وهى تعمل جاهدة على محو شخصية وتاريخ هذه المنطقة ومحو معالمها الإسلامية والحضارية أو تشويهها.

وقد زار الرحالة "ابن فضلان" هذه البلاد قبل أن ينتشر فيها الإسلام ويصبح دين الغالبية العظمى من السكان.

فقد خرج الرحالة المسلم إلى هذه البلاد فى قافلة ضخمة من التجار وفيما يلى تسجيل لما رآه وشاهده فى هذه البلاد من العجائب والأحوال.

يقول ابن فضلان :

(... سارت قافلة الوفد فى بلاد الترك أياما وليالى، وقد فوجئت ببرد كان برد خوارزم بالنسبة له "نسيم صيف" وتهيأ لمن فيها أنهم على وشك الموت، وأنه لا خروج من هذا المأزق أبدا..!

وبعد خمسة عشر يوما وصلت القافلة إلى جبل عظيم كثير الحجارة وتسيل منه عيون الماء، وتستقر فى بحيرة عظيمة.

وما أن تجاوزوا هذا الجبل حتى وصلوا إلى بلاد الأتراك الغزية.

وكانوا يقيمون فى أكواخ من الوبر، يسهل حملها.

وهم كما يقول "ابن فضلان" : (كالحمير الضالة) لا يدينون لله بدين ولا

يرجعون إلى عقل بل يسمون كبراءهم أربابا. وكانوا يقولون : لا إله إلا الله محمد رسول الله تقربا بهذا القول إلى من يجتاز بهم من المسلمين..!

وإذا وقع ظلم على أحدهم رفع رأسه إلى السماء وقال: "بير تنكرى" بالتركية وتعنى : الله الواحد. وهم لا يقربون الماء للاغتسال وخاصة فى الشتاء. ونساءهم يخالطن الرجال، ولا تستر المرأة شيئا من بدنها عن أحد من الناس..!

ومع ذلك فهم لا يعرفون الزنا، ومن يقترفه منهم يربطونه إلى شجرتين ويفسخونه.

ولما استمعوا إلى القرآن انصتوا إليه وطلبوا معرفة ما فى هذا الكلام من معان. وسأل بعضهم:

هل لله عز وجل زوجة؟ فاستعظم "ابن فضلان" السؤال وسبَّح واستغفر ففعل الرجال مثله.

أما عادات زواجهم، فتتم بالاتفاق على المهر الذى يكون بالثوب الخورزمى أو الجِمال أو الدواب. فإذا ما أدى الرجل ما عليه يدخل إلى منزلها ويضاجعها بحضرة أبيها وأمها وأخوتها. ولا يمنعونه من ذلك.!!!

ومن يمر فى بلادهم عليه أن يتخذ صديقا له منهم، يعطيه الهدايا، ويأخذ منه المأكل والشراب وأمن الإقامة.

وإذا ما أراد الاتجار أو الترحال يأخذ من صديقه ما يحتاجه ويترك لديه ما لا يريده، حتى يعود فيتبادلا مالهما.

والتركى منهم شجاع صدوق أمين، فإذا ما طلب الغريب منه مالا ودواب أعطاه إياه، وانتظر قافلته حتى تعود.

فإن لم يكن فيها أخذ حقه من كبير القافلة وقال له :

" ذلك ابن عمك، وأنت أحق بدفع ما عليه لى".

أو قال : "ذلك مسلم مثلك، خذ أنت منه عنى"، أو يسأل عن بلاده، ويمشى إليه. فإذا وجده أخذ ماله، وهديته أيضا.

وإذا مات التركى لدى صديقه المسلم، فويل للقافلة التى تمر بعد ذلك فإنهم يقتلون الصديق إذا كان فيها ويقولون :" أنت قتلته بحبسك إياه. ولو لم تحبسه لما مات".!

وكان لهم ملك "ينال:، وأثناء رحلة "ابن فضلان" كان قد أسلم، وأثار ذلك حفيظة قومه، وكانوا يطالبونه بالتخلى عن منصبه لخروجه عن ملتهم. ويقال إنه رجع عن إسلامه.!!

وقد رفض "ينال" السماح لهم بالمرور، حتى أعطوه الهدايا والثياب. فسجد لهم. وهذه عادتهم إذا أكرم الرجل الرجل.

وبينما هم فى الطريق، إذا برجل يوقف القافلة وكانت مكونة من ثلاثة آلاف دابة وخمسة آلاف رجل. فقالوا لهم إنهم أصدقاء نائب الملك "كوذركين" فرد عليهم قائلا:

"بكند" أى الخبز، فأعطوه خبزا، فتركهم وشأنهم.!

وعن عادات موتهم، قال (ابن فضلان):

إن الرجل إذا مات دفنوا معه ماله كله، ووضعوا فى يده كأسا خشبية مليئة بالنبيذ. وذبحوا من ماشيته ما تيسر.

وقالوا : هذه دوابه يركبها إلى الجنة .!

وإذا كان فارسا، صنعوا التماثيل بعدد الرجال الذين قتلهم وقالوا : (هؤلاء خدمه يخدمونه في الجنة.!

والملك عندهم اسمه :(يبغو) ونائب الملك لقبه :(كوذركين.

ودخل "ابن فضلان" على قائد جيشهم ، وأهداه ثوبا من الديباج، فخلع ديباجته ليرتديها، فإذا بثيابه الداخلية ممزقة متسخة. وكانت عادتهم ألا يخلع أحدهم عن جسده ثوبا حتى يبلى تماما.

وحدثت أزمة كبيرة وقتها للوفد بسبب أحد قواده ويدعى "طرخان".

وكان طرخان هذا: أعرج أعمى أشل، ولكنه كان شجاعا نبيلا مسموع الكلمة، فقد خاف "طرخان" أن يكون الوفد متوجها إلي الخرز- اليهود- لعقد تحالف بينهم وبين ألمش بن فلاديمير من أجل مهاجمتهم.

وراحوا يتداولون فيم بينهم أسبوعا كاملا، حتى اقتنعوا بأن الوفد لا يبغى الإضرار بهم، أو الوقيعة بينهم وبين "ألمش" فتركوهم ينصرفون.

وخرجت القافلة في سفينة، فمرت على أقوام من الأتراك ، يسمون :

البجناك، وهم أصلا من تركستان الصينية سمر فقراء يرعون الغنم الذى يسمن من أكل الثلوج ويصيبه الهزال من أكل الحشائش!!

وهم يعبدون الأخشاب، وبعضهم له إثنا عشر ربا، وبعضهم يعبدون الحيات، وآخرون يعبدون السمك أو يعبدون طيرا يسمى "الكركى" ذلك أنهم أثناء حرب انتصروا فيها وجدوا "الكراكى" تصيح خلف أعدائهم متهللة، فعبدوها!!

وللسالفيين عادات غريبة، فهم يتبركون بعواء الكلاب، ويعتبرونه بشير خير وبركة.

وبلادهم مليئة بالحيات، والناس لا يفزعون منها ولا يخافونها.

وهى بلاد مليئة بالأشجار والحدائق، فيها أشجار الرمان والتفاح الأخضر وأكثر الأشجار كانت أشجار البندق.

وهم يأكلون الجاورس، وهو حب يشبه الأرز، يدر البول ويمسك الطبيعة، ويأكلون اللحم والقمح والشعير.

ولا يأخذ الملك من زراعتهم شيئا، ولكنهم يعطونه عن كل بيت جلد "سمور" وهو حيوان يشبه الثعلب وفراؤه ثمين.

ومن يولم وليمة أو يقيم عرسا أو يريد كفارة عن ذنب، يؤدى للملك ما يناسب مقامه من هذا.

وهم لا يعرفون غير دهن السمك للطهو، ولذلك فطعامهم زفر.!

ويرتدون "القلانس"- أى الطاقيات- ويخلعونها عند الملك ويجعلونها تحت آباطهم.

ومن عاداتهم أن ابن الرجل يأخذه جده ليربيه. وإذا مات الرجل ورثه أخوه ولم يرثه ابنه.!

وقد علمهم ابن فضلان نظام المواريث فى الإسلام ، فاهتدوا به، وأعجبوا بما فيه، وطبقوه.

هم يعرفون القصاص. ولكنهم يقتلون الرجل أيضا إذا رأوا أنه يعرف الأشياء وقوانينها، ويقولون : هذا حقه أن يخدم ربنا!!

ومن أغرب ما عندهم أن الرجال والنساء يستحمون فى النهر معا، عرايا... ولا يستتر بعضهم عن بعض. ولكنهم يقتلون الزانى ويقتلون السارق.

ومن طرائفهم أن الرجل إذا بال وعليه سلاحه سرقوه، وإذا وضع سلاحه جانبا أولا ثم بال، فلا غبار عليه، ولا يقرب أحد منهم أشياءه .!!

وفى غاباتهم يكثر النحل وعسل النحل، وهم تجار للغنم ويشترون السمور والثعالب.

ومن بينهم توجد قبيلة تسمى : برنجار. عددها يصل إلى خمسة آلاف نسمة، كلهم من المسلمين، يعيشون معا فى بيت واحد، ويصلون فى مسجد من خشب رغم أنهم لا يعرفون القراءة والكتابة.

ولما أسلم رجل على يدى وكان اسمه طالوت، أسميته عبد الله، ولكنه أراد أن يسمى بمحمد، فأسميته محمدا، ولما أسلمت امرأته، وأمه وأولاده، فوجئت بأنهم جميعا اسمهم محمد. وقد علمهم ابن فضلان الفاتحة والصمدية ففرحوا بهما أيما فرح.!

ومن عاداتهم فى الموت أنه إذا مات الرجل منهم وكان مسلما، فإنهم يغسلونه كالمسلمين، ويرسمون دائرة فى الأرض ويحفرون له قبرا يضعونه فيه ولا تبكى النساء على الميت، بل الرجال يبكون. الأحرار أولا ثم العبيد يضربون "أنفسهم بالسيور". ولا تتزوج امرأة الميت إلا بعد مرور عامين على وفاته(١).

والظاهرة العجيبة التى يقف أمامها المؤرخون طويلا.

أن انتشار الإسلام على نطاق واسع كان يتم غالبا فى فترات ضعف المسلمين وسقوط حكوماتهم .!

أن فى الإسلام قوة خفية تجعل كل من يتصل به أو يعرفه. يؤمن به ويعتقده .!

---

(١) المصدر السابق.

وهذا هو مصدر الخوف الذى يشعر به الغرب من المسلمين.!

وهذا هو السر وراء حملات التشويه التى تقودها أجهزة الإعلام فى الغرب ضد الإسلام والمسلمين؟!

وقد كان انتشار الإسلام فى "التركستان الغربية"(١) وفى جميع الولايات الإسلامية وجمهوريات آسيا الوسطى "معجزة إسلامية" بكل المقاييس، بل كانت أقرب إلى الخرافة والخيال منها إلى الواقع والحقيقة.

فالتتار أو المغول الذين دمروا العالم شرقا وغربا، وزحفوا إلى "بغداد" عاصمة الخلافة الإسلامية فلم ينج من قتلهم شيخ أو طفل أو رجل أو امرأة... هؤلاء التتار تحولوا إلى الإسلام فجأة، وفى ظروف ملك اليأس فيها قلوب المسلمين فى كل ناحية.

وكما يخرج اللبن من بين فرث ودم خرج التتار من همجيتهم ووحشيتهم إلى الإسلام دين الرحمة والعدل.. حتى أقاموا أعظم حضارة شهدتها الهند كما حكموا الصين فيما بعد.

كان أول من أسلم من أمراء التتار الأمير "بركة خان" وكان رئيسا للقبيلة الذهبية التى حكمت روسيا وموسكو لمدة ٢٤٠ مائتين وأربعين من الأعوام..!

وكان سبب إسلام "بركة خان" أنه التقى بتاجرين مسلمين شرحا له عقائد الإسلام، فانفتح قلبه للإيمان، ودعا أخوته وشعبه بعد ذلك لاعتناق الإسلام والإيمان برسالة محمد ﷺ.

---

(١) التركستان الغربية – تعنى البلاد الواقعة فى آسيا الوسطى. والتى تتكون من ست دول هى : قبرغيزيا– طاجيكتان– أزبكستان– كازاخستان– أذربيجان – تركستان.
أما التركستان الشرقية – فيقصد بها إقليم "سنجيانج" فى الصين. ومساحته تعادل سدس مساحة الصين.

ومن الأشياء العجيبة. كما يقول المؤرخون - أن كل عسكرى فى جيشه كان يحمل سجادة للصلاة، وأنه لم يكن فى جيشه جندى واحد يشرب الخمر وأن هذا الأمير تحول بعد ذلك إلى حكم شعبه بالرحمة والعدل، وخصص لكل أمير أو أميرة إماما خاصا، ومؤذنا خاصا.!

ويذكر "سيرتوماس أرنولد" قصة إسلام أخرى لأمير آخر من الأمراء أنه سمع رجلا يرفع الأذان لصلاة الفجر فأقلق هذا الأمير وأمر بإحضار هذا الرجل لقتله.. وما كاد يدخل إليه حتى سأله:

كيف فعلت هذا وأنت غريب لا يحق له هذا العمل؟

فانطلق الرجل يشرح ويفسر له سبب قدومه إليه، ولماذا رفع صوته بالآذان حتى يستمع ، ولم يترك هذا الأمير حتى كان قد اعتنق وكل من معه الإسلام..!

لقد انتشر الإسلام على طول نهر الفولجا بواسطة دعاة الطرق الصوفية وبخاصة النقشبندية والقادرية.

ومن الطرائف التاريخية التى لا يكاد يعرفها سوى القليل من مسلمى هذا العصر.. أن هؤلاء الحكام المسلمين حكموا روسيا حوالى قرنين ونصف قرن وأن روسيا كانت تدفع الجزية إلى المسلمين فى سالف العصر..!

وسبحان من يغير ولا يتغير.. وكل يوم هو فى شأن..

بل حدث ذات مرة أن الجيش الإسلامى فى عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز دخل مدينة "سمرقند" فى دولة "أوزبكستان" دخلها دون إنذار وأسكن فيها المسلمين دون إذن من أهلها.

فشكا أهل "سمرقند" القائد المسلم "قتيبة الباهلى" إلى عمر فأرسل قاضيا ليتحقق من هذه الشكوى.. أتدرون ماذا فعل القاضى؟..

لقد تبين لأهل "سمرقند" كانوا على حق. فحكم القاضى بإخراج الجيش الإسلامى والمسلمين من هذه المدينة..! وحين رأى أهل "سمرقند" هذا قالوا والله لا يخرج أحد من المسلمين بعد ذلك، إن الذى رأيناه لا يتصوره عقل ثم دخلوا بعد ذلك فى دين الله.. فوجا من بعد فوج !

وكلنا نسمع عن "سيبيريا" إن هذا الاسم اشتق من كلمة "سيير" وهو إسم مدينة ارتفعت فى سمائها المآذن ولعلعت فى أجوائها شهادة الإيمان وعطرت ثلوجها وطرقها بأقدام المؤمنين الموحدين.

لقد عثر فى فترة سابقة من التاريخ على جثث سبعة من الدعاة مطمورة بين الثلوج بينما كانت أيديهم تتجه إلى السماء ! كانوا فى طريقهم إلى مجاهل سيبيريا للدعوة إلى الله.

وعندما تسمع كلمة "ملاّ" أو "نقشبندى" أو "قادرى" فاعلم أنها أسماء تطلق على العلماء والدعاة الذين كانوا، ولا يزالون يتجولون فى فرغانة ، وسمرقند، وبخارى، وداغستان، وتتاريا يتجولون هنا وهناك فى معركة صامتة حفاظا على الإسلام وعلى إعلاء كلمة الإيمان بين "الأوزبك" و"التتر"و"القرغير" و"الشاشان".

على مدار التاريخ[1] كانت بخارى وسمرقند هما أعظم مدن آسيا الوسطى. بخارى هى "بمثابة العلوم كلها" على عهد الزرداشت، ثم "بخارى الشريفة" طوال التاريخ الإسلامى ، على غرار مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهى عاصمة بلاد ما وراء النهر لمدة خمسة قرون منذ عهد السامانيين إلى التيموريين. وسمرقند هى الياقوتة العظيمة الراقدة على ضفاف نهر زاراقشان، عند كل الرحالة العرب.

---

(١) فهمى هويدى – كتاب العربى، المسلمون من آسيا إلى أوروبا، ص ٥٨ ومابعدها.

وهى المنافسة الدائمة لبخارى والعاصمة الرائعة التى أعدها «تيمور لنك» لتحتل صدارة العالم.

ومنذ اجتاحت قوات الجنرال الروسى كاوفمان، الإمارات والخانات الإسلامية فيما وراء النهر- فى ظل حكم القيصر الكسندر الثالث- وثمة تركيز شديد على بخارى أولا، وسمرقند ثانيا، هدفه تقليص الدور التاريخى لهاتين المدينتين الإسلاميتين العظيمتين، وهدم ما تبقى من صورة بخارى الشريفة وسمرقند ياقوتة آسيا الوسطى. وكان البديل للاثنين هو طشقند.

ومنذ ذلك الحين لم تقم قائمة لبخارى، ولم تعد سمرقند أكثر من متحف للفن والعمارة وتقدمت طشقند الصفوف. صارت هى المدينة الأولى، واحتلت سمرقند المركز الثانى، وأدار الزمن ظهره لبخارى الشريفة، التى أصبحت قرية متقدمة نسبيا، تعيش على الذكريات القديمة، وتنتصب فيها بعض شواهد المسجد الذى ولى.

وهى التى خاطب مندوب القيصر أميرها نصر الله، قبل سنوات قليلة من سقوطها بقوله : "إلى مرجع الحكمة والشرع، المبجل الكامل، الأمير العظيم الخطير ، ابن الخانات الكريم، مصدر العرفان والمجد ، مشيع السعادة والرخاء، نقدم أخلص احترامنا وإجلالنا، ثبتك الله على عرش المملكة والعز، وحفظك الله من كل سوء وشر، ومد فى عمرك..." إلى آخر الخطاب.

كأنما أريد بإبعاد بخارى وسمرقند عن مسرح الأحداث على صفحة التاريخ الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر، وبدء صفحة جديدة من عاصمة جديدة وبديلة هى طشقند.

أى أنه بقدر ما ترتبط بخارى وسمرقند بديار الإسلام فيما وراء نهر جيجون فإن طشقند تبقى مرتبطة فى الأذهان بالسيطرة الروسية على هذه

الديار طوال ١٢ قرنا على الأقل، كانت هذه البقعة الممتدة وراء نهر جيجون مسرحا لأحداث جسام كان يمكن أن تغير وجه آسيا كلها، لو مضت في مسارها الصحيح، منذ فتحها باسم الإسلام قتيبة بن مسلم فى عام ٦٨ هجرية كانت غزوات المسلمين للمنطقة قد بدأت منذ عام ٤٦ وتقدم الإسلام منها إلى الصين والهند، وانتشر فى روسيا ذاتها، حتى ظلت الأراضى الروسية خاضعة للسيطرة التترية الإسلامية على مدى ثلاثة قرون، بل كان دوق موسكو ذاتها يدفع الجزية سنويا لأمير بخارى، وكانت روسيا مع أسبانيا وشعوب البلقان هى البلاد الأوروبية الوحيدة التى رفعت عليها راية الإسلام.

لكن المسلمين أساءوا، وتحول أكثرهم فى هذه المناطق، من مبشرين وفاتحين إلى غزاة وأصحاب ملك وسلطان، وهزموا أنفسهم، فهزمهم غيرهم.. وتكررت القصة بحذافيرها فى الأندلس والبلقان وروسيا.. وكانت النهاية واحدة، لأن الله - بنص القرآن الكريم - يدافع - فقط- عن الذين آمنوا، وعملوا الصالحات.!!!

لم يكن للعلماء الصوفيين فضل إدخال المغول فى الإسلام فحسب بل كان لهم أيضا شرف المحافظة على إسلام هؤلاء القوم وتعميق الإسلام بينهم على مدى العصور.

وينقل لنا ابن بطوطة أثناء رحلته صورة مشرقة بالنور ونحن نرى العالم الصوفى حسام الدين الياغى وهو يعظ السلطان طرمشيرين (سلطان بخارى وما وراء النهر) المغولى حتى يبكيه. يقول ابن بطوطة : "وكان هذا الشيخ يعظ الناس فى كل جمعة ويأمر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر والظلم. ويغلظ عليه القول والسلطان ينصت لكلامه ويبكى. وكان الشيخ لا يقبل من عطاء السلطان شيئا. ولم يأكل قط من طعامه ولا لبس من ثيابه".!

كما يصور لنا ابن بطوطة هذا السلطان التقى المؤمن فيقول : "وهو السلطان المعظم علاء الدين طرمشيرين وهو عظيم المقدار كثير الجيوش والعساكر ضخم المملكة شديد القوة، عادل الحكم".

ويذكر لنا أن السلطان تأخر قليلا ذات يوم عن موعد إقامة صلاة العصر فأرسل غلامه ليستأذن من الإمام حسام الدين الياغى فى تأخير الصلاة قليلا ريثما يتوضأ السلطان.

فغضب الإمام حسام الدين وقال الصلاة لله أو لطرمشيرين. وأمر المؤذن بالإقامة.. فجاء السلطان وقد فاتته ركعتان فصلى بالقرب من موضع النعال فلما قضى صلاته قام مسرعا إلى الإمام ليسلم عليه. فقال الإمام لإبن بطوطة: إذا مشيت إلى بلادك فحدث أن فقيرا من فقراء الأعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك".!!!

وكذلك يصف لنا ابن بطوطة الإمام الصوفى العالم نعمان الدين الخوارزمى الذي كان يعظ السلطان محمد أوربك ويعنفه والسلطان محمد أوزبك هو أحد السلاطين السبعة الذين كانوا يحكمون الدنيا آنذاك.. فقد كان ملكه يمتد فى أرض روسيا على طول نهر الفولجا ويحكم القرم والقوقاس حتى تصل حدوده بحدود مملكة طرمشيرين فى خوارزم.

يقول ابن بطوطة عن الإمام الصوفى العالم نعمان الدين الخوارزمى الذى كان يقيم فى زاوية صغيرة فى مدينة "السرا" حاضرة ملك السلطان محمد أوزبك.

"وهو من فضلاء المشايخ حسن الأخلاق كريم النفس شديد التواضع شديد السطوة على أهل الدنيا، يأتى إليه السلطان محمد أوزبك زائرا فى كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم إليه.

ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه ألطف كلام ويتواضع له. والشيخ بضد ذلك. وفعله مع الفقراء والمساكين والواردين خلاف ذلك بأن يتواضع لهم ويكلمهم بألطف كلام ويكرمهم".!

هكذا كان أصحاب الزوايا من العلماء الزهاد من مشايخ الصوفية لا يلتفتون إلى السلاطين ولا يسعون نحوهم بل السلاطين يجئون على أبوابهم ويسمعون تقريعهم وتأنيبهم بكل أدب وخضوع.

وكان للعلماء من الصوفية ومريديهم دور عظيم فى دخول المغول فى الإسلام وفى تجذيره وتعميقه فى نفوسهم.

وتعتبر الطريقة النقشبندية من أوسع الطرق الصوفية انتشارا وربما أكثرها أهمية.

لقد تأسست هذه الطريقة على يد الشيخ محمد بهاء الدين نقشبند فى مدينة بخارى الذى يقول بانتسابه إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه. وقد ولد هذا الشيخ عام ٧١٨هـ /١٣١٧م وتوفى سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م بعد أن ترك أتباعه ينتشرون فى آسيا الوسطى والقوقاس وتتار الفولجا ووصلت طريقته إلى الهند والصين ثم امتدت إلى الشرق الأوسط ذاته.

ولقد شكلت الطريقة النقشبندية المحرك الرئيسى لقوى الجهاد الإسلامى فى وجه المستعمر الكافر الروسى فى العهد القيصرى ثم فى العهد البلشفى الشيوعى وامتد جهاد شيوخها ومريديها عبر مئات السنين وعلى امتداد الأراضى الواسعة من القوقاس فى جبال الداغستان والشاشان غربا إلى بخارى وقرغيزيا على حدود الصين شرقا.. واشتهرت بصورة خاصة مقاومة المريدين فى القوقاس.

تجلى الدور النضالى والجهادى للنقشبندية بشكل واضح فى القسم الذى يمثل منطقة شمال القوقاز، فى بلاد الشيشان وداغستان.

فبينما كان أحد أئمة النقشبندية فى المنطقة منهمكا فى الدعوة إلى طريقته وتوجيه أتباعه ومريديه، إذ بالإمبراطورة الروسية "كاترين" توجه حملتها إلى المنطقة لغزوها وضمها إلى أملاك القيصر سنة ١٧٨٥م، فما كان من الشيخ منصور (المعروف لدي الروس باسم أشورما) إلا أن دعا شعوب شمال القوقاز إلى الجهاد ضد القوات الغازية واستمر الجهاد ست سنوات استطاع فيها وضع الأساس لدولة القوقاز الشمالية فأعطى بذلك الحركة الروحية بعدا سياسيا واجتماعيا ذا مغزى غير أن الروس تمكنوا من القبض على الإمام منصور الذى قتل فى الأسر سنة١٧٩٤م.

فى وقت لاحق تولى إمامة الفرقة النقشبندية الإمام محمد الغمرى المعروف باسم (غازى ملا) الذى وجه نداء عاما إلى شعب الداغستان بالنهوض للجهاد ضد الروس فى سنة ١٨٢٩م، وقد انضم إليه عدد كبير من الشيشان الفارين من الغزو الروسى وسميت حركة الإمام غازى ملا بالحركة المريدية.

حققت الحركة انتصارات بالغة الأهمية على الروس المزودين بالمدافع الثقيلة والأسلحة الحديثة وأبدى المريدون استبسالا منقطع النظير، ورغبة عارمة فى الاستشهاد أرقت الروس وأقضت مضجعهم، وتواصل الجهاد حتى بعد استشهاد الإمام غازى سنة ١٨٣٢.

تولى قيادة الحركة المريدية البطل ذائع الصيت فى تاريخ الجهاد الإسلامى كله، الإمام شامل (ولد سنة ١٨٠٠م). بعد ولادة الإمام غازى ملا بخمس سنوات وهو من قريته نفسها فى داغستان، وكان أحد أركان حربه ضد الروس).

وقد أحكم شامل تنظيم حركته المريدية التى كانت بمثابة حكومة مدنية وجيش للقتال فى الوقت نفسه، فاختار مائة من أشد الناس إخلاصا للحركة لكى يكونوا نوابا له فى المدن والقرى، ثم اختار ألفا بدرجة مرشد، كقادة ميدانيين فى معارك القتال. وجاء "المريدين" فى المرتبة الثالثة كجنود مقاتلين تحت إمرة المرشدين، فى وحدات تتألف من خمسمائة مقاتل، يمكن أن تنقسم إلى مجموعات أقل.

وكان النظام المتبع يقضى بأنه فى حالة الحاجة إلى مقاتلين، بدلا ممن استشهد فى المعارك فإن على كل بيت من البيوت أن يقدم مقاتلا واحدا على الأقل.

استغرق هذا الحشد ثلاث سنوات (١٨٣٤م-١٨٣٧م) كان الروس فيها منشغلين بأعمال التدمير فى الشيشان. وحين بدأت الحرب أنزل "شامل" بالروس هزائم عديدة قبل أن يهزم فى "اخولكو" سنة ١٨٣٩م، ويفر إلى بلاد الشيشان التى التف أهلها حوله، مما ساعده على مواصلة القتال الضارى الذى خسر فيه الروس كثيرا من جنودهم وعتادهم، وفشلت كل الحملات التى وجهوها ضد شامل الذى بلغ أوج قوته فى سنة ١٨٤٧م.

وكان جنوده إذا دخلوا المعارك أقسموا أيمانا مغلظة على القرآن الكريم أن يموتوا أو يهزموا الروس.

مما يذكر أن أحد مساعدى "شامل" فى جهاده كان الزعيم الداغستانى "حاجى مراد" الذى أصبح اسمه مصدر رعب وذعر دائم للحاميات الروسية فى القوقاز، حتى يروى أن المئات من جنود تلك الحاميات كانوا يفرون أمام العدد القليل من فرسان هذا القائد المغوار وهم يصرخون: حاجى مراد، حاجى مراد!!

فالشيشان .. الشيشان

رعب روسيا الأبدى ..!

رجال أشد صلابة من الجبال

إيمانهم بالحرية والعدل.

ليس له حدود..

وعندما يرتفع صوت المؤذن.

تتألق وجوههم بنور الإيمان والتقوى.

ملائكة. ولكن من البشر!

عدوهم الحقيقى هو اليأس والروس!

لا يعرفون الهزيمة.

فالاستشهاد هو أملهم الوحيد

لايعترفون بـ (سيد) غير الله!

فالشيشان .. الشيشان !

رعب روسيا الأبدى.

وهو رعب لن يموت ..!!!



تركيــا
التى كانت عظمى !

تركيا

التى كانت عظمى!

قبل عامين سافرت إلى "اسلامبول"(١) التى تعرف حاليا باسم "استانبول" لحضور الندوة العالمية عن الإمام المجاهد "بديع الزمان سعيد النورسى".

وفى حفل غداء دعينا إليه من رئيس بلدية المدينة سمعنا عجبا.

إن رئيس البلدية الذى دعانا إلى حفل الغداء كان عضوا فى حزب "الرفاه" الإسلامى الذى حله الجنرالات..!

كانت مدينة "استانبول" قبل أن يتسلمها هذا الرجل أو هذا الشاب غارقة فى مشكلات عويصة استعصى حلها على جميع رؤساء البلدية السابقين.

مشكلات فى المواصلات. ومشكلات فى المرافق ومشكلات فى توفير المساكن للفقراء من أبناء الشعب. كانت "استانبول"- أكبر وأجمل المدن- تعيش مرحلة احتضار حقيقية.

وفى ظرف عام. بعد تولى هذا "الشاب" شئون المدينة تغير كل شىء توافرت وسائل المواصلات والنقل، وتوافرت المساكن للفقراء الباحثين عن مأوى. وأصبحت المرافق تعمل بصورة جيدة فى كل شىء.

حتى "المياه" التى كانت شحيحة أصبحت فائضة على الحاجة.

وهناك قصة لطيفة تتحدث عن نقص المياه فى هذه المدينة يقول رواة هذه القصة : إن رئيس البلدية دعا إلى إقامة صلاة "الاستسقاء" فى جميع المساجد فخرجت الصحف "العلمانية" تسخر وتندد بهذا الغباء وهذا التخلف..!!

---

(١) اسلامبول معناها المدينة المملئة بالاسلام.

وكانت المفاجأة التى ألقمتهم حجرا.. فقد تجمعت السحب فى سماء المدينة فجأة.. وأمطرت السماء مطرا ملأ كل "الخزانات" الفارغة ..!!!

لم يكتف الرئيس الشاب بكل هذه الإنجازات فقد خطا خطوات أخرى كان لها وقع الصاعقة فقد أغلق نوادى القمار والخمر. وذهب إلى زعيمة "الداعرات" فى المدينة – وهى أرمنية الأصل يعرض عليها وعلى ضحاياها "التوبة" ويعدهم بتوفير حياة كريمة لائقة بعيدة عن الفجور والدعارة !

وعادت الصحف "العلمانية" تدق طبول الحرب ضد هذه "المصيبة القومية"! كيف يجرؤ رئيس البلدية على إغلاق "أوكار الدعارة" وكيف يقضى على "بؤر الفساد" التى توفر للحكومة عشرة مليارات كل سنة ..!!!

فماذا حدث بعد ذلك لهذا الشاب التقى الصالح ؟!

كنا نتهيأ لمغادرة اسطنبول(١)، وكانت طائرتنا تتحرك الساعة التاسعة مساء ولما كان المفترض أن يصل المسافرون إلى المطار قبل ساعتين من حركة الطائرة ، فهذا كان يعنى بالنسبة لنا عدة ساعات نقضيها فى السياحة ومشاهدة معالم المدينة.

ونحن نفخر فى مصر بأن القاهرة هى مدينة الألف مئذنة.. وأن فيها ألف مسجد إلى جوار الكنائس، أما اسطنبول فهى مدينة تضم ثلاثة آلاف مسجد إلى جوار الكنائس الشهيرة.. واسطنبول مدينة تشبه كتابا مفتوحا من كتب التاريخ. إن كل ركن فيها وكل بناء يحمل أثرا من آثار التاريخ.

مضينا نضرب فى طرقات المدينة ثم أحسسنا حين أقبلت الظهيرة أن هناك شيئا غير عادى قد وقع.. لقد بدأ المرور يتحول إلى البطء وضاعت سيولة

---

(١) أحمد بهجت - الأهرام .

الحركة فى شوارع المدينة.

وبدأنا نتتبع الخبر.. كان الخبر من أعجب ما سمعنا فى حياتنا الصحفية على كثرة ما شاهدنا وسمعنا من عجائب.

قيل لنا إن حركة المرور أبطأت وأصابها ما يشبه الشلل بسبب مظاهرة هائلة تتكون من مائة ألف مواطن تركى اجتمعوا فى الساحات والميادين والشوارع ابتداء من مسجد الفاتح إلى مسجد بايازيد وسط اسطنبول.

سألنا : لماذا احتشدت المظاهرة ؟

قالوا: احتشدت المظاهرة احتجاجا على قرار المحكمة الدستورية العليا بتأكيد حبس عمدة اسطنبول ورئيس بلديتها (رجب طيب أردغان).

سألنا : ما هى الجريمة التى كانت سببا فى الحكم عليه بالحبس ؟

قالوا: هى جريمة خطيرة .. لقد قرأ منذ ثمانية أشهر وهو يخطب فى الجماهير بيتا من الشعر كتبه الشاعر التركى محمد عاكف، وهو شاعر كانت له اتجاهات إسلامية، وهو يقول فى قصيدته:

" المساجد ثكنات المؤمنين، وقبابها خوذاتهم، أما مآذنها فهى رماحهم".

بسبب بيت واحد من الشعر حكم بالحبس على رجل له تقديره واحترامه فى الشارع السياسى التركى، وقد اتهم بأنه يعمل على تقويض الأسس العلمانية للدولة التركية وإقامة نظام إسلامى.. هذه هى الجريمة التى دخل بها الشاعر إلى السجن.!



فلنعد بعض الزمن إلى الوراء لنعرف أبعاد هذه الجريمة التى ترتكب ضد المسلمين الأتراك.

فى ٨ فبراير سنة ١٩١٩ دخل الجنرال الفرنسى فرانشت ديسبرى مدينة استانبول على حصان أبيض مهدى من طائفة الأروام "اليونانيين" فى المدينة كان الجنرال الصليبى يحب أن يرد على صورة من التاريخ العثمانى البعيد عندما دخل محمد الفاتح نفس المدينة ممتطيا جوادا أبيض، وخلف الجنرال الصليبى كانت ثلة من حثالة الأرمن واليهود والأروام ، تسير مهللة له، كان عصر يطوى أو فى سبيله إلى الطى، وعصر يبدأ من جديد، أو قل إن هذا الدخول غير الميمون كان نهاية لبداية بدأت منذ عدة قرون وبداية لعصر التشرذم والتيه الإسلامى الذى نعيش فيه(١)..!!!

وسرعان ما سقط قلب دولة الخلافة بين جيوش الاحتلال الإنجليزى والفرنسى والايطالى والذيول من اليونانيين والأرمن، وكان الخليفة يقبع فى قصره يدبر أمرا، ولم يكن هذا الأمر إلا لنفاذ مصطفى كمال - وهو أحد الضباط الكبار- إلى الأناضول لبدء المقاومة ضد المحتل وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، هذه العملية التى أحاطها مصطفى كمال - فيما بعد- بسيل من الدعاية المعدة والموجهة لتصوره بطلا أنقذ تركيا من الدمار، ومبعوثا من "العناية الإلهية" لإنقاذ الإسلام مما يراد به، يقف فى وجه الخليفة "عميل الإنجليز" الذى كان يضع العراقيل فى وجه الغازى مصدرا الفتاوى التى "تكفر" الغزاة وتعتبرهم "متمردين" على الخليفة، هذه هى الصورة التى روجت لتقديم مصطفى كمال إلى الساحة التركية فما هو نصيبها من الصحة ؟

إن الذى لم يعرفه الخليفة أن الضابط الذى منحه ثقته ووضع مصير دولته

(١) د/إبراهيم الدسوقى شتا - الحركة الإسلامية فى تركيا- ص١٧ دار الزهراء.

بين يديه، خرج من عنده ليضع يديه بين أيدى مركز القوة الحقيقى المتمثل فى الانجليز، وليضع بين أيديهم كل تفصيلات الخطة التى وضعها مع الخليفة، وليذهب للنزول فى "سامسون" مباركا بحمايتهم، والذى لم يعرفه الخليفة، إلا متأخرا وبعد أن ضاع كل شيء، أن هذا الاتصال لم يكن الاتصال الأول بين قائده وبين الانجليز ، كما أنه لن يكون الاتصال الأخير فقد سبقته سلسلة من الاتصالات جعلت هذا الضابط بالذات موضع ثقة من الانجليز "مصنع على أعينهم"، كما أن الاتصالات التى أعقبته ليست فى حاجة إلى وثائق تثبتها على أساس أن النتائج غالبا ما تشير إلى البدايات.

ومن هنا فإن النزول فى سامسون وبداية حرب الاستقلال والذى يصور كبطولة فذة من مصطفى كمال "الذى استطاع بمفرده أن يتحدى الجيوش والأساطيل المحتلة" ينبغى أن يذكر فى إطاره الحقيقى على أساس أنه تم بعلم "هارنجتون" القائد العام لجيش الاحتلال فى استانبول، وهذه الحقيقة يمكن أن نجدها صراحة فى بعض المذكرات التى كتبها رفاق أتاتورك ومعاصروه، والتى لم تنشر إلا فى الستينيات، إذ لم يستطع الرفاق – حتى وهم يمجدون الزعيم – أن يكبحوا جماح أقلامهم عن الخوض فى الدور الحقيقى للزعيم وفى حقيقته التى عايشوها وشاهدوها عن كثب، وحتى يكيلون له المديح ، يستطيع القارئ – من خلال هذا المديح– أن يدرك الأغوار السحيقة لهذه الشخصية التى نيط بها تغيير أمة ومطاردة دين ..!!

نعود إلى خلفيات ما بدأنا به، فإن مصطفى كمال الذى يشك فى تركيته، فضلا عن نسبه – والذى تبين أخلاقياته أنه مستعد لبيع كل ما هو مسلم ولا نقول كل ما هو تركى – قد صنع على أعين الانجليز "تماما مثل رضا شاه فى ايران"، والتفسير الوحيد الذى يقدم للنزول فى سامسون على الباخرة "باندرمه" – التى لم يكن ليُعيى الأسطول الانجليزى اصطيادها لو أراد– هو أن مصطفى

كمال كان منذ نهاية الحرب الأولى ومنذ توليه قيادة الجيش السابع فى حالة اتفاق وتخطيط مع الانجليز، بينما تعود ملامح عداوته للإسلام إلى سنة تخرجه فى الكلية الحربية "سنة ١٩٠٤م" عندما خاطب أصدقاءه من الضباط محذرا إياهم من الانخداع "بفكرة العالم الإسلامى" ثم تلتها خطوات كان من الممكن للعين المتفحصة أن تدرك من خلالها أى رجل سوف يكونه، فها هو يغير التحية بين جنوده من (السلام عليكم) إلى (مرحبا بكم).!

ولقد نظر الكثيرون من الزعماء والقادة إلى مصطفى كمال نظرة إعجاب وحب وكان المرحوم مصطفى النحاس باشا من المعجبين به هنا فى مصر... وقد ذكر الرئيس محمد أنور السادات أنه تأثر به فى مرحلة مبكرة من العمر، وأن والده كان يعلق صورته فى البيت، ويشيد بزعامته وجهاده فى كل وقت.

فهل كان (أتاتورك) يستحق كل الإعجاب والحب ؟

لقد بدأت معرفتى تتسع حول هذه الشخصية منذ سنوات كثيرة خلت كنت فى رحلة دراسية لمدينة كمبردج (CAMNRIDGE CITY) فالتقيت هناك مصادفة ببعض الطلبة الأتراك الذين يدرسون فى جامعتها الشهيرة. وبعد أن تعارفنا، وتعمقت بيننا الألفة سألت هؤلاء الأخوة قائلا:

ترى إلى أى مدى نجح أتاتورك ، وفى أى صف من القادة العظام يضعه الناس والشعب ؟

وكانت مفاجأة لم أتوقعها من قبل .. لقد صاح هؤلاء الطلبة فى وجهى بعنف .. وقالوا: لا تقل "أتاتورك" بل قل (أخبث ترك) ..!!!

فعلمت من هذه اللحظة أن (أتاتورك معناها أبو الترك) وأن هؤلاء الأخوة الأشقاء يرفضون الاعتراف به كأب.. بل هو فى نظرهم أخبث الخبثاء الذين نكب بهم الشعب .!!!

وفى موسم الحج عام ١٣٩٠هـ التقيت فى فندق "جدة بالاس" - بوفد يمثل حزب السلامة الوطنى. وسمعت من هؤلاء النواب والقادة ما لا يكتب.! وكشفوا النقاب عن كثير من حياة "الذئب" أو "الثعلب".!

لقد دعا "أتاتورك" بقوة إلى إلغاء الشريعة، وإقصاء قضاة المحاكم الدينية.

وقد اقتنع بأن كفاحه يجب أن يوجهه إلى الدين فإنه منافسه الأكبر.! وكان يعتقد من صغره أنه لاحاجة إلى الله !!!

وكان فى آخر عهده يرفع قبضته ويشير بها إلى السماء ساخرا مهددا!

وكان يرى أن الإسلام إنما ظل عاملا هداما فى الماضى، وأنه جنى على تركيا جناية كبيرة، وألحق بها خسائر فادحة وكان يقول فى أكثر الأحيان : إن قوة العقل وقوة الإرادة تتغلبان على (قوة الإله..!!) وكان مصمما على سن القانون لتحريم الدين فى تركيا ولو احتاج ذلك إلى استخدام القوة، وإلى الخدعة والتضليل.

كان يبغض الإسلام والعقيدة الراسخة بغضا شديدا! ولم يكن سرا أن "مصطفى كمال" لا يدين بدين، وقد فزع الناس حين شاع أن "مصطفى كمال" رمى بالمصحف على رأس شيخ الإسلام .!!!

وقد قرر منع الطربوش وغطاء الرأس وألزم لبس القبعة، واستعمل القسوة النادرة والعنف فى هذا الغرض كأنه لا إصلاح أكبر وأهم من هذا .. وقد حدثت ثورات واضطرابات عظيمة هددت سلامة تركيا، وأقيمت محاكم فى كل ناحية، وأعدم رجال الطبقة الدينية الذين نفخوا فى قلوب الناس روح المقاومة والحماس الدينى.. ولم يكن يعبأ بالوسائل والطرق التى يستخدمها فى هذا الشأن .. يلقى القبض على الناس وكانوا يشنقون لمجرد أنهم وجدوا يسخرون من هذه الأحكام، واستهدف لذلك الأبرياء والمجرمين على السواء ..

ولما ابتدأت مفاوضات مؤتمر لوزان لعقد صلح بين المتحاربين اشترطت انجلترا على تركيا أنها لن تنسحب من أراضيها إلاّ بعد تنفيذ الشروط التالية :

أ- إلغاء الخلافة الإسلامية، وطرد الخليفة من تركيا ومصادرة أمواله.

ب- أن تتعهد تركيا بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة.

جـ- أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام.

د- أن تختار لها دستورا مدنيا بدلا من دستورها المستمد من أحكام الإسلام.

فنفذ (كمال أتاتورك) الشروط السابقة، فانسحبت الدول المحتلة من تركيا ..!!!

ولما وقف (كرزون) وزير خارجية انجلترا فى مجلس العموم البريطانى يستعرض ما جرى مع تركيا ، احتج بعض النواب الانجليز بعنف على (كرزون) واستغربوا كيف اعترفت انجلترا باستقلال تركيا، التى يمكن أن تجمع حولها الدول الإسلامية مرة أخرى وتهجم على الغرب.

فأجاب (كرزون): لقد قضينا على تركيا، التى لن تقوم لها قائمة بعد اليوم .. لأننا قضينا على قوتها المتمثلة فى أمرين :

* الإسلام والخلافة ...!!

فصفق النواب الانجليز كلهم، وسكتت المعارضة ..!

ومن الوثائق السرية التى نشرت مؤخرا وثيقة موقعة باسم وزير المستعمرات البريطانى واسمه (اورمرجو)..

تقول هذه الوثيقة :

" إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هى الخطر الأعظم الذى يجب أن نحاربه وأن نقاومه ..!!

وليست بريطانيا وحدها هى التى تلتزم بذلك بل تقف معها فرنسا وكل دول أوروبا ..!!

ومن دواعى فرحتنا أن الخلافة الإسلامية قد زالت ! ونتمنى أن يكون ذلك بغير رجعة ..!!

إن سياستنا تستهدف دائما منع قيام الوحدة الإسلامية أو التضامن الإسلامى ويجب أن تبقى هذه السياسة كذلك(١) ..!!!

إن سياستنا فى الحرب العالمية الأولى - مع العرب - لم يكن الغرض منها القضاء على هذه الخلافة فقط بل والعمل على إحياء النعرات القومية والعنصرية فى مصر وتركيا وغيرها..!!!

وهذا هو ما فعله (أتاتورك) ونفذه بالكلمة وبالحرف ..!!!

يقول العلامة (محمد إقبال) :

(إن كمال الذى تغنى بالتجديد فى حياة تركيا دعا إلى محو كل أثر قديم وتراث قديم ولكنه جهل أن الكعبة لا تجدد ولا تعود إلى الحياة والنشاط إذا جلبت لها من أوروبا أصنام جديدة ..!!!

إن زعيم تركيا لا يملك اليوم أغنية جديدة إنما هى كلها أغان مرددة معادة تتغنى بها أوروبا من زمان، أن الجديد عنده هو القديم الأوروبى الذى أكل عليه الدهر وشرب، ليس فى صدره نفس جديد وليس فى ضميره عالم حديث

---

(١) تاريخ الوثيقة ١٩٣٨/١/٩.

فاضطر إلى أن يتجاوب مع العالم الأوروبى المعاصر، إنه لم يستطع أن يقاوم وهج العالم الحديث فذاب مثل الشمعة وفقد شخصيته ..!!!(١)

من كتاب (كليلة ودمنة) قال الملك دبشليم لبيدبا الفيلسوف :

أخبرنى عمن يدع عمله الذى يليق به، ويطلب سواه فلا يقدر عليه . فيراجع الذى كان فى يده من عمله فيفوته ويبقى حيرانا متلددا - أى مترددا- .

فقال الفيلسوف :

زعموا أن (غرابا) رأى (حجلة) فأعجبته مشيتها فطمع فى تعلمها. فراض نفسه فلم يقدر على إحكامها. فانصرف (عاد) إلى مشيته التى كان عليها فلم يحسن. فبقى حيرانا مترددا لم يدرك ما طلب، ولم يحسن لما كان فى يده الحفظ..!!!

ثم قال الفيلسوف للملك :

فالولاة فى قلة تعاهدهم للرعية في هذا وأشباهه ألوم وأسوأ تدبيرا، لأن تنقل الناس من بعض المنازل إلى بعض فيه صعوبة ومشقة شديدة، ثم إن الأشياء ، فى ذلك تجرى على منازل حتى تنتهى إلى الخطر الجسيم من مضادة الملك فى ملكه(٢).

ولم يكن (أتاتورك) إلا (غراب) فى دنيا الزعامة ! ولم تكن "أوربا" أو "الحجلة" التى تعلق بها إلا نكبة عليه إلى يوم القيامة .!!

إن المأساة هنا لا تكمن فقط فى محاربته للدين والعقيدة، لقد ترك الرجل تركيا من ورائه عالة تعيش فى كنف غيرها فكرا وسياسة ولا تزال تركيا - حتى

(١) د/ جبريل .

(٢) كليلة ودمنة - طبعة دار الشروق - بيروت ١٣٧٣هـ-١٩٧٣م.

يومنا هذا – دولة متخلفة بمقاييس التقدم والحضارة ولم يعترف بها الغرب كدولة أوروبية، وكل علاقاتها مع أوروبا لا تزيد على علاقاتها بأية دويلة فى البحر الكاريبى، أو المحيط الهندى ، باستثناء تلك الأحلاف التى جعلت من تركيا سندا للغرب فى وقت الشدة وغمة على الشعب فى أوقات السلام والهدنة.

وكما يقول المرحوم العلامة "اقبال" :

(إنكم أيها الأتراك أخذتم جوار أوروبا وصحبتها ، مع أنكم كنتم بفضل الإسلام على مقربة من النجوم والكواكب ...) !!!

و"الجنرالات: الذين يحكمون تركيا الآن صورة "طبق الأصل" من شيطانهم الأكبر! لقد زرعهم أتاتورك فى أحشاء "الشعب" بطريقة غير شرعية ..! إنهم نسخة مكررة من لقطاء "التاريخ" الذين لا يعرف لهم أصل ولا تعرف لهم هوية ..!!!

وقريبا يكشف "الستار" عن حقيقة هؤلاء الجنرالات الذين فقدوا نور البصيرة والبصر وتلطخت جباههم وأيديهم بدماء الأبرياء من أبناء الشعب التركى البطل.

إن (أتاتورك) لن يفيدهم شيئا يوم الحساب الذى أصبح قريبا. وأن أوروبا أو "الغرب" لن يحميهم من نهايتهم السوداء أبدا .!

إن هؤلاء "الجنرالات " لا يعوون دروس التاريخ جيدا. إن تاريخ ستة قرون من الجهاد فى سبيل الله لن يذهب عبثا. والشعب التركى لن يقبل أن يضيع تاريخه سدى.

ففى (وصية) إلى ابنه كتب الأمير "عثمان" مؤسس الدولة العثمانية إلى ولده وولى عهده يقول له :

(يا بنى إياك أن تشتغل بشىء لم يأمر به الله رب العالمين وإذا واجهتك فى الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلا..!

يا بنى أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة ..!

يا بنى إنك تعلم أن غايتنا هى إرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضاة الله جل جلاله.

يا بنى ! لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت، وهذا يا ولدى ما أنت أهل له)...!!!

يقول (توماس أرنولد) :

وقد تميز الأتراك بصلابتهم فى حياتهم الدينية. وحماستهم فى أداء طقوسهم التى رسمها لهم دينهم فى زيهم وأسلوب معيشتهم، وبساطة الحياة التى تلاحظ حتى فى العظماء أو الأقوياء منهم.

ويثنى مؤرخ السفارة التى أرسلها الإمبراطور "ليوبولد الأول" إلى الباب العالى ثناء خاصا على تعبد الأتراك وانتظامهم فى الصلاة، بل يذهب بعيدا فيقول :

" يجب أن نتكلم عن فوضى المسيحيين. أن الأتراك يدلون على كثير من العناية والغيرة فى أداء شعائرهم الدينية : أما المسيحيون فلم يظهروا شيئا من ذلك فى دينهم ...!.

حتى أن التركى العظيم نفسه لا يحاول أمرا إلا بعد مشورة المفتى. وإلى أى حد هم مهتمون بمراعاة أوقات الصلوات الخمس فى كل يوم حيث وجدوا وأيا كانت مشاغلهم.؟

ما أشد مراعاتهم دائما لصومهم من الصباح حتى المساء طوال أيام الشهر بلا انقطاع.

ما أكثر تواد المسلمين وتراحمهم.

وما أعظم ما يرى من عنايتهم بالغرباء فى نزلهم، سواء بالفقير أو المسافر..!!!

لو تأملنا عدالتهم ونزاهتهم وسائر فضائلهم الخلقية لخجلنا من جمودنا سواء فى عبادتنا أو فى تراحمنا، ومن جورنا وإفراطنا وتعسفنا فلا ريب أن هؤلاء الناس سيقيمون الحجة علينا، ولا شك أن عبادتهم وتقواهم وأعمال الرحمة فيهم هى الأسباب الرئيسية لنمو الدعوة المحمدية ...!!!

ولكن أهم ما تلاحظه هنا، أن بعض الناس بدأ يسأل :

"هل من الجائز أن يأذن الله للمسلمين بأن يبلغوا ما بلغوه من هذا العدد الذى لا يدخل تحت حصر بدون سبب معقول ..؟!

هل من المتصور أن مثل هذه الآلاف المؤلفة تتعرض للهلاك الأبدى كما يتعرض الرجل الواحد ؟

كيف يمكن أن يكون أمثال هذه الجماهير الزاخرة مناوئين للدين الحق ؟

أنه إذا كان الحق أقوى من الباطل، وكان الناس جميعا يحبون الحق ويرغبون فيه أكثر مما يحبون الباطل، فليس من المحتمل أن تجمع أقوام كثيرة كهؤلاء على محاربته .!!!

كيف استطاعوا أن يقووا على الحق مادام الله يعين على الحق ويؤيده ؟

كيف استطاع دينهم أن ينتشر بهذه الصورة العجيبة لو أنه قام على أساس فاسد من الباطل ؟!!

وفى حوار دار بين القائد المجرى "هينادى" وبين رجل مجرى آخر إسمه "برانكو فيتش" وكان ذلك أثناء نشوب الحرب بين المجر والأتراك.

لقد سأل "برانكو فيتش " القائد المجرى هذا السؤال :

ماذا سوف تصنع لو انتصرت على المسلمين ؟

فأجاب القائد : "المسيحى " المجرى :

أهدم كل المساجد طبعا ..!!!

ثم ذهب "برانكو فيتش" بعد ذلك إلى القائد التركى المسلم ماذا تصنع مع ديننا – أى المسيحية – إذا انتصرت ؟

فأجاب القائد التركى المسلم :

"أقيم كنيسة بجوار كل مسجد ..!!!

يقول الكاتب البريطانى والصحفى المعروف (ادوارد مورتيمر) :

إن مصطفى كمال بالرغم من كل الإجراءات التى اتخذها ، لتحديث وعلمنة تركيا : إلا أنه لم يستطع قتل الشعور الدينى الجارف داخل قلوب ومشاعر غالبية الشعب التركى رغم الخطر الذى مارسه "الكماليون" فى تركيا طيلة السنوات الستين الماضية.

ويقول : " أن شعورا جارفا وقويا للعودة للتقاليد والنظم الإسلامية قد نما بين مختلف طبقات الشعب التركى ".

لقد ذهب مراسل جريدة "التايمز" THE TIMES إلى أحد البنوك التركية فشاهد هذا المشهد :

"لدى إحدى مناضد الصرف، وعدد من موظفى المصرف يقبلون فى جدال عنيف على سيدة كهلة تدل ملابسها الظاهرة على أنها من الفلاحين .

وكانت السيدة تصيح بلهجة تركية حازمة :

(كلا أبدا .. اصنعوا بالنقود ما بدا لكم ولا تعطونى إياها .. ألم يرد فى كتاب الله أن أكل الربا حرام مهلك" ..!!!

ودنوت منهم مأخوذا بهذا المشهد الرائع .. وقام من بينهم محمد "بك" وهو تركى من أبناء الجيل الحديث نو الصبغة الأوروبية الخالصة ولا يكاد يظن الناظر إليه فى أى مكان إلا أنه غربى. وقد عهدته باسما رزينا - قد علاه خليط عجيب من الحرج - فأقبل علىّ مبينا أنها قروية لها مع المصرف حساب، وهو أمر قد أصبح مألوفا نتيجة الإثراء الذى طرأ منذ أعوام على كثير من الفلاحين الأتراك .. ثم روى لى كذلك أنها (مسلمة شديدة التدين شأن سائر الفلاحين) وأنها استحقت خمسين ليرة فائدة على ودائعها لكنها تأبى إباء قاطعا أن تمس شيئا منها لأن القرآن ينهى عن أخذ الربا ..!!!

أمعنت النظر فيها ، فإذا هى ضاربة على رأسها بالخمار المعهود ساترة به ذقنها وسمدلة إياه على أسفل الجبهة .. وهذا الشرشف - كما يسمونه - هو البقية الباقية من سالف الحجاب فى تركيا .. وكانت ترتدى ثيابا فاقعة الألوان وسراويل واسعة فضفاضة مما يعرفونه باسم (الشلفاز).

ولبثت تتأمل فى كشف رصيدها بكثير من الريبة.

ثم صرخت فجأة مشيرة ببنانها - إشارة إتهام - إلى جملة من الأرقام أضيفت إلى الحساب، معلنة بحزم فاصل :

(هذا هو الفائض ولن آخذه أبدا ..!!!).

يقول مراسل "التايمز"

لقد أيقنت منذ هذه اللحظة أن الإسلام فى تركيا يستعصى على الموت !.. وأن كل ما فعله أتاتورك تلاشى أمامى فى غمضة عين ..!!!

إن رأس الأمر كله هو الدين - كما قال مولانا محمد على - فى محاكمته الشهيرة فى مدينة كراتشى - والمرء الذى لم يبدأ حياته به لا يتمتع بحياة حقيقية ولا يشعر بالمعنى الحقيقى لهذه الحياة.!

إن واجبه الأول وولاءه الأوحد يجب أن يكون لله. قد يتمتع ببعض التكريم. وقد ينال شيئا من الولاء غير أن هذا التكريم وهذا الولاء بمقارنته بالولاء والإخلاص لله يذوى كالورقة التى يلفحها اللهب المشبوب فتذروها الرياح الأربع..! أو تلوث يد الممسك بها بالسواء ..!

إن الإيمان لا يموت بالقتل، وأن قطرة واحدة من دم شهيد كافية لاشتعال النار فى الجليد والثلج.

وفى تركيا اليوم نداء جديد يتردد صداه مع كل فجر.

إنه نداء الإيمان الذى انكمش داخل الصدور فترة من الوقت فمدارس القرآن تنتشر وتزداد. ومجالس العلم تعود إلى سابق عهدها فى المساجد، وقد تساءلت جريدة "لوموند" الفرنسية عن هذه الظاهرة الجديدة فى تركيا فقالت :

ترى هل استيقظ الرجل الميت ؟!

نعم قد استيقظ !!! فالشعب الذى حمل لواء الجهاد ستة قرون دفاعا عن الإسلام لا يمكن أن يموت والأمة التى من رجالها رجال كمحمد الفاتح وسليمان القانونى وسعيد النورسى. لا يمكن أن تقهر ..!!!

فى ساحة المحكمة .. ومنظر جثث خمسة عشر مشنوقا تشاهد من وراء قضبان النافذة... وجه رئيس المحكمة – إلى الإمام المجاهد بديع الزمان سعيد النورسى – هذا السؤال :

أنت متهم بالدعوة إلى تطبيق الشريعة . إن من يطالب بها مصيره الشنق كما ترى فى جثث هؤلاء المشنوقين الخمسة عشر !!

وهنا يصرخ – بديع الزمان – فى وجه القاضى قائلا :

لو أن لى ألف روح ما ترددت أن أضحى بها كلها فداء لحقيقة واحدة من حقائق الإسلام.!

اننى أقول لكم هذا وأنا واقف أمام البرزخ الذي تسمونه السجن فى انتظار القطار الذى يحملنى إلى الآخرة .. اننى مستعد لمرافقة هؤلاء الذين علقوا على المشانق؟

لقد كانت الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد.. والآن فإن هذه الحكومة تعادى الحياة..!!!

ألا ... فلعيش الجنون..

وليعش الموت ..

وللظالمين .. فلتعش جهنم ..!!!

الآذان

فى مالطـا

الآذان فى مالطا

ثلاث جزر من جزر البحر الأبيض المتوسط يعرفها كل من عنده المام بشئ من التاريخ أو الجغرافيا.

جزيرة قبرص.

وجزيرة صقلية.

وجزيرة مالطا.

لن أتكلم عن جزيرة "مالطا" التي هي هدفي في هذا الفصل من الكتاب.. فسيأتى الحديث عن هذه الجزيرة بعد الحديث عن جزيرة "قبرص" وجزيرة "صقلية".

لقد زرت هذه الجزر جميعا "مالطا" زرتها أكثر من خمس مرات وفي جزيرة :"قبرص" أقمت خمسة أيام ،أما جزيرة "صقلية" فلم تتجاوز اقامتي فيها أكثر من عشر ساعات. فقد كنت مسافرا أصلا إلي "لندن" علي متن الخطوط الجوية الإيطالية ... من "القاهرة" إلي "روما" أولا ومن "روما" إلي " لندن" ثانيا غير أن قائد الطائرة الايطالية فاجاءنا بهبوط اضطرارى في "بالرمو" عاصمة "صقلية" وبشرنا بجولة سياحية في قلب الجزيرة قبل أن نعود الي الإقلاع مرة ثانية!

أما لماذا كان هذا الهبوط الاضطرارى ... لا أدرى؟

ولكن بالتأكيد كان هناك خلل فنى تعرضت له الطائرة ... فلو كان الهبوط بسبب الوقود ما استغرق ذلك أكثر من ساعة!

ولنبدأ بجزيرة "قبرص"

لم تكن معرفتى بهذه الجزيرة تتجاوز تلك المعلومات الساذجة والبسيطة التى كنت أسمعها من "بقال" القرية حسين كان يعرض بضاعته من " الخروب الأسود" الحلو.! وحتى يغرى المشترين بشراء هذا النوع من "الخروب"كان يؤكد أنه "خروب قبرصى" وأنه استورد خصيصا من جزيرة "قبرص" وأن امرأة من المسلمين اسمها "أم حرام" ستكون هى وزوجها فى الحملة الأولى لفتح هذه الجزيرة كما -أنها- أى "أم حرام" ستموت شهيدة فوق رمال هذه الجزيرة وتدفن هناك مع من استشهد من الرجال الذين قاموا بهذا الفتح!

صورة مثيرة وشيقة لصقت بذاكرتى ومخيلتى عن هذه الجزيرة منذ ذلك العهد ..

تقول كتب التاريخ :

كانت فتوح المسلمين لبلاد الشام جبهة صدام بين الإسلام والروم وكانت "قبرص" إحدي " القواعد" التي ينطلق منها الروم لاجتياح ديار المسلمين.

لهذا كانت "قبرص" أحد الأهداف الرئيسية للخليفة الراشد "عثمان بن عفان" فما كاد ينتهى من بناء اسطول اسلامى حتى أرسل الحملة تلو الحملة لغزو هذه الجزيرة اشترك فيها عدد من كبار الصحابة منهم أبوذر الغفارى ، وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت .

وقد تكللت هذه الحملات بالنصر. بعد أن اختلطت دماء المسلمين برمال هذه الجزيرة ومياه البحر!

وقد بقيت هذه الجزيرة فى أيدى المسلمين قرونا طويلة كانت لهم فيها الكلمة العليا ، كما كانوا – أى المسلمون – يمثلون بين أهلها وسكانها الغالبية العظمى.

بقيت هذه " الجزيرة" كما قلت فى أيدى المسلمين حتى قدم البريطانيون لاحتلالها ، وكانت الدولة العثمانية – التي كانت هذه الجزيرة من ممتلكاتها – قد سقطت كما كان لإعلان المدعو " أتاتورك" سقوط دولة الخلافة . وقطع كل صلة بينه وبين المسلمين فى الشرق. أثر كبير فى طمس هوية هذه الجزيرة المسلمة، وهجرة المسلمين منها إلى تركيا، كما عملت بريطانيا – فى الوقت نفسه – على استجلاب عشرات الألوف من اليونانيين وإحلالهم محل المسلمين الذين هاجر الكثيرون منهم خوفا من انتقام اليونانيين الذين كانوا يطاردون المسلمين فى كل ناحية وهذا هو السر فى بقاء هذه الجزيرة مقسمة ، وفى المشكلات التى لم تجد حلا حتى هذه اللحظة. فبالرغم من أن المسلمين قد اصبحوا فى الجزيرة أقلية. وإن كانت أقلية كبيرة.

فقد تآمرت اليونان . ومعها " الأسقف مكاريوس" .. ومن ورائهما السفاح "جريفاس" قائد منظمة "أيوكا" كل هؤلاء تآمروا على اخراج أى مسلم من الجزيرة... ثم الاتحاد – بعد ذلك– مع اليونان لقطع أى طريق أو محاولة لإنهاء هذه المشكلة.

وقد زرت هذه الجزيرة المقسمة بين دولتين إحداهما تركية في الشمال والأخرى يونانية في الجنوب.. تجولت بين انقاض المساجد والقرى المدمرة ... زرت مقابر الشهداء الذين قتلهم السفاح"جريفا" زعيم منظمة " أيوكا".. مئات من الرجال ،النساء والأطفال كانا ضحاياهذه المذبحة التى أوقفها التدخل التركى قبل خمس وعشرين سنة.

فى "استراليا" حيث كنت أقيم فى مدينة "سيدنى" .. كان بيتي يقع في شارع اسمه آلت ستريت Alt St. كان هذا الشارع متفرعا من شارع رئيسى اسمه "شارع اليزابيث" .. فى الجانب المقابل من الشارع الذى كنت أقيم فيه مع

شارع "اليزابيث" كان يوجد محل "بقالة" أو ميلك بار Milk Bar تعودت شراء حاجياتى منه ، كانت تدير هذا المحل سيدة تعودت رؤيتها صباح كل يوم.

غير أنى فوجئت برجلين يحلان مكانها فى إدارة هذا المحل.. كانت سحنتهما غريبة . وشارباهما يذكرانك بشارب الجنرال السفاح"جريفاس" زعيم منظمة "أيوكا" !الشهيرة ... لقد شعرت بنظرات هذين الرجلين وكأنها سهام موجهة إلى ! وفطنت إلى ما يدور بخلدهما بالنسبة لى. ربما ظنانى تركيا .. فملامح الأتراك لا تختلف كثيرا عن ملامح سكان المحروسة .. أى سكان مصر العزيزة!

وقد عرفت بعد ذلك أنهما قبرصيان .. ومن فئة متطرفة تكره المسلمين والإسلام .. كنت أظن أنهما سيرحبان بى بعد أن عرفا أننى مصرى. فقد كان لمصر فى – الستينات – موقف سياسى من قضية قبرص تجاوزت فيه السياسة إخوة الإيمان والعقيدة! وتناست فيه تاريخ هذه الجزيرة التى كانت مسلمة خالصة.

ولم أنسى حتى هذا اليوم قصة "الأسقف مكاريوس" وزيارته للقاهرة وإنعام القيادة السياسية عليه بأرفع وسام في الدولة . كما لم أنسى زيارته للأزهر واستقبال إمامه الأكبر الموحوم الشيخ "محمود شلتوت" له –أى– للأسقف بحفاوة بالغة!

ولكن عيب المسلمين التاريخى هو السذاجة والغفلة . وإن شئت فقل البلادة تجاه المأسى والمصائب التى تقرع أبوابهم فى كل يوم وفى كل ليلة !!

فى "لفقوشة Luvkosha عاصمة القطاع التركى من الجزيرة جلس "رءوف دنكتاش" الزعيم التركى يحدثنا عن جرائم القبارصة التى ارتكبوها ، وعن رأيه فى حل هذه المشكلة التى صنعوها.. وكان مما يؤلم ويحزن .. أن

الروح الإسلامية فى حديثه كانت غائبة! وأنه تقمص شخصية "أتاتورك" وهو يتكلم؟!

ولن أنسى حتى هذا اليوم تلك المحاولة التى عرضها الأزهر لاختيار بعض الطلاب للدراسة فى جامعته العريقة. لقد قامت قيامة العلمانيين فى "لفقوشه" وانقرة ! إذ كيف يسمح للطلبة المسلمين القبارصة بالدراسة فى الأزهر وكيف يوافقون على تعليمهم فى القاهرة. بدلا من التعليم فى "استنبول" أو "اسبارطة" !!!

أما عن صقلية ..

فقد بدأ فتح العرب لجزيرة صقليةفي صيف عام ٢١٢هـ بقيادة القاضى الشهير أسد بن الفرات، وسرعان ما استولى العرب على معظم الجزيرة من أيدى الروم البيزنطيين واتخذوا بلرم Palermo عاصمة لهم وقد ظلت جزيرة صقلية تحت السيادة العربية أكثر من قرنين ونصف القرن.

ومما يذكر أن سكان صقلية – بعد الفتح العربى – تحسنت أحوالهم وأصبحت خيرا من أحوال اخوانهم فى جنوب إيطاليا، ولم يفرض عليهم كذميين سوي دفع الجزية. وقد ازداد عدد المسلمين فى الجزيرة بعد الفتح نتيجة لتدفق المستوطنين من أفريقية وكذلك نتيجة لاعتناق الكثيرين من سكان الجزيرة الدين الإسلامى. ولما زار الجزيرة الرحالة المشرقى ابن حوقل فى منتصف القرن الرابع الهجرى – العاشر الميلادى – أى بعد قرن ونصف القرن من بدء الفتح – ذكر بأن "بلرم" وحدها كانت تضم نيفا وثلاثمائة مسجد!!

وقد زار الرحالة ابن جبير هذه الجزيرة وبعد أن أمضى تسعة أيام فى مسيِّنة ، وتوجه بحرا قاصدا العاصمة "بلرم "التى يقول : إن المسلمين يعرفونها بالمدينة أو بمدينة صقلية، بينما يعرفها النصارى باسم "بلارمة" فمر بمدينة

شفلودى Efalu على ساحل صقلية الشمالى ، ولاحظ أن المدينة تسكنها طائفة من المسلمين ، ثم مر ببلد ثرمة Termini " وللمسلمين فيها ربض كبير لهم فيه المساجد" . ومن "ثرمة" توجه ورفاقه برا إلى "بلرم".

أقام ابن جبير فى العاصمة "بلرم" اسبوعا وترك لنا وصفا حيا شيقا لأحوال المسلمين فيها .

"وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان ، ويعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكانهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها ، ولهم بها قاضى يرتفعون إليه فى أحكامهم، وجامع يجتمعون للصلاة فيه ... أما المساجد فكثيرة لا تحصى ، وأكثرها محاضن لمعلمى القرآن. وبالجملة فهم غرباء عن اخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ، ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ولا أبنائهم"[1].

ونتيجة للضغوط التى كان يتعرض لها المسلمون فى صقلية ، فإن روابط الأسر قد تفككت ، ولم يعد للأب سلطة علي أبنائه ، وعن ذلك يحدثنا ابن جبير فيقول :

" ومن أعظم ما منى به أهل هذه الجزيرة أن الرجل ربما غضب علي ابنه أو على زوجته أو تغضب المرأة على ابنتها فتلحق المغضوب عليه أنفه تؤديه إلى التطارح فى الكنيسة فيتنصر ويتعمد ، فلا يجد الأب للابن سبيلا ، ولا الأم للبنت سبيلا ، فتخيل حال من يمنى بمثل هذا فى أهله وولده[2].

---

(١) صقلية الإسلامية – د. أمين الطيبى ص ٣٤ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق ص٣٦.

وبالرغم من المحن والمصائب التى حلت بالمسلمين فى هذه الجزيرة فقد قاموا بثورات عديدة دفاعا عن الدين والعقيدة . ويذكر لنا المؤرخون قصة فتاة مسلمة استطاعت أن توقع بثلاثمائة مقاتل من أعداء المسلمين في هذه الجزيرة بحيلة بارعة!

يقول ابن عبد المنعم الحميرى تحت مادة[1] (انطالة) :

انطالة حصن عظيم ومعقل منيع من حصون جزيرة صقلية ، فيه تحصن محمدبن عباد القائم بأمر المسلمين في جزيرة صقلية . فلما كانت سنة ست عشروستمائة (١٢١٩ -١٢٢٥م) عقد الصلح مع "الانبرور" طاغية جزيرة صقلية وغيرها ، على أن يدخل تحت طاعته ويأخذ جميع أمواله وذخائره ويجهزه في قطائع إلى ساحل أفريقية ولا يقتله. وأبت ابنته أن تدخل فى هذا الصلح ، وامتنعت فى هذه القلعة وقالت لأبيها :

أنا فداك ، فإن لقيت خيرا اتبعتك ، وإن كان غير ذلك فلابد أن أنكى أعداءك وآخذ بثأرك على قدر الاستطاعة.

غير أن الأب لم يستجب لنصيحة ابنته، وصدق وعود الطاغية الذى أمر بقتله.

وحمدت ابنته رأيها، ثم أرسلت فى سنة تسع عشرة وستمائة هـ إلى الانبرور.

إنى امرأة، وقد بليت بمحارية الرجال ومداراتهم، وقد ضقت ذرعا بالأولياء منهم والأعداء، وضعفت نفسى ، ومعى من صناديد الأبطال من لا ينقاد لمرادى، فارحنى وأرح نفسك وأهل مملكتك من هذا النصب الدائم، بأن توجه لى ثلثمائة

(١) المصدر السابق ص ١٧٤.

من أبطالك الذين لا يهابون ولا ينخدعون لأدخلهم ليلا إلى هذا الحصن ،. ويحتوون عليه ، فإذا ملكوه دخلت أنا بعد ذلك فى طاعتك.

وكان " الانبرور[1]" قد طالبت إقامته وإقامة جموعه على حصارها ، فرأي ذلك غنيمة لا يجب أن يؤخر انتهاز الفرصة فيها ، فاختار ذلك العدد وأرضاهم وأنفذهم فى الليل ، ففتحت لهم باب قلعتها وفرقتهم علي إبطاله بحيل تمت عليهم.

فلما ولى الظلام وتبينت الوجوه، " ركب الأنبرور" إلى جهة الحصن يطلع إلى إعلامه كيف هى على سوره ، فإذا رؤوس ابطاله معلقة ما بين شرفاته ، وأعلام المسلمين منشورة وطبولهم عاملة وكلمتهم عالية ، فسقط فى يده الفرنج إلى ما لم يكن فى حسابهم ، ولا خطر لهم أنه يتم فى المنام بالأحلام .

قال : فأراد الأنبرور أن يبلغ فى هذه القضية غرضه بحيلة تتوجه عليها ، فأرسل إليها:

أنت قد عشت ، ولا أبالى من مات من أهل ملتى ، وقد ظهر لى أن ما في الدنيا إمرأة تصلح أن يكون لى منها ولد غيرك ، فتعالى حتي نتم ذلك ، فأنت إن بقيت على ما أنت عليه وحصلت فى أيدى الفرنج، قطعوك عضوا ، فاختارى لنفسك ما ترينه مصلحة، فأجابت:

وصلنى كتابك ، وفهمت حقه وباطله ، وأبلغنى بعض عيونى الذين لم أزل أبثهم عليك أنك قلت :

إن هذا عجب ، امرأة تمكر بثلثمائة رجل ، وليس هذا بعجب ، وقد أنزل فى الكتاب المنزل على نبينا محمد ﷺ فى ذكر النساء" (إن كيدهن عظيم)[2] .

---

(١) كان هذا اسم حاكم الجزيرة.

(٢) سورة يوسف الآية ٢٨ .

فهذامن ذلك ، وإنما العجب منى ومنك إذ أنا مقيمة فى نشأة من الأرض ولا ناصر ، ولك الجيوش التى تغص بها الأرض ، والخزائن ،. والأموال ، والخواص أصحاب الآراء ، وقد أثر فيك توقفك، وشغلتك عن مهمات أمورك ، وقدرت عليك أكثر مما قدرت على ، وأنكيت فيك أشد من نكايتك فى ، وها أنا أقطع عليك السلاسل فى الحيل، فتكفى حيلتك فى أبى ثم حيلتى فى أبطالك ، ومن الآن فاينس أن أحصل لك فى يد وفى جسدى روح ، وأنا مقاتلتك ومكايدتك حتى تفنى ذخائرى التى بهذا الحصن ويعجز أهل حمايتى ، فإذا انتهيت إلى هذا الحد ، فعلت ما سيبلغك قال :

فيئس الأنبرور منها وقال : ما لهذه إلاَّ المطاولة . فبني حصنا في مرابطة حصنها ، وصار جنده يترددون علي ذلك الحصن ، كلما كلت طائفة استجد غيرها إلى أن بلغت الحد الذى وعدت به ،فسمت نفسها[1].!!!

وها نحن نتجول فى شوارع "بالرمو" (Palermo) لقد تذكرت "آل كابونى" مؤسس عصابات المافيا فى أمريكا ، "فآل كابونى " أصلا من جزيرة صقلية وقد هاجروا منها إلى الولايات المتحدة وفى "شيكاغو" وفى "تكساس" اقاموا أول مؤسسة إجرامية لممارسة التهريب والقتل والدعارة ، لقد خشيت أن أقع فى أيدى اتباع هذه العصابة التى لا تزال تمارس نشاطها فى الوطن الأم.. فقانون هذه العصابة لا يفرق بين برئ .. ومذنب.. وكانت أخر جرائمهم قتل رئيس المحكمة العليا علنا . وعلى مرأى ومسمع من رجال الشرطة والأمن!

لم أفهم .. أو أسمع من كلمات المرشدة السياحية كلمة واحدة ... كنت بخيالى وعقلى شاردا ابحث عن أثار المسلمين فى هذه الجزيرة ... فالشوارع

---

(١) ابن عبد المنعم الحميرى ، محمد : الروض العطار فى خبر الأقطار ،. تحقيق إحسان عباس -بيروت ١٩٧٥ م - ص ٤٠-٤١.

ضيقة شأنها شأن الشوارع فى القاهرة القديمة . وملامح الماضى تتراء أمام عينى كما آراها فى حى الحسين أو حى السيدة!

بل كانت ملامح "المرشدة السياحية " ملامح شرقية بحتة وقد هممت أن أسألها عن شجرة العائلة فلربما يكون من بين أبائها وأجدادها جد مسلم أو جدة مسلمة!

لم يكن خيالا .. هذا الذى كنت أفكرفيه فبصمات المسلمين والعرب لا تزال حية وباقية .. فى العادات والتقاليد واللغة! فى الآثار التى ينطبق لسان حالها بالألم والحنين إلى أيامها الماضية .

قلت يوما لدار قوم تفانوا — أين سكانك العزاز علينـا

فأجابت .. هنا قد أقامـوا — ثم ساروا ولست أعلم أينا؟!!

وها ... نحن فى طريقنا إلى "مالطا" (MALTA) لقد ذكرت في مقدمة هذا الفصل أننى زرت "مالطا" أكثر من خمس مرات.

لم تكن معرفتى بهذه الجزيرة تتجاوز دائرة المثل الشائع الذى يقول: -أنت "بتدن" - أى تؤذن - فى مالطا .. كان هذا المثل يضرب كدليل على الإخفاق والفشل فى عمل لا يجنى منه صاحبه فائدة، وكان هذا المثل صحيحا وصادقا حتى أواخر القرن الماضى .. فما قيمة الأذان فى بلد ليس فيه مسلم واحد ، .. بلد ليس فيه إمام ولا مسجد ! ومما زاد فى كراهيتى لجزيرة مالطا أنها البلد الذى نفى إليه سعد زغلول قائد ثورة ١٩١٩!

وعندما التحقت بالأزهر فى بداية الأربعينات من القرن الماضى سمعت ولأول مرة من مدرس التاريخ قصة احتلال بريطانيا لمصر المحروسة ، ! وأن السبب المباشر .. وبعبارة أدق السبب الظاهر لضرب مدينة الإسكندرية ، ثم

الزحف منها بعد ذلك إلى القاهرة كان السبب المباشر أو الظاهر لهذه المذبحة التى وقعت فى مدينة الإسكندرية كما يقول المؤرخون لهذه المذبحة . أن مشاجرة وقعت بين أحد "المالطيين " من رعايا بريطانيا ، وبين أحد المصريين . وكان هذا "المالطى" قد استأجر حمارا من الرجل المصرى وظل يتجول به فى مدينة الاسكندرية يوما كاملا. بينما كان صاحبه – أى صاحب الحمار – يسير وراءه مرهقا.. وفى نهاية اليوم قدم المالطى إلى صاحب الحمار قرشا واحدا.. فاحتج صاحب الحمار. . لأن ما قدمه المالطى لا يساوى ثمن التبن والفول الذى يقدم غذاء كل يوم إلى هذا الحمار ...!

فسبه المالطى وشتمه . فاشتبكا معا .. فما كان من "المالطى" إلا أن طعن صاحب الحمار بسكين .. فقتله ..! ثم فر هاربا إلى بيت رجل انجليزى واحتمى فيه.

وما كاد الخبر يشيع حتى تجمع المصريون للانتقام من قاتل أخيهم. وهنا وقف الأرمن واليونانيون والمالطيون صفا واحدا وبدأوا فى إطلاق النار على جميع المصريين الذين قتل منهم عدد كبير فى هذه المذبحة.!

* * *

لقد ترك هذا المثل. وهذه القصة فى نفسى شعورا عميقا بالكراهية والنفور من مالطا. ومما زاد فى هذا النفور وهذه الكراهية. أننى عرفت . وبعد زمن طويل . أن هذه الجزيرة أي "مالطا" كانت فى يوم من الأيام "قلعة" لفرنسان القديس"JOHN" أو "يوحنا" هذا القديس. الذى جمع حوله فئة من البغاة وقطاع الطرق والقراصنة. وشكل منهم جيشا لقطع الطريق والإغارة على سفن المسلمين فى البحر. أو للوثوب من أرض هذه الجزيرة على ديار المسلمين فى

شمال أفريقيا أو فى مصر ، لقد تحولت "الجزيرة" إلى وكر كبير للصليبية، وظلت -وإلى عهد قريب- قاعدة للعدوان البريطانى على المسلمين فى أسيا أو فى أفريقيا ، وحتى هذا اليوم وبالرغم من خروج هذه الجزيرة من "موقعة" الصليبية، وبعد استقلالها عن بريطانيا وانسحاب اسطولها أى أسطول بريطانيا من هذه الجزيرة فلا تزال بقايا تاريخ هذه الحقبة ظاهرة وواضحة... فى كثرة الكنائس، فى العلم المالطى الأحمر الذى يتوسطه صليب أبيض ناصع فى أسماء المطاعم والشوارع ، وفى أسماء الموانئ والمتاجر وفى قاعات النزل والفنادق.

تبلغ مساحة مالطة ثلاثمائة وستة عشر كيلو مترا مربعا ، وتتكون من جزيرة مالطة وعدد من الجزر الصغيرة أبرزها جزيرة (جوزو) Gozo" وجزيرة كومينو Comino وفيلفولا Filfola وهي عبارة عن قمم جبلية بارزة .. وتنتشر المرتفعات وسط جزيرة مالطة وتحيط بها سهول غربية وشرقية ، حيث يعيش معظم سكانها ، وعاصمة مالطة هى مدينة "فالتا" وينتمى مناخ مالطة إلى مناخ البحر المتوسط، وسكانها يزيدون قليلا على ثلاثمائة الف نسمة..

كانت مالطة من توابع الدول البيرنطية قبل وصول الإسلام إلى الجزيرة واتّخذ البيزنطيون من مالطة قاعدة لشن هجماتهم على البلاد الإسلامية فى شمال افريقيا لا سيما على تونس وليبيا، فمالطة لا تبعد عن الساحل التونسى أكثر من مائتين وتسعين كيلو مترا ، وكان العرب يصدون هجمات الروم ويتعقبونهم أحيانا إلى قواعدهم فى مالطة.

ثم تمكنوا من فتحها فى سنة مائتين وخمسين هجرية ، وهكذا بدأت السيطرة الإسلامية على مالطة فى منتصف القرن الثالث[1] الهجرى ، ثم حكمتها الدولة الفاطمية حتى سنة اربعمائة وثلاث وثمانين هجرية ، فاستمر

(١) الكتانى (المسلمون فى أوروبا وأمريكا) ، ج١ ص. ١٦١

الحكم الفاطمى لمالطة مائة وستا وثمانين سنة، انتشر الإسلام خلالها بين سكان الجزيرة .. وهاجرت إليها عناصر عربية ، واستخدمت اللغة العربية بين سكانها وتركت أثارها فى اللغة المالطية، وانتشرت المساجد فى أنحائها، وارتبط تاريخ الإسلام بها بتاريخ الإسلام فى جارتها صقلية، لهذا عندما قامت الحروب الصليبية فى الشرق نال صقلية ومالطة الكثير من التحدى ، وقاسى المسلمون بالجزيرتين من صنوف الاضطهاد والتعسف، فهاجر عشرات الآلاف من المسلمين بمالطة ، خضعت الجزيرة لحكم النورمانديين فى نهاية القرن الخامس الهجرى ، ثم استولى على مالطة فرسان القديس يوحنا وأخرجهم الأتراك منها فى سنة تسعمائة وتسع وخمسين هجرية ، وبقيت تابعة للدولة العثمانية مدة طويلة ، وعاد نفوذ الإسلام مرة ثانية لمالطة ، ثم استولى البريطانيون عليها فى سنة ١٢٣٠هـ - ١٨١٤م، وظلوا يحكمونها حتى استقلت فى سنة الف وثلاثمائة وأربع وثمانين هجرية.

* * *

وقد زار " (العلامة أحمد فارس الشدياق) جزيرة مالطا فى طريق عودته من أوروبا إلى " الأستانة"...

وفى كتابه المسمى "كشف المخبأ عن فنون أوروبا، كتب فصلا عن زيارته إلى جزيرة مالطة ... تحت عنوان (الواسطة فى معرفة أحوال مالطة) ، وقد تفضل الأخ الأستاذ "محمد القطيسى" إمام المسجد ومدير المركز الإسلامى فى مالطا، باهدائى صورة من هذا الكتاب الذى يقول فيه كاتبه عن جزيرة مالطا.

ومن المبانى العظيمة فى هذه الجزيرة الكنائس وهى حسنة البناء متقنة مزخرفة بالنقوش والدمى والتماثيل والصور مزينة بالأرجوان والاستبرق وأدوات

الفضة والذهب وفيها عشرون كنيسة على هذا النسق وأعظمها كنيسة صان جوان وهى مبلطة كلها بالرخام المنقش المصور عليه صور أعيان مالطة الأقدمين المدفونين فيها وفى صدر الكنيسة تمثالان للمسيح ولصان وهما من الحجر يراهما الداخل من الباب أكبر من الرجل، وبخارج الكنيسة ساعة يعلم منها الساعات والأيام والشهور والسنون .

وإذا ضرب جرسها سمع صوته كل من فى المدينة فيضبطون ساعاتهم عليها وفى هذه الكنائس من الذهب والفضة والتحف ما يغنى جميع صعاليك مالطة ولكل يوم من الأسبوع بدلة للقسيس خصوصية وقس على ذلك أيام الأحاد والأعياد والأحوال الطارئة كالزواج والمعمودية والموت.

وفى الحقيقة فإن كثرة الكنائس الحسنة فى جزيرة مالطة على نحسها لما يعجب منه وفى كل قرية ترى ثلاث كنائس فأكثر وأول افتخار المالطيين إنما هو بكثرة كنائسهم إذ ليس عندهم شئ آخر يتباهى به والتفاخر بصفة قائمة فى النفوس وإذا سرت إلى قرية ما متنزها فلا تكاد تصل الا وتحدق بك جماعة ليروك كنائسهم ولا يعرفون ضرب الأجراس بالحبال كما يفعل الانكليز وإنما يصّدعون إلى قبة الجرس ويحركون مطرقته باليد بما تنقبض منه النفس ويشمئز الطبع.

وفى وصفه لمدينة " فاليتا" Valletta" عاصمة مالطا يقول العلامة " أحمد فارس الشدياق":

هذه المدينة هى مقر الحاكم الإنجليزى، وأعجب ما فيها حصانة أسوارها، وأحسن ما يستحب من ديارها كونها مبنية من الحجر غير أنها ليست عالية فى الارتفاع كما أنها ليست مرتبة فى وضع الحجرات والمساكن.

وحيطانها ملبسة بالورق المنقوش كما فى بلاد أوروبا. وقل أن ترى فيها دارا مبلطة بالرخام حتى أن قصر الحاكم ليس فيه ولا بلاطة منه!

وكذلك قل أن ترى فى الديار (أى البيوت) التى تكرى " أى تستأجر" خزائن أو مخادع أو رفوف وإنما يلزم شراء ذلك على حدته وليس فيها ولا فى غيرها فوارات ولا ساحات فسيحة كديار دمشق ولا اسطبلات ، ومن كان عنده فرس ربطه فى الخارج .

ومما يقبح ذكره هنا أن أكثر البيوت الصغيرةليس فيها مراحيض فيرفع أهلها اقذارهم فى وعاء ويقذفون بها في الطرق ليلا فيأتى الكناسون للطرق صباحا ويزيلونها وقد كانت العادة من قبل أن المحبوسين هم الذين ينظفون الطرق بأن يخرج بهم شرطى وهم مقيدون والظاهر أن المالطيين قبل مجئ الإنكليز إلى جزيرتهم لم يكن عندهم مراحيض وإنما كانوا يستغنون عنها بثقوب ينقبونها فى أسفل الدار وكانوا غير محتاجين إليها أصلا كما قال الشاعر:

من يكن عيشه كعيشك هذا فلتكن داره بغير كنيف!!



على باب كنيسة " القديس يوحنا" كانت هناك لوحة معلقة تقول هذه اللوحة:

فى مساء اليوم السبت سيقام قداس خاص كما سيقام قداس صباح الأحد غدا وهناك قداس ثالث سيقام فى مساء اليوم أيضا...

المفاجأة لم تكن فى القداس ... بل كانت المفاجأة أن الكلمات التي قرأتها الآن باللغة العربية . كانت هى الكلمات نفسها المكتوبة على باب الكنيسة... أى باللغة العربية ولكن بحروف لاتينية!

وهذا يؤكد أن اللغة العربية كانت فيما مضى هى لغة الكتابة ،. وأنها لا تزال وحتى يومنا هذا مفهومة ومنطوقة فى جزيرة مالطا.

وإذا كنا اليوم فى عصر تلعب فيه " المعلومات" و " الإحصائيات" دورا خطيرا فى علوم السياسة والاقتصاد.

فإن العلامة "أحمد فارس الشدياق" لم تفته هذه الفرصة وقدم لنا إحصائية طريفة عن أحوال سكان مالطا ، والمهن التى يعملون فيها .. فيقول:

وفى فالته عدة فنادق للمسافرين بهية ذات حجرات مفروشة عتيدة أجرة كل منها فى اليوم نصف شلن فى الأقل ، وفيها من الذكور أكثر من اثنى عشر الفا وخمسمائة نفس ومن الإناث أكثر من أحد عشر ألفا وثمانمائة وسبعين جملة ذلك أربعة وعشرين الفا وثلاثمائة وسبعون نفسا ومن القناصل أربعة عشر ومن القسيسين نحو مائتين وخمسين وسبعة أديار للرهبان والراهبات .

وجملة ما فى الجزيرة كلها من الكنائس الكبار سبع وسبعون ومن الصغار مائتان وأربع وأربعون ومن الأديار واحد وعشرون ومن الأطباء مائة وتسعة وعشرون ومن الدوائية والعقاقيرية تسعة وأربعون ومن كتاب الصكوك والعقود مائة وأربعون ومن أصحاب الموسيقى مائة وثلاثة وستون ومن المسلمين فى المكاتب مائة واثنان وأربعون ومن المصورين مائة وثلاثة وتسعون ومن المتوظفين فى خدمة الميرى خمسمائة وواحد وثلاثون ، ومن التجار ستمائة وستة وثلاثون ومن السماسرة مائة واثنان وسبعون. ومن أصحاب الحوانيت ألفان وستمائة وأربعون ومن المزارعين ثلاثة آلاف وثلاثمائة وستة وعشرون ومن الفلاحين ثمانية آلاف وسبعمائة وستون ومن صاغة الفضة والذهب مائتان واثنان وثلاثون ومن النجارين الف ومائتان وثلاثة وثمانون ومن الأساكفة ألفان وأربعمائة ومن الغزالين والغزالات ثمانمائة وأربعون ومن النساجين والنساجات ثلاثة عشر ألفا

وستون ومن الخياطين تسعمائة واثنان وثمانون، ومن لفافى ورق التبغ تسعمائة وثلاثون ومن الخدام ثلاثة آلاف ومائة وعشرون ومن اصحاب القوارب ستمائة واثنان وأربعون، ومن الساعاتية ستة وعشرون ومن المتعلمين فى المدرسة الجامعة وفى غيرها ثلاثة آلاف وثمانمائة وثلاثة وثلاثون، ومن الديار الكبار إحدى وعشرون ألفا ومائتان واثنتان وستون، ومن البيوت الصغار ألفان ومائتان وواحد وسبعون ومن الحجرات على حدتها ثمانية آلاف وثلاث وأربعون ومن الدكاكين ثلاثة آلاف وخمسمائة وعشرين ومن المخازن خمسمائة وستون ومن الشون للقمح خاصة مائة وسبع وعشرون ومن الذين لا عمل لهم من الأعيان ستة آلاف ومائتان وتسعة وستون ومن العامة نحو أربعين ألفا وجملة من يزيد عمرهم على الثمانين سنة سبعمائة وثلاثة وسبعون وجملة ما يولد فيها فى السنة أربعة الاف واربعمائة وجملة أهل الجزيرة نحو مائة الف نفس منهم أحد عشر الفا وخمسون من الإنكليز وسبعمائة وسبعون من الغرباء.

فإذا كان عدد سكان " فاليتا" عاصمة مالطا في أواخر القرن التاسع عشر قليلا كما كتب ذلك " أحمد فارس أفندى[1] " كان عدد الكنائس فيها أكثر من ثلاثمائة كنيسة. فذلك كله يؤكد ما قاله رحالة أوروبى . أن مالطا عبارة عن كنيسة ضخمة ترقد فوق سطح البحر ، ومن هنا جاء المثل الشائع هنا على ألسنة الناس فى مصر !!

ومن العجيب أننى أكتشفت أن هذا المثل كان شائعا أيضا فى فلسطين ولبنان وسوريا . مما يؤكد وحدة المشاعر بين شعوب العرب والمسلمين فى ذلك العهد ، وأن هذا المثل انتشر فى كل هذه البلدان بسبب ما كانت تمثله "مالطا" من كراهية للعرب والمسلمين فى ذلك الوقت .

---

(١) هكذا كتب المؤلف اسمه على غلاف الكتاب .

فكيف تغيرت الصورة وكيف أصبح هذا المثل اسطورة؟

لقد أدرك : (العقيد القذافى) الأهمية الاستراتيجية لجزيرة مالطا فاستطاع بمبادراته السياسية والاقتصادية أن يجعل منها حليفا مخلصا لليبيا . كما استطاع بكرمه وسخائه أن يكسب ود سكان هذه الجزيرة حكومة وشعبا، فالبترول يصل إلى مالطا من ليبيا بسعر مخفض. والمشروعات الاقتصادية المشتركة بين البلدين اصبحت تمثل جانبا مهما وحيويا فى اقتصاد مالطا. وقد أصبحت "مالطا" بالنسبة للأخوة الليبيين نقطة عبور إلى مختلف أنحاء الدنيا...!!

فى "فاليتا" وفى "جوزو" Gozo [1] وفى "كومينو" Comino " وفى الشوارع وفى الفنادق ، وفى المطار تلتقى بالأخوة الليبيين فى كل هذه الأماكن كأنك تسير فى شوارع طرابلس أو طبرق أو بنى غازى!

* * *

وفى شارع "كورادينو" Corradino" أول ما يلفت نظرك فى هذا الشارع مسجد كبير شامخ يلعلع من فوق منارته الأذان فى سماء " فاليتا" "Valletta"..!!!

لقد أصبح المستحيل حقيقة وواقعا ، وتبددت اسطورة المثل القديم هباء...!

وقد ألحق بهذا المسجد مركز اسلامى، وفى يوم كل جمعة يتجه المسلمون لأداء شعائر الصلاة فى تجمع إيمانى ربانى !

وقد أخبرنى الأخ محمد الفطيسى شيخ المسجد ومدير المركز أن عدد المسلمين فى مالطا تجاوز الثلاثة الاف وأن فى برلمان مالطا عضو مسلم. ولهذا العضو المسلم قصة يجب أن تروى.

---

(١) إحدى الجزر المالطية .

يقول الأخ محمد : عندما طلب من العضو المسلم فى برلمان مالطا أن يحلف اليمين الدستورية رفض أن يحلف على الكتاب المقدس عند النصارى ، وقال إنى مسلم ! ولا أحلف إلا على المصحف.

لقد تحير رئيس المجلس .. وجلس صامتا يفكر .. فالذى حدث من العضو المسلم ليست له سابقة فى تاريخ مالطا فلأول مرة يرفض عضو منتخب أداء القسم . ولأول مرة يفرض "المصحف" وجوده فى داخل المجلس..!!

ورفع الأمر إلى النائب العام لإيجاد حل لهذه المشكلة والخروج من هذا المأزق.

لقد تذكر النائب العام أن عضوا مسلما في مجلس العموم البريطانى رفض الحلف بالكتاب المقدس وأصر على الحلف بالمصحف .. فوافق مجلس العموم البريطانى على طلب النائب المسلم.

فكتب النائب العام إلى رئيس المجلس يخبره بهذه الواقعة وقال فى خطابه إلى رئيس المجلس :

لو لم يكن هذا النائب مخلصا وأمينا وصادقا لحلف على الكتاب المقدس بدلا من الحلف " بالمصحف"!!!

* * *

وقبل أن نغادر "مالطا" فى طريقنا إلى القاهرة بدأت الإجراءات الخاصة بتشكيل " بعثة الحج" .. الحج إلى مكة لا. إلى روما .! فقد أصر المسلمون فى مالطا على الخروج والسفر فى "بعثة " خاصة ! وفى ملابس الإحرام الناصعة الفضفاضة. وفى موكب إيمانى تهزج فيه السماء والأرض بدعاء الحج والعمرة..!!

فإذا قدر لك السفر إلى مالطا وفوجئت بالتلبية والتكبير يتردد صداهما فى شوارع " فاليتا" .!

فلا تندهش ولا تتعجب .. فإن "مالطا" أيام زمان غير مالطا التى تراها الآن.

لقد تغيرت الصورة وانتهت الأسطورة وأصبح الإسلام فى مالطا واقعا .. وحقيقة ...!!





في ألمانيا
بلد
الحاج محمد هتلر ..!

ألمانيا .. ألمانيا ....

فى الثلاثينات من القرن الماضى لم تكن معرفتى بهذا البلد تزيد على السبعة أحرف التى يتكون منها هذا الاسم فقط ..! وماذا تنتظر من غلام صغير يعيش فى قرية نائية لا صلة لها بالعالم .... قرية كان " الحمار " فيها هو الوسيلة الوحيدة للترحال والسفر ، ولم يكن هذا الترحال أو السفر يتجاوز حدود المركز أو البندر...!

لم يكن هناك أية وسيلة للمواصلات كما لم يكن هناك راديو نسمع منه الأخبار... والتليفون الوحيد الذى كان يربط القرية بغيرها من القرى، كان "تليفون" الحكومة. كما كان تليفونا خاصا بتعليمات الأمن والنظام فى الدولة.

فى نهاية عام ١٩٣٩م كانت الحرب العالمية الثانية قد بدأت وكانت انتصارات ألمانيا فى بداية هذه الحرب تملأ قلوبنا بالفرح. فألمانيا تقف فى هذه الحرب ضد بريطانيا . فإذا كان المثل يقول " عدو عدوك صديقك" فقد رأينا فى ألمانيا الصديق الذى سوف يخلصنا من بريطانيا..!

كان فى قريتنا رجل اسمه الشيخ" موسى خطاب" كانت هوايته السياسة وقراءة الصحف ، كما كان "وفديا" ملتزما بالوفد وزعيمه مصطفى النحاس.!

فى مساء كل يوم .. وبعد أن يعود الفلاحون من الغيطان كانوا يتحلقون حول الشيخ "موسى" الذى تصور نفسه جنرالا فى ميدان هذه الحرب فيرسم بعصاه خريطة على الأرض. ويضع طوبة هنا وطوبة هناك على هذه الخريطة . ليبين لهم مواقع المدن التى سقطت فى أيدى الألمان . ثم تأخذه نشوة الانتصار والفرح فيبشر الفلاحين بقرب سقوط" لندن" بعد أن استسلمت فرنسا وأصبحت فى خبر كان..!!

وفى إحدى هذه الأمسيات فجر الشيخ" موسى ؛ قنبلة اهتزت لها أرجاء القرية ، فقد أعلن إلى الفلاحين المتحلقين حوله أن الزعيم الألمانى هتلر قد أسلم، وأنه اختار لنفسه اسما اسلاميا هو الحاج محمد! بدلا من " أودلف هتلر"..!!

وقد أطلقت شائعة الحاج "محمد هتلر" فى الوقت الذى كانت فيه المظاهرت تجتاح شوارع القاهرة وهى تهتف :

- تقدم يا روميل!!

كنت واحدا من الألوف التى كانت تهتف لثعلب الصحراء. وفى ميدان العتبة وقبل أن تتجه يسارا إلى ميدان عابدين فوجئنا بمجموعة من الجنود البريطانيين الذين كانوا يرابطون فى حديقة الأزبكية ،. فانهالت الحجارة عليهم من كل جهة ،

وتقدم طالب من أبناء الصعايدة الذين كانوا يدرسون فى الأزهر يحمل قضيبا من حديد التسليح الذين كان معدا لبناء خندق فى هذه المنطقة واتجه نحو جندى يضع على رأسه "كابا"[1] أحمر ليقتله . فما كان من الجندى إلا أن صرخ فى وجهه قائلا:

- أنا مسلم . أنا مسلم ..!!

فتراجع الطالب عن قتله ، وسأل اخوانه إن كان هذا الجندى مسلما حقا أم أنه قال ذلك لينجو بنفسه ؟!

وقد علم بعد ذلك أن هذا الجندى كان مسلما فعلا ... وأنه من جنوب أفريقيا لا .. من بريطانيا ..

---

(١) قبعة حمراء خاصة بأفراد الشرطة العسكرية.

كان هناك فى الإذاعة الألمانية التى تبث برامجها باللغة العربية من برلين مذيع عراقى اسمه "يونس بحرى[1]" استطاع اقناع "جوبلز" وزير الدعاية الألمانية – فى هذا الوقت بإطلاق هذه الشائعة التى تضمن لألمانيا ولاء العرب والمسلمين ووقوفهم وراء المانيا فى هذه الحرب وعندما بدأت الهزائم تلحق بالألمانيا بعد معركة "العلمين" الشهيرة لم يستسلم الشيخ" موسى" ولم ييأس بل أعلن أن المانيالم تستخدم اسلحتها السرية حتى هذا اليوم . وإن هناك مخزنا اسمه مخزن(١٣) ممتلئ بأخطر أنواع هذه الأسلحة وحين يفتح هذا المخزن ، وتطلق الأسلحة السرية الموجودة فيه فسوف يتغير مجرى الحرب وتختفى بريطانيا وحلفاؤها من فوق سطح الأرض..!!!

لقد بدأت الحرب وانتهت بخسارة ألمانيا كما يعرف الجميع ، لم أكن حتى هذا الوقت قابلت ألمانيا واحدا حتى جاء عام ١٩٤٩م– فى هذا العام ... اعتقلت ومعى كثيرون وألقى بنا فى معتقل اسمه "هايكستب".. كان هذا المعتقل – فى الأصل – معسكرا أمريكيا أثناء الحرب لقد فوجئت فى هذا المعتقل بوجود أناس لا صلة بين بعضهم البعض. كان فى هذا المعتقل شيوعيون وعلى رأسهم "هنرى كوربيل" ، كما كان هناك إخوان مسلمون وعلى رأسهم معظم قيادات الإخوان ، كما كان هناك وفديون من شباب الطليعة الوفدى . كما كان هناك يهود صهاينة أجانب ومصريون.

كان من بين الأجانب فى هذا المعتقل رجل ألمانى اسمه "ميللر" طول فارع .. وقامة شامخة.

لقد تعجبت من وجوده فى المعتقل ... ومع اليهود بالذات ... ولكنى تعجبى

---

(١) فى مدينة الإسكندرية ، كان الناس يصيحون عندما تنطلق صفارات الإنذار معلنة عن غارة جوية كانوا يصيحون ويقولون : اضرب يا حاج محمد هتلر – اضرب.

لم يدم طويلا .. فقد اكتشفت أنه شيوعى قح .. كما أن أمه يهودية من القدس ! لم أكن استرح إليه ... فقد كان متعجرفا وفظا.. بالرغم من مهارته فى إصلاح أى شئ وفى أى وقت من النهار أو الليل!

وكان هذا أول لقاء لى مع رجل ألمانى الجنس..

وجاء اللقاء الثانى بعد خمسة عشر عاما من هذا التاريخ كنت قد تخرجت وبدأت حياتى العملية متنقلا بين وزارة المعارف فى بورسعيد، وبين وزارة الأوقاف فى مدينة القاهرة . ثم نقلت بعد ذلك إلى الأزهر سكرتيرا فنيا فى مكتب الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت ... .

لقد انفتحت أمامى كل النوافذ على العالم .. فقد كان للمرحوم الشيخ محمود شلتوت مكانة رفيعة عند المسلمين وغير المسلمين .. ولم يكن مكتبه يخلو من الزوار من كل أنحاء العالم... زوار من كل جنس ومن كل دين .

وفى أحد الأيام لفت نظرى شاب أجنبى جاء يقدم شكوى إلى شيخ الأزهر. كان اسم هذا الشاب "أمين كلاوس فاتر" كان ألمانيا .. كما كان مسلما ..! كان فارع الطول قوى البنية يتكلم العربية الفصحى ويزن الكلمة قبل أن ينطق بها.!

كان من واجبى فى مكتب شيخ الأزهر الاهتمام بشئون مثل هؤلاء الأغراب وتقديم المشورة إليهم.

لقد سألته عن المشكلة التى جاء يشكو منها . فقال:

لقد حضرت من ألمانيا لدراسة الإسلام واللغة العربية فى الأزهر ، وأقيم حاليا فى مدينة البعوث .. غير أن ما يقع فى هذه المدينة لا يمت بصلة لا إلى الإسلام ... ولا ... إلى الأزهر!

فالحجرات قذرة تسبح فوق جدرانها الهوام ! والأكل ردئ يعافه الحيوان ، وفوق هذا كله لا توجد رعاية روحية ولا رعاية تربوية للنزلاء أو الطلاب!!!!

ثم قال : لقد ذهبت إلى وزير الأوقاف وشئون الأزهر وقدمت إليه شكوى عن هذا الإهمال والفوضى .. أتدرى ماذا قال لى وزير الأوقاف وشئون الأزهر .. لقد قال :

كان من الأفضل أن تحضر إلى بدون شكوى ... ولسوف أهيئ لك حجرة خاصة تجد فيها كل ما يلزم من وسائل الراحة حجرة نظيفة لا يشاركك فيها أحد من الطلبة!!!

فرد عليه " أمين كلاوس" قائلا:

أنا إنما جئت من أجل هؤلاء النزلاءوالطلاب الذين تريد أن تبعدنى عنهم! فإذا لم يجد هؤلاء الطلاب أو النزلاء من يرعاهم ويهتم بهم فسيتركون الأزهر على الفور وسيرحب بهم آخرون لا يحبون الإسلام ولا يحبون الأزهر ولا يحبون مصر.!!!

سألته : فى كم سنة تعلمت اللغة العربية ؟

فأجاب : فى ستة أشهر اتقنت اللغة العربية قراءة وكتابة!!!

وقد عرفت أنه من مدينة "همبورج" وأن والده يملك مصنعا للبيرة فى هذه المدينة وأن له شقيقة واحدة تساعد والدها فى إدارة هذا المصنع وقد ترك هذا كله وأسلم. بعد أن أخبر والده أنه يستحيل البقاء معه بعد أن أسلم لأن الإسلام يحرم عليه تناول أى طعام فيه شبهة كسب من خمر أو ميسر!!! وكان هذا أول لقاء لى مع ألمانى مسلم .

نعود مرة أخرى إلى قصة الأخ "أمين كلاوس"

لم أترك (أمين) يذهب إلى مدينة البعوث .. دعوته لتناول الغداء معى فى مطعم الدهان الشهير بحى الحسين ومنذ ذلك اليوم وهو يعيش معى فى اليقظة والنوم! لقد تآخينا وتحابينا وخشيت أن يقع معه ما وقع مع " محمود فينتورا" البرتغالى وزوجته "ياسمين" وابنته " زهرة الورد"!

فقبل أن التقى بالأخ " امين كلاوس" كان قد حضر إلى القاهرة الأخ "فنتورا" وأسرته بعد أن أسلم .. كان ضابطا بحريا كبيرا ... كما كان يحمل شهادة دولية فى قيادة السفن.. وقد ترك " محمود فنتورا" كل هذا بعد أن أسلم، وحضر بأسرته إلى القاهرة ليعيش فى محاضن الإيمان ومن هنا بدأت مأساة هذه الأسرة مع الأيام والزمان.

لقد انفق كل ما يملك . وضاق به الحال حتى سكن فى حجرة حقيرة فى شارع "كلوت بك" الذى كان معروفا بحى الدعارة ! لم يكن " محمود" يعرف شيئا عن تاريخ هذا الشارع .. كما كانت حالته لا تسمح حتى بالتفكير فى نفسه أحى هو أم ميت! وهل يمكن للجائع أن يفكر!

لقد تحول إلى حطام! وفى غمار هذه المحنة تقدم إليه رجل من التجار فى هذا الشارع وطلب منه التوجه معه إلى الكنيسة ! فهناك سيجد العون الذى فقده.. وسيعيش وأسرته فى بحبوحة من العيش تعوضه وتنسيه كل ما فاته!

لقد صرخ "محمودفنتورا" غاضبا فى وجه هذا الرجل .. ثم قال له قبل أن يخرج من حجرته :

- لقد تركت عملى فى "لشبونه" .. كما تركت عملى فى البحرية ، وفارقت أهلى وأحبابى لأعيش مسلما بين المسلمين فى مدينة القاهرة.

لقد اخترت طريقى إلى الله مهماتحملت من مصائب، ولن يتخلى عنى الله مادام يعلم أننى مؤمن صادق!

ولم يتخل عنه الله فعلا .. فقد رويت قصته للمرحوم اللواء عاطف سعد الأمين المساعد للمؤتمر الإسلامى فى هذا الوقت. فتكفل بإعاشته فى فندق بحى الحسين . واتفق مع مطعم مجاور لتقديم الوجبات الثلاث له وأسرته كل يوم...

فجأة هبت عاصفة رعدية فوق سماء القاهرة ... كانت عاصفة قادمة من الشمال الغربى ... أى من جنوب أوروبا... لم ينم الناس فى تلك الليلة .. لقد صاحب هذه العاصفة طوفان من المطر ... وتحولت الشوارع فى القاهرة المحروسة إلى مستنقعات وبرك...!

ونظر " محمود فنتورا" إلى الشوارع التى خلت من السابلة فانقبض صدره .. ثم عاد إلى الحجرة ليرى زوجته "ياسمين" وابنته " زهرة الورد" يبكيان فى مرارة .. فزاد انقباضه! .. ثم جلس صامتا يفكر فجأة.. دخل عليه "عامل الفندق يحمل رسالة وصلته مع ساعى البريد قبل أن تهب العاصفة وينزل المطر!

فتح "فنتورا" الرسالة .. لم تصدق عيناه ما كتب ... فأبوه الجنرال السابق فى الجيش البرتغالى يطلب منه العودة فورا إلى أرض الوطن ... وفى أقل من أربع وعشرين ساعة على ظهر مركب يصل إلى الإسكندرية صبيحة الغد.!

ورحل قبل أن اقابله.. لم تكن هناك فرصة للقائه قبل أن يرحل وأمام موظف الاستقبال فى الفندق .. قدم إلى هذا الموظف ورقة كانت هذه الورقة رسالة من "فنتورا" .. لا... بل لم تكن رسالة بل كانت صرخة ألم مكبوب فى قلب مسلم ضاع أمله فى الحياة بين اخواته ... المسلمين فى مدينة القاهرة..!

وتذكرت أيام زمان حين كان المسلم يأتى من أقاصى الأرض .. فيجد فى بلاد الإسلام الأخوة والأمن ويعيش عزيزا مكرما فى التكايا أو الخانقات أو فى "النزل" والمدارس التى كان ينفق عليها من ريع الأوقاف. لقد مضى هذا الزمان الذى كانت فيه الكلاب تنعم بالعيش الرغد ، وكان فيه للقطط والكلاب "وقف خاص" ينفق منه على القط أو الكلب!!!

وفى قريتنا وحتى منتصف الأربعينات كان فى "دوار العمدة محمد شلبى" حجرة مفتوحة نهارا وليلا لأى عابر سبيل . لم يكن يسأل من أين جاء؟ ولا متى يرحل ؟ كانت الأخوة الإسلامية والعاطفة الدينية هى الأصل وكان الناس يتسابقون فى هذا الزمان لعمل المعروف والخير

ثم انقضت تلك السنوات وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام!!!

بعد عشرة أعوام من هذا اللقاء مع "أمين كلاوس" سافرت إلى الخليج للعمل ... وفى إمارة "دبى" التقيت بأخ ألمانى مسلم اسمه " نور الدين ولهلم"!

كان مسلما شديد التحمس للإسلام. كما كان يعتقد أن ألمانيا كلها ستعتنقه يوما ما. لأن العقلية الألمانية ترفض الأساطير وترى فى العقيدة المسيحية كما يصورها رجال الدين خرافة بعيدة عن التصديق .. لا يمكن أن يكون الإله واحدا فى ثلاثة أشخاص كلهم الهيون كما لا يمكن تصور أن يقتل الله فداء لعباده المذنبين ! فالعقلية الألمانية تزن كل شئ بميزان العقل ، وتتشوق إلى معرفة الحقيقة وإلى كل ما هو صحيح وحق.

ثم قال

كانت أول معرفتى بالإسلام فى "بودابست" عاصمة المجر، كنت موفدا فى مهمة دراسية لمدة ثلاثة أشهر وفى قسم الدراسات الشرقية بجامعة

"بودابست " التقيت بالبورفسور" عبد الكريم جرمانوس" فإذا بى التقى بإنسان لم يصادفنى مثله من قبل .. شخصية آسرة . وعقلية منظمة. وبشاشة وجه يتألق بنور الإيمان والحق. لقد فوجئت بأنه مسلم ... فسألته كيف. ولماذا أسلم؟

كانت قصة إسلامه عجيبة . وفى منزله القريب من إدارة الجامعة جلس يحدثنى فى أبوة حانية.

يقول الدكتور " عبد الكريم جرمانوس"(١) :

كان ذلك فى عصر يوم مطير وكنت ما أزال فى سن المراهقة ، عندما كنت أقلب صحائف مجلة مصورة قديمة ، تختلط فيها الأحداث الجارية مع قصص الخيال، مع وصف لبعض البلاد النائية، بقيت بعض الوقت أقلب الصحائف فى غير اكتراث إلى أن وقعت عينى فجأة على صورة لوحة خشبية محفورة استرعت انتباهى ، كانت الصورة لبيوت ذات سقوف مستوية تتخللها هنا وهناك قباب مستديرة برفق إلى السماء المظلمة التى شق الهلال ظلمتها وعلى أحد هذه السقوف صور لرجال يجلسون فى صفوف غير منتظمة مرتدين ملابس غريبة الطراز.

ملكت الصورة على خيالى ، إذ كانت فى طابعها تختلف عما تعودنا رؤيته من المناظر فى أوروبا . كان منظرا من الشرق ، فى مكان ما بالشرق العربى ، يمثل رجلا يقص حكايات خلابة على جمهور من المستمعين يتدثرون بالبرانس. كانت الصورة ناطقة حتى تخيلت أننى أستمع إلى صوت الرجل يسلينا بحديثه، وأننى فى زمرة المنصتين إليه من العرب على سطح البناء ، وأنا الطالب الذى لم

---

(١) لقد اخترنا لترجمة هذه القصة .. الترجمة الكاملة لقصة البروفسور "عبد الكريم" وذلك نقلا عن كتاب " لماذا اخترنا الإسلام"Islam Our Choice"

يتجاوز السادسة عشر من عمره الجالس على كرسى وثير فى الحجر . ثم أحسست بشوق غلاب لا يقاوم إلى معرفة ذلك النور الذى كان يغالب الظلام فى اللوحة.

بدأت أدرس اللغة التركية وسرعان ما لاح لى أن اللغة التركية المكتوبة لا تحتوى إلا على قدر قليل من الكلمات التركية، وأن الشعر التركى يزخر بالكلمات الفارسية وأن النثر يزخر بالأصول العربية فحاولت أن أتمكن من هذه اللغات الثلاث حتى استطيع خوض هذا العالم الروحى الذى نشر هذا الضوء الباهر على أرجاء البشرية.

وفى أجازة صيف كان من حظى أن أسافر إلى البوسنة وهى أقرب بلد شرقى إلى بلادنا وما كدت أنزل أحد الفنادق حتى سارعت إلى الخروج لمشاهدة المسلمين فى واقع حياتهم وكانت لغتهم التركية لا تزال غامضة لى. إذ بدأت معرفتها من خلال الكتابة العربية المعقدة فى كتب النحو.

كان الوقت ليلا ، فنزلت إلى الشوارع وكانت خافتة الاضاءة ، وسرعان ما وصلت إلى مقهى متواضع يجلس فيه رجلان من أهل البلاد على كرسيين قليلى الارتفاع ويتناولان "الكيف"(١) يرتديان السراويل التقليدية الواسعة ، يمسك بها فى الوسـط حزام عريض مدجـج بالخنجر ، فكان مظهرهما بما عليهما من لباس غريب ، عليه مسحة من الغلظة والشراسة فدخلت المقهى "قهواخان" Kahwekhane" بقلب مرتجف وجلست منزويا فى ركن ناء عنهما فى هلع ووجل.

نظر إلى الرجلان نظرة عجيبة متطلعة ، وعندئذ قفزت إلى مخيلتى جميع قصص سفك الدماء التى قرأتها عن تعصب المسلمين فى الكتب المتحيزة غير

(١) أى يدخنون السجائر.

المنصفة، كانا يتهامسان فيما بينهما وكان موضوع همسهم ولا شك هو حضورى غير المتوقع. وفى أوهام الأطفال أدركنى الهلع، أنهما ولا شك سيوجهان طعنات خنجريهما إلى صدر هذا الكافر الوافد عليهما وتمنيت لو أننى استطعت الخروج والخلاص من هذا المأزق الرهيب ، غير أن قواى خانتنى فلم استطع الحراك..!

وبعد ثوان قليلة أحضر لى الخادم كأسا من القهوة يفوح أريجها وأشار إلى الرجلين الرهيبين ، فرنوت إليهما بوجه خائف، فألقيا على السلام فى رفق مع ابتسامه مودة رقيقة وفى تردد ، اصطنعت على شفتى" المرتجفتين ابتسامه باردة ، فقام هذا العدوان ، كما كنت اتخيلهما وحضرا إلى منضدتى وساورنى شعور عجيب ! ترى هل يريدان طردى وإخراجى؟ ولكنهما ألقيا إلى السلام للمرة الثانية وجلسا إلى جوارى ، قدم لى أحدهما لفافة تبغ وفى ضوئها الخافت الراقص لمحت ان وراء هذا المظهر الخارجى الرهيب أرواحا طيبة كريمة ، فجمعت أطراف شجاعتى وخاطبتهما فى لغة تركية ركيكة ، ومع ذلك فقد كان حديثى مثل العصا السحرية ، فإذا بى أرى فى محياهما عواطف الصداقة والمودة ، وإذا بى أتلقى منهما دعوة لى إلى منزليهما يدل ما توقعته منهما من عداء، وإذا بهما يفيضان على مشاعر العطف ، فيما كنت أحسبهما سينهالان على بأسنان الخناجر.!

كان هذا هو أول لقاء لى مع المسلمين.

ثم مرت بى سنوات فى حياة حافلة بالأسفار والدراسات وكنت مع مرور الزمن تتفتح عيونى على آفاق عجيبة وجديدة.

لقد زرت كل بلاد أوروبا ، ودرست فى جامعة القسطنطينية واستمتعت بمشاهدة روائع الآثار فى آسيا الصغرى وسوريا ، وتعلمت اللغات التركية

والفارسية والعربية و شغلت منصب أستاذ كرسى الدراسات الإسلامية فى جامعة بودابست ، وقرأت الأبحاث الجافة الدفنية التى ألفت خلال قرون طويلة فى آلاف الصفحات من كتب العلماء ، قرأت كل ذلك بعين فاحصة ومع ذلك ورغم كل ذلك فقد ظلت روحى ظمأى.

لقد وجدت فى الكتب المختلفة شعاعا هاديا إلى بعض مراحل العلم ولكنى كنت مع ذلك تواقا إلى النعيم المقيم فى ظل الحياة الدينية، كان عقلى متخوما، أما روحى فقد بقيت ظمأى ، وكان على أن أتجرد من كثير مما جمعت من المعلومات لأعود فأومن بها من خلال تجاربى الشخصية ، خالصة من الشوائب بصهرها فى نار الشوق إلى معرفة الحق، كما يعالج الحديد الخام المنصهر بالتبريد المفاجئ فيصبح صلبا مرنا.

وفى ذات ليلة رأيت كأن محمدا رسول الله ﷺ بلحيته الطويلة المخضبة بالحناء وملابسه البسيطة الأنيقة يفوح منها أريج طيب ، تلمع عيناه ببريق قوى مؤثر ، وخاطبنى فى صوت عطوف: "لماذا الحيرة ، إن الطريق المستقيم أمامك ، مأمون ممهد مثل سطح الأرض سر عليه بخطى ثابتة وبقوة الإيمان".

قلت باللغة العربية فى هذا الحلم العجيب : " يا رسول الله إن هذا الأمر سهل عليك، وأنت الغالب ، وقهرت كل الأعداء ، عندما بدأت سبيلك بتوجيه ربانى كتب الله لك فيها النصر ، أما أنا فما زال أمامى طريق شاقة ومن يدرى متى أجد طمأنينتى؟

فنظر إلى فى صرامة وحزم ، وظل لحظة يفكر ، ثم عاد يقول فى لغة عربية واضحة ترن كل كلمة منه رنين الأجراس الفضية وكأنى بلسانه الشريف الذى استوعب تعاليم ربه ، يضغط على صدرى حتى خلت صدرى يتهشم:

﴿ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ، وخلقناكم ازواجا ، وجعلنا نومكم سباتا﴾[1]

قلت فى حشرجة ود أجهدنى الألم : " إنى لا استطيع النوم ، وليس فى قدرتنى أن أجلو هذه الغوامض التى تخفيها الأستار الكثيفة ، أغثنى يا محمد ، أغثنى يا رسول الله "...

وانطلق من حلقى صريخ منقطع، كأنما كنت أختنق من ثقل هذا الكابوس، وكنت أخشى غضب رسول الله ﷺ ، ثم شعرت كأنما أهوى من عل إلى أعماق الأعماق، وفجأة استيقظت من هذه الرؤيا ، أتصبب عرقا، يكاد الدم يجمد فى عروقى وما منى عضو إلا يتنزى الما، ثم أحاط بى صمت مثل سكون القبور ، وشعرت بالأسى ، والوحدة.

وفى يوم الجمعة التالى ، وقع الحدث العظيم فى مسجد الجمعة الكبير فى دلهى، رجل غريب، شاحب الوجه، خط الشيب شعره، يشق فى طريقه مع رجال بارحهم الشباب، بين الجموع المؤمنة التى يزخر بها المسجد.

كنت ارتدى الثياب الهندية وعلى رأسى قلنسوة رامبور[2] ، وعلى صدرى الأوسمة التركية التى أهداها إلى السلاطين السابقون ، نظر إلى المسلمون فى دهشة وذهول ، أخذ جمعنا الصغير طريقه فى اتجاه المنبر حيث جلس العلماء وذوو المكانة من الشيوخ فتلقونى بالسلام فى صوت مرتفع رقيق.

جلست قريبا من المنبر اتطلع إلى الزخارف الرائعة التى تزين صدر المسجد وإلى دعائمه الوسطى ، وقدبنى النحل البرى فوقها مساكنه يحوم حولها فى أمان ، ثم نودى بالآذان فجأة ، وقد وقف المكبرون فى مواضع مختلفة من

(١) سورة النبأ ، أية ٥.

(٢) اسم مدينة فى الهند.

صحن المسجد حتى يبلغوا الصوت إلى أبعد أركانه، فقام المصلون، وهم يقاربون أربعة آلاف وكأنهم الجند المجندة، يستجيبون للدعوة الربانية وقد اصطفوا صفوفا متقاربة، وصلوا فى خشوع عميق، وكنت واحدا من هؤلاء الخاشعين لقد كانت تلك اللحظة عظيمة ومجيدة حقا.

وبعد الخطبة أخذ عبد الحى بيدى ليتجه إلى المنبر ، وكان على أن أسير فى حذر حتى لا أزعج أحدا من الجالسين.

لقد أن وقت الحدث العظيم ، فوقفت عند درجات المنبر وسرت حركة بين الجموع الزاخرة ، بينما بدت لى آلاف الرؤوس المعممة وكأنها حديقة مزهرة ، إنهم جميعا يهمهمون وهم ينظرون إلى ، وقفت وقد أحاط بى العلماء بلحاهم الشهباء ينظرون إلى مشجعين ، فأشاعوا فى نفسى ثباتا عجيبا لم أعهده من قبل.

وفى غير وجل أو تردد ارتقيت المنبر حتى درجته السابعة واتجهت ببصرى إلى الجموع التى خيل إلى أنها لا آخر لها وكأنما هى بحر يموج بالحياة ، وقد أشرأبت الأعناق نحوى ، وساحة المسجد كلها حركة ، سمعت من قريب أصواتا تردد" (ما شاء الله) ورأيت نظرات يشيع فيها الحب والمودة ، فشرعت أقول:

"أيها السادة الكرام" متحدثا باللغة العربية " (لقد حضرت من بلاد بعيدة، بحثا عن العلم الذى لم استطع أن أجده فى بلادى، أتيت لأنهل مما تتوق إليه روحى ، فاستجبتم لى". ثم تحدثت عن الدور الذى قام به الإسلام فى تاريخ العالم، وعن المعجزات التى أيد الله بها رسوله ﷺ، وتكلمت عن انحلال المسلمين فى العهد الحاضر ، وعن الوسائل التى يمكن أن يستعيدوا بها مجدهم المفقود، وأن من المسلمين من يقول إن كل شئ موقوف على إرادة الله ، بينما يقول الله فى القرآن الكريم ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾.

وركزت حديثى على هذه الفقرة من أيات كتاب الله ثم عرجت على تمجيد الحياة النقية الطاهرة بكل مشاعرى ، وأفقت على هتاف يتردد فى صوت مرتفع من كل زوايا المسجد" الله اكبر".

كان التأثر والحماس يعمان المكان ولا أستطيع أن أتذكر ماذا كان فى ذلك الحين ، غير أن "اسلم"[1] نادانى من فوق المنبر وشد على يدى وقادنى إلى خارج المسجد.

قلت له : " لماذا هذه العجلة"؟

وقف الناس أمامى يتلقونى بالأحضان ، كم من مسكين مجهد نظر إلى فى ضراعة ، يسألنى "الدعوات" ويريد تقبيل رأسى فابتهلت إلى الله أن لا يدع هذه النفوس البريئة تنظر إلى ، وكأنى أرفع منها قدرا فما أنا إلا حشرة بين حشرات الأرض ، أو تائه جاد فى البحث عن النور ، لا حول لى ولا قوة ، مثل غيرى من المخلوقات التعيسة.

لقد خجلت أمام أنات وآمال هؤلاء الناس الطيبين ، وأحسست كأننى قد خدعتهم أو سلبتهم شيئا..

ألا ما أثقل الحمل الملقى على عاتقى رجل الدولة والسلطان ، يضع لاناس فيه شقتهم ، ويطلبون منه العون ، ويعتقدون أنه يستطيع مالا يستطيعون.

أخرجنى "أسلم" من أحضان اخوتى الجدد وأجلسنى فى "تونجا"[2]- وذهب بى إلى المنزل. وفى اليوم التالى وما يليه كان الناس يفدون على فى جماعات لتهنئتى ونالنى من محبتهم وعواطفهم ما يكفينى زادا مدى حياتى..!!!

---

(١) اسم مسلم هندى.

(٢) تونجا   مركبة خفيفة ذات عجلتين تستعمل فى الهند، وهى المعروفة باسم الركشا

يقول الأخ (نور الدين) ولهم :

ما كاد "البروفسور عبد الكريم" ينتهى من سرد قصته حتى رأيتنى انسانا آخر يكاد يطير من شدة الفرح.. وشعرت بزلزال يهز كيانى من الداخل فقد ملك الإسلامْ عقلى ومشاعرى منذ هذه اللحظة.. لم أعلن ذلك إلى "البروفسور عبد الكريم" فقد انتظرت أياما أفكر .

لم يطل تفكيرى كثيرا ... فبعد أسبوع رجعت إلى (بريمن)[1].. وأمام والدتى ووالدى أعلنت أننى مسلم ..!!!

لكن متى بدأ الألمان يتعرفون على الإسلام؟

يذهب بعض المؤرخين إلى أنه فى مطلع القرن الثامن عشر الميلادى قامت علاقات دبلوماسية وسياسية بين الدولة البروسية والدولة العثمانية فى عهد السلطان محمد الثانى (١٧٣٠م- ١٧٤٥م) استعان خلالها البرسيون بالفرسان المسلمين لتدريبهم على الفروسية ، حتى بلغ عدد الفرسان فى الجيش البروسى (ألف فارس) مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادى.

وكان نشر الدعوة الإسلامية مهمة من المهمات التى قام بها الفرسان المسلمون فى ألمانيا..

وتذكر بعض المصادر التاريخية أيضا : أن المسلمين الأتراك المقيمين فى بروسيا قد أنشئوا أماكن للصلاة كان أولها عام ١٧٣١م.

ويؤكد أحد المسلمين الألمان (عبد الوهاب واجنر) أنه فى عام ١٧٣٢م أمر القيصر الألمانى (فردريك فل هلم) ببناء مسجد فى مدينة (برلين) للجنود المسلمين الذين كانوا ينضوون تحت لوائه ، وبعد ذلك بقليل أنشئت مقبرة خاصة

(١) اسم إحدى المدن الألمانية.

بهم وهؤلاء لم يكونوا ألمانى الجنسية بل كانوا يدعون (الأتراك) أو التتار على حد تعبيره.

ويقول أيضا : أن وجود المسجد لا يفهم منه أنه حب فى الإسلام: ولكنه حب الملك أو القيصر فى التسامح حيث يقول:

لكل واحد الحق فى أن يعيش حسب معتقده ، وكانت تلك الظاهرة هى الوحيدة فى أوروبا.

فقد كان رجال الدين الكاثوليك ، والبروتستانت يفرضون على اتباعهم عدم مخالطة الجنود المسلمين ، مما يعنى أن الترحيب بهم فقط من أجل المساعدة فى الحرب..

ويؤكد أن كثيرا من هؤلاء الجنود المسلمين فضلوا البقاء والعيش فى ألمانيا بعد انقضاء مدة خدمتهم فى جيش القيصر ، وتزوجوا ألمانيات وأسسوا عائلات مسلمة ، وكانت بروسيا فى حينها ترحب بزيادة عدد سكانها لكثرة الحروب التى تخوضها فى مختلف أنحاء العالم.

كما يؤكد أن القيصر الألمانى (كارل تيودور) قيصر ولاية (بادن) بنى مسجدا فى مدينة "شويتشجن" بالقرب من مدينة "هايدل برج" وأحاطه بحديقة كبيرة واختار له الطراز المعمارى الإسلامى..!!

ويقول (عبد الوهاب واجنر) :

ولا ندرى بالضبط حقيقة الدوافع وراء ذلك المسجد..

أما أول اسم توثق المصادر التاريخية اعتناقه للإسلام فهو اسم ألمانى (جوستاف أدولف فون فريدى) عام ١٨٣٥م ، والذى ظهر فيما بعد فى مواقع عديدة فى خدمة الجيش العثمانى فى استنبول وشمال افريقيا.

ثم برز بعد ذلك اسم الألماني المتخصص في الدراسات الأفريقية ، الدكتور (ادوارد سبنسر) الذي اعتنق الإسلام عام ١٨٧٥م، وأصبح اسمه (محمد أمين باشا) حاكم المقاطعة الاستوائية المصرية عام ١٨٧٨م.

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية بدأت أعداد ضخمة من المسلمين السوفييت بالنزوح إلى أوروبا بعد هزيمة ألمانيا في الحرب ، وذلك لأن المسلمين في الجمهورية السوفيتية خلف (الجدار الحديدي) داخل الاتحاد السوفيتي كانوا قد ساعدوا الألمان ، واشتركوا معهم في مواجهة السلطات الشيوعية المتسلطة على رقابهم ، يحدهم الأمل في انتصار الألمان لنيل حريتهم من جديد. لكن عندما سقطت المانيا في الحرب ، كانت تلك الهجرة الواسعة التي شهدها الاتحاد السوفيتي في الأربعينات من هذا القرن إلى أوربا ، سواء بدافع الفرار من الاضطهاد ، أو بدافع السعي وراء لقمة العيش، أو طلب العلم، وكان لألمانيا نصيب لا بأس به من هؤلاء.

واستنادا إلى آراء كثير من المؤرخين فإن غالبية المسلمين في المانيا يعودون في أصولهم إلى الهجرات العمالية الأولى ، من تركيا ، ثم المغرب وتونس، وبعض الأقطار العربية الأخرى، إلى جانب القادمين من الهند وباكستان وغيرها .. وقد اعتمدت المانيا عليهم جميعا بعد الحرب العالمية الثانية في تحقيق نهضتها الصناعية والاقتصادية.

وقد نشرت مجلة (دير شبيجل) .. في عددها الصادر في ١٩٩٢/٣/٢٠م مقالا تحت عنوان :(الألمان الذين يعتنقون الإسلام في ازدياد):

في المساجد السبعمائة في ألمانيا يصلي حوالي مائة ألف من حاملي الجنسية الألمانية متجهين إلى القبلة في مكة في كل صلاة ، ويتزايد عدد الألمان الداخلين في الإسلام..

مثلا فى (سوزت) فى مقاطعة (فستفالن) اعتنق ثمانون شخصا الإسلام فى العام الماضى وحده .. ، .. واليوم بلغ عددهم مائة وخمسين مسلما .

ويلتقى المسلمون فى البيوت والزوايا وغيرها لتلاوة القرآن ، وفى حمامات خاصة تلتقى المسلمات الألمانيات لتجنب المايوه البكينى- الذى يأبين أن يلبسنه - ويسبحن وحدهن فى مسابح خاصة بهن فى لباس سباحة محتشم ، وذلك كما هو معروف فى (شتوتجارت) ، حيث تلتقى المسلمات كل جمعة عصرا للسباحة تحت إشراف المسلمة الألمانية معلمة الرياضة "دوريس جرابر" (عمرها أربعون عاما).

هناك ألمانيات أخريات يتعرفن إلى دين النبى محمد وذلك عن طريق الزواج من مسلمين ويبلغ عدد هؤلاء حوالى ٣٠٠٠٠ (ثلاثين الفا).

اعتنق الإسلام اقتناعا مباشرا حوالى ثمانية آلاف ألمانى وألمانية وبعضهم جذبته إلى الإسلام سماحته ، ورسالته ...

وكانت وحدانية الله الدافع المباشر لإسلام كثيرين فضلا عن وضوح الإسلام والأخوة التى يشعر بها المسلم الألمانى خالصة لوجه الله..

تقول المستشرقة الألمانية (أنا مارى شميل) التى أثار منحها جائزة الدولة الألمانية فى الفنون والآداب ضجة بسبب دفاعها عن الإسلام:

(إنه من المحزن اليوم حقا أن لا يميز كثيرون فى الغرب بين الإسلام وبين ما يلصق به زورا وبهتانا)..

مَنْ منّ المسيحيين يعرف يقينا أن الإسلام رفع المسيح وأمه إلى أعلى الدرجات...؟

من يعرف ما قاله " جوته" شاعر ألمانيا وفيلسوفها العظيم من أنه إذا كان الإسلام معناه الخشوع والقنوت ...

فنحن على الإسلام نحيا ونموت..!

فى صباح يوم الاثنين الموافق ٢٣ مارس ١٩٩٢م أثارت الصحف الألمانية عاصفة ضد السفير الألمانى فى المغرب ، والذى اعتنق الإسلام عام ١٩٨٠م وكانت العناوين التى صدرت بها الصحف كما يأتى:

(دبلوماسى ألمانى يروج للقرآن)

و (سفير المانى) يصرح :

" يجوز ضرب الزوجات " ..!!!

كان السبب فى اندلاع هذه العاصفة هو إذاعة القناة الأولى للتلفزيون الألمانى لحديث مع (مراد هوفمان) والذى كان يدعى من قبل " فيلفريد".

تكلم فيه السفير عن كتابه (الإسلام كبديل) الذى كان على وشك النزول للأسواق.

وبعد اذاعة البرنامج وبالتحديد يوم الأحد ٢٢ مارس ١٩٩٢م شنت نائبة رئيس الحزب الاشتراكى الديمقراطى - (هرتا دوبلرجملين) - حملة ضده على صفحات جريدة:" بيلد أم زونتاج" وهى جريدة رخيصة معروفة بالصور العارية وطالبت وزير الخارجية الألمانى "جينشر" بالاطلاع على هذا الكتاب ، وصرحت بأنه لم يعد مقبولا أن يمثل مثل هذا الرجل ألمانيا.

وقالت السيدة ان هذا الكتاب ليس إلا مرافعة يشيب لها الولدان ضد العالم الغربى ، الذى يدفع لهذا السفير ٢٠٠٠٠ (عشرين الف) مارك شهريا ..!!

وأخذت الجريدة تسب السفير وزوجته التركية المسلمة ، وقالت : إن زوجته كانت تعمل عارضة أزياء (مانيكان) وأنها شاركت فى فيلم - جيمس بوند- (قبلات حب فى موسكو) ، وصفته بأنه صديق الأئمة وأنه أصولى..

وقد أدت هذه الزوبعة إلى حملة فى دوائر وزارة الخارجية الألمانية وشارك التليفزيون الألمانى فى هذه الحملة فأرسل إحدى مذيعاته لمقابلة السفير - الذى تجرأ واعتنق الإسلام - وكان مما أثار حفيظة هذه المذيعة وغضبها أن شاهدت السفيروهو ساجد يؤدى الصلاة فكتمت صرخة مكتومة فى قلبها بينما أخذت تحدث نفسها: هل من المعقول أن ألمانيا فى طريقها كى تصبح دولة مسلمة ؟!!

لقد أسلم السفير "هوفمان" قبل ثلاثة عشر سنة فأصبح منذ ذلك الوقت مسلما واتخذ لنفسه اسما عربيا إلى جانب الاسم الألمانى هو (مراد) ولقد ذكر فى كتابه المنشور عام ١٩٨٥م بالألمانية (يوميات مسلم).

كيف أسلم ، ولم يهتم أحد بإسلامه ، ولا حتى حين صرح بذلك أمام زملائه أيام كان مدير مكتب استعلامات جلف الأطلنطى حيث أكد لهم أن الحل الوحيد للخروج من الهاوية التى تردى الغرب فيها هو الإسلام.

يقول " مراد هوفمان" فى مقدمة (يومياته)(١):

" (لعله من الأيسر على المرء أن يوضح ما لا تكونه هذه (اليوميات) على أن يشرح ما تكونه.

فمن المؤكد أنها ليست تسجيلا لاعترافات نفسية ، درامية لشخص حديث الإيمان ، كما أنها ليست محاولة لتمحيص ما لا يمكن تحليله:

---

(١) كتب هذه المقدمة فى مدينة "بروكس" عام ١٩٨٦م
- انظر كتاب (يوميات المانى مسلم) ص ١٧.

كما أن هذه اليوميات، ليست رصدا زمنيا لسيرة ذاتية حتى فى تلك اللحظات التى تعكس فيها بصدق أحداثا محددة ، مثلما حدث فى مكة والمدينة.

إن هذا الكتاب أقرب ما يكون إلى تصوير مراحل محددة لتلك العملية العقلية المفضية إلى اعتناق الإسلام ، والتى غذاها عدد محدود من التجارب المهمة.

إن الدبلوماسيين كثيرا ما يضبطون على ما ينهلون تلقائيا من ثقافات أجنبية ولو بطريقة عرضية. بيد أن الوصول الفعلى إلى لب ثقافة أجنبية يتطلب ما هو أكثر من ذلك من الناحيتين الوجدانية والثقافية ، وما ينطوى عليه ذلك من مغامرة تستهدف بلوغ الأساس الحقيقى للحضارة – أى الدين.

ولا مناص من أن يرى حديث عهد بالإسلام ، بلاده على (ضوء جديد) يحتم عليه أن يجرى حوارا مع نفسه ، وهو فى الحقيقة موضوع هذا الكتاب[1].

ويقول "مراد هوفمان" عن السبب فى تحويله إلى الإسلام :

" إن فكرة إمكانية شراء الغفران [2]، فى مقابل التضحية برجل أو امرأة أو حيوان ، تبدو موغلة فى القدم ومغرقة فى الوثنية .

وهى على وجه القطع مفهوم سابق على الاعتراف بالله (الرحمن الرحيم)، وعندما برر الدوجماطيون[3] من المسيحيين صلب المسيح (كتضحية ضرورية من خلال الموت) فإنهم كانوا يحاجون بنفس منطق العقيدة الوثنية عن التضحية.

---

(١) يوميات ألمانى مسلم – ص١٦..

(٢) يوميان ألمانى مسلم – ص٦٩.

(٣) المتعصبون.

ويقولون : إنه كان على الرب"!" أن يضحى بنفسه من أجل أن يكون قادرا على العفو"!" واسمحوا لى بأن أتساءل:

من ذا الذى يمكنه أن يلزم الرب بأن يخضع لهذه الضرورة ، وأن يفرض على نفسه هذا الشرط؟ - ألا يشكل هذا النمط من التفكير تجديفا صارخا؟

إن الصورة التى قدمها القرآن لنا عن الله " عز وجل" - على نسق المفهوم المسيحى - فى سورة الفاتحة وآية الكرسى (سورة البقرة : ٢٥٥) ، تختلف كثيرا عن تصويره على شاكلة البشر ، وتسمو بكثير عن المفهوم المسيحى الدارج عن الله ، إن أهم ما يلاحظ فى القرآن أنه لا يعترف بوجود وساطة فى العلاقة بين الفرد وربه ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ (سورة البقرة - الآية ٢٥٥).

فلا يجوز لأحد أن يتدخل فى هذه العلاقة سواء أكان خليفة أم إماما أم قديسا على نحو المفهوم المسيحى للطرف الثالث "الوسيط".

وبعبارة أخرى فإنه منذ القرن السابع الميلادى تحرر المؤمن المسلم من ممارسة طقوس القربان وأصبح على علاقة وجود دائم ومباشر مع الله..

وهى علاقة أكثر للرجل المعاصر والرجل الراشد.

وبالرغم من تقدم وسائل الاتصال بين الشعوب والأمم ، وبالرغم من الانتشار الواسع للمجلات ووكالات الأنباء والصحف ، فلا زال هناك فى أوروبا وغيرها من قارات العالم من لا يعرف عن الإسلام والمسلمين شيئا،تجد هذه الجهالة فى ألمانيا كما تجدها فى فرنسا ، وبريطانيا ، كماتجد ذلك فى أميركا واستراليا ومن أطرف القصص التى سمعتها فى ألمانيا تلك القصة التى رواها لى إمام مسجد "برلين" قبل عشرين سنة.

قال:

بعد صلاة العصر وفى يوم أحد جاء أحد الألمان إلى المسجد ليرى الجمل الذى يعبده المسلمون فى هذا المسجد!!!

يقول الإمام : لقد ابتسمت ثم سكت ...

فعاد الرجل الألمانى إلى السؤال مرة ثانية :

– أريد أن أرى الجمل .....!

قلت له : بعد غروب الشمس . أو قبل ذلك بقليل جدا تعالى لترى هذا الجمل.

وحضر الرجل فى وقت صلاة المغرب بالضبط .. كانت الصلاة قد أقيمت واصطف المصلون فى خشوع لله الواحد الأحد.. وبعد أن فرغت من الصلاة عاد الألمانى سأل للمرة الثالثة:

– اين الجمل .. فأنا لم أره بعد ..!!

قلت له : تستطيع أن ترى هذا الجمل فى حديقة الحيوان ، أو تراه إن شئت فى الصحارى والغابات ، أما هنا فى المسجد فنحن لا نعبد جملا ولا صنما بل نعبد إلها أحدا ..فردا .. صمدا..!

ولا أنسى حتى هذا اليوم قصة الأب (هانز) الذى وقف يقول لاتباعه الذين كانوا يستمعون إليه فى (كنيسة القديس مارك) ....:

لماذا يعيب علينا المسلمون الايمان بالثالوث المقدس. بينما هم – أى المسلمون – يعبدون تسعة وتسعين إلها ..؟ أى بعدد أسماء الله الحسنى..!!!

كان أحد المسلمين حاضرا فسأله

هل تستطيع أن تذكر ثلاثة فقط من هؤلاء الآلهة؟

فقال القس. سأذكر لك أية واحدة يحفظها كل مسلم

فقال الشاب المسلم ما هي هذه الآية ؟

وهنا كانت المفاجأة فالآية التي كان يقصدها القس هي أية "البسملة" التي تفتتح بها السور والتي يقولها المسلم في افتتاح أي قول أو أي عمل

فهذه الآية كما قال القس تشير إلى ثلاثة آلهة هم

الله – الرحمن – الرحيم.'

وهنا ضجت القاعة بالضحك .. وخرج الشاب الألماني المسلم وزوجته المسلمة وهما يضربان كفا بكف من هذا التحريف. وهذا الكذب !!

إن في ألمانيا الآن أكثر من أربعة ملايين مسلم معظمهم من الأتراك.

وينتشر المسلمون في معظم المدن الرئيسية المعروفة في "برلين" وفي "بون" وفي "كولون" وفي "همبورج" وفي "فرانكفورت"

كما تنتشر المساجد والمراكز الإسلامية في معظم المقاطعات والمدن

كما يوجد في ألمانيا الكثير من المدارس الإسلامية التي تعلم اللغة العربية وأصول الدين والفقه

إن الطريق أمام الإسلام ممهد في كل أقطار أوروبا ولو عرف المسلمون استثمار هذه الفرص لتغير وجه الحياة في أوروبا وأمريكا

لقد سئل الطبيب الألماني المسلم (كريم عبد الله) المقيم في فرانكفورت

ما العقبات التى تحول بين الإسلام وبين شعوب الغرب...؟

فأجاب الطبيب الغيور المسلم

هناك عقبتان

أولا حال الأمة الإسلامية وواقعها المثير للأسف والحزن.

وثانيا سلوك المسلمين الذين يسافرون إلى بلاد الغرب، وما يصاحب هذا السلوك من فجور وفسق

أما العائق الأول

فلا يحتاج إلى أمثلة.

وأما العائق الثانى.

فاضرب لك مثلا واحدا من مئات الأمثلة فى عام ١٩٨٢م - بذلنا جهدا شديدا حتى حصلنا على موافقة بإنشاء مركز إسلامى ضخم. وقمنا بتقديم التصميمات التى تكلفت وحدها مليون مارك

بعد ذلك استطعنا جمع أكثر من خمسة ملايين مارك . ثم شرعنا لاتمام البناء على الفور . وفجأة اختفى أمين الصندوق ومعه خمسة ملايين مارك. وتوقف البناء فى المركز إلى هذا الوقت

فماذا يقول الألمان عندما يسمعون بهذه الجريمة التى ارتكبها مسلم سئ الخلق والسلوك إلى هذا الحد؟!!!

ويقول الدكتور "كريم عبد الله"

لقد صدمت فى أشخاص يتمتعون بشهرة واسعة ، غير أنهم فى واقع الأمر وحقيقته لا يمتون إلى الإسلام بأية صلة . وأكثر الناس - للإسلام عداوة

- لا يمكن أن ينال من الإسلام كما تنال منه أفعال هذه الطائفة..!!

إن الإسلام دعوة. والدعوة لا بد لها من داعية وهذا الداعية إن لم يكن أسوة وكان فى حياته قدوة. فقد الناس ثقتهم فيه ، وانقلب حالهم إلى أسوأ مما كانوا عليه.

فى آخر زيارة إلى المانيا كنا مجموعة من المصريين الذين دعوا لحضور مؤتمر إسلامى فى مدينة "كولون" بعد الانتهاء من أعمال المؤتمر سافرنا إلى "فرانكفورت" للراحة والاستعداد للسفر.

فى ميدان الأوبرا .. ذهبنا إلى مطعم لتناول وجبة خفيفة من البيتزا" .. وما كدنا نصل إلى باب المطعم حتى فوجئنا بصاحب المطعم وهو يغلق الباب فى وجوهنا. ويتحدى أحدا أن يدخل..!!

كانت مفاجأة غريبة أن يقف منا صاحب المطعم هذا الموقف الفظ، وبقينا لحظات نفكر ونقلب الرأى والنظر فى تفسير ما حدث .. لم يصل أحد إلى إجابة ... ثم لماذا يمنعنا الرجل من الدخول.. وقد كانت هناك فى الداخل مقاعد كثيرة خالية من الناس..؟

غير أنى فطنت إلى السر ، وعرفت لماذا يقف منا صاحب المطعم هذا الموقف الفظ..!

لقد كان خمسة منا من أصحاب ألّلحى ! كما كانوا - والحمد لله - فى قامة هرقل وجسمه الضخم .! .. وقد حدث قبل وصولنا بساعة جريمة قتل أمام المطعم... ثم فر القاتل دون أن تعثر الشرطة له على أثر. أو تعرف إلى أى جهة اختفى وفر..!

ومن هنا كان سوء الظن من صاحب المطعم .. فربما يكون قد خطر بباله

أننا على صلة بالقاتل، أو أعضاء فى عصابة (بادرمينهوف) " أو (الجيش الأحمر)...!!!

لقد زرت ألمانيا ثلاث مرات كما زرت "برلين " مرتين ... ولم أنس ذلك اليوم الذى ركبت فيه الطائرة من لندن ... قضيت ليلة فى برلين الغربية ، وفى الصباح توجهت قاصدا برلين الأخرى مرورا بالبوابة الشهيرة وعبورا للخيط الرفيع الفاصل بين المدينة الممزقة .. وعند نقطة الحراسة قدمت جواز سفرى إلى الجنود المقيمين بهذه النقطة .. كانوا خليطا من الألمان الغربيين والأمريكيين والفرنسيين والإنجليز ، قلت لهم : إنى متوجه إلى برلين الشرقية ... ولم أكد أكمل عبارتى حتى قالوا جميعا وفى صوت واحد ، وبدون النظر فى جواز السفر اذهب اذهب، ولو كانوا مسلمين لقالوا : أنتم السابقون ونحن اللاحقون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون.!!

عبرت الخط الفاصل بين الشرق والغرب ، وإن شئت فقل : بين الحياة والموت ، هل هى مبالغة منى ؟ لنرى أولا : ماذا حدث فى أول لقاء مع الأصدقاء الشيوعيين ، أمسكوا جواز السفر .. .. نصف ساعة كاملة ، يراجعون فيها الصفحات والكلمات تعجبت لأننى مصرى! .. .. والزعماء والقادة يتحدثون عن الصداقة المتينة والعلاقات الوثيقة بين برلين والقاهرة فإذا كانت هذه معاملة أبناء الشعوب الصديقة فكيف لو كنت قادما من تونس أو السعودية؟

اخذت الجواز وانطلقت إلى مكتب ثان..

ماذا تحمل من كتب أو مطبوعات أو صحف.. نصف ساعة أخرى فى (استجواب) نازى شيوعى ثم انطلقت إلى مكتب ثالث ؟ ماذا تحمل من نقود؟ مارك ألمانى (غربى) استرلينى ؟ دولار؟

قلت : معى بعض الدولارات ! وبلوعة الظامئ المشرف على الموت قالت المرأة العجوز :

أعطنى أعطنى ؟

وأعطيتها ما معى لاستبدالها بعملة رديئة لا وزن لها فى الجيب أو القلب وانطلقت .. ابحث عن سيارة لم أجد .. مشيت حتى تعبت ، سألت رجلا : أن يرشدنى إلى سيارة تحملنى إلى المطار لقد كنت عائدا إلى بيروت على متن (انترفلوج) .. ولم تكد السيارة تتحرك حتى توقفت أمام نقطة حراسة ونزلت؟

أين جواز سفرك ؟ فحصوا الجواز وانطلقت السيارة ؟ ثم توقفت أمام نقطة ثانية ... وثالثة ... الكل يسأل عن جواز السفر..

أخيرا .. وصلت إلى المطار ، وأى مطار ؟ إن تسميته بالمطار فيه كثير من التجاوز ... سكة حديد القاهرة أجمل منه فى نظرى ألف مرة ؟ وللأمانة والحق . كان ذلك فى سنة ١٩٧٠م ربما يكون ذلك قد تغير فإنى لم أره بعد ذلك. ولم أفكر فى رؤيته أبدا .!

أخذت مكانى فوق أحد المقاعد ، مقاعد محطات السكة الحديد فى الريف لا القاهرة أبحث عن شئ آكله ، لا شئ.. بعد ساعة حضرت (عجوز) وأخذت مكانها فى كشك تبيع فيه الحلوى ...

اشتريت قطعة من (الشيكولاته) ولم تكد تلمس فمى حتى وضعتها على المقعد بجوارى .. كانت مرة .. وتسميتها بـ (الحلوى) من باب (عموم البلوى)".!

أهذه هى المانيا (الديمقراطية) الشعبية .. الشيوعية؟ ألا فلتذهب إلى الجحيم كل هذه الشعارات الزائفة..

وقد ذهبت ولن تعود أبدا ..!!

لقد آن الأوان أن تخرج من ألمانيا..

ولكن ليس قبل أن نسجل رحلة أخرى ومن نوع أخر .. رحلة لا صلة لها بالمكان .. ولا الزمان .. بل رحلة تجرى أحداثها داخل نفس معذبة... .... نفس (هيلدا) الألمانية التى تروى لنا قصة عذابها وإسلامها فى هذه الرحلة :

اسمى "هيلدا" .. لم أكن فى حياتى متدينة بل كنت ملحدة غير مؤمنة ، وكنت أسخر من كل شئ يتصل بالدين .. غير أنى راجعت نفسى يوما .. فلما أدركت فداحة خطيئتى .. ووجدت أننى أسرفت فى تحطيم نفسى .. رحت أبحث عن الخالق الذى أنكرته ..!!

كنت أدعوه ان يرحمنى وينقذنى .. ولكن .. أين هو الله الذى تصوره الكنيسة رحيما ومحبا وعطوفا...؟

ولماذا يترك ضعيفه مثلى تواجه كل هذه الكوارث دون أن تتدخل منه لانقاذى..؟ ثم لماذا لا أرى هذه الرحمة وهذا العطف فى رجال الكنيسة أنفسهم..؟

لقد تزوجت أربع مرات وفشلت .. أكثر من مليون مارك ضاعت على موائد الخمر ..!!؟

وقد تحولت إلى بقايا إنسان يمشى على الأرض..

وفجأة رأيت يد الله تمتد إلى ..!!

كنت فى رحلة سياحية إلى القاهرة .. لقد صادف قيامى بهذه الرحلة قدوم شهر رمضان المقدس عند المسلمين وفى إحدى زياراتى لسوق خان الخليلى – الواقع بجوار مسجد الحسين – رأيت أروع منظر شاهدته العين..!!!

رجال ونساء وأطفال وشيوخ وشبان يجلسون جميعا فى انتظار مدفع الإفطار.

ما هذا الذى أراه..؟

إننا نقرأ ونسمع كثيرا من (صيامات) أخرى فى بعض الأديان .. لقد رأيت هذا فى الهند .. وفى أقطار أخرى بأقصى الشرق .. غير أننى لم أر مثل هذا المظهر .. ومثل هذا التآخى والورع فى وجود الذين يتطلعون إلى المآذن فى انتظار سماع كلمة (الله أكبر) ..!!

فأنالا أتصور أن ينقطع إنسان عن الطعام والشراب هذه المدة الطويلة وفى جو قائظ شديد الحرارة كمدينة القاهرة ...

لقد ادمنت الخمر حتى انفقت كل مدخراتى عليها كما قلت .. وقد خسرت بسبب ذلك أسرتى وزوجى بعد أربع مرات وفشلت..!

فمن أين للمسلم هذه القوة التى ينتصر بها على هذه العاهات والعلل..؟

إنه الإسلام ..!! كلمة واحدة نطق بها مرافقى المصرى واسمه (أحمد) والذى استأذننى بضع دقائق يؤدى فيها صلاة المغرب ..!!!

إنه الإسلام .... ولكن أين ..؟

فى صبيحة اليوم التالى كنت اتجه ومعى مرافقى (أحمد) إلى إدارة الأزهر الشريف.. وفى مكتب الأمين العام للدعوة نطقت بالشهادتين وأصبحت منذ هذه اللحظة مسلمة يحرم عليها ارتكاب الفحش أو شرب الخمر..؟

لقد تبدلت حياتى منذ ذلك اليوم .. لم أعد " (هيلدا) الضائعة فى ظلمات الليل..!!!

ولم أعد أشعر بوحشة أو غربة فى أيام الصوم.. لقد بدأت تجربة الصوم فعلا...

ولم تتركنى أسرة (أحمد) وغيرها من الأسر المسلمة أفطر فى مطعم الفندق.

لقد انفتحت امامى أبواب السماء كلها ... ... وجدتنى (عضوا) فى أسرة عدد أفرادها يتجاوز ستين مليون مسلم ومسلمة .. فى مصر .. أو الألف ومائتى مليون مسلم ومسلمة فى كل العالم..!!





فرنســا
وزيارة
لن تتكرر ..!

فرنسا وزيارة لن تتكرر

أجل . زيارة لن تتكرر..!

أما لماذا فإليكم القصة..

فى مبنى القنصلية الفرنسية الواقع فى شارع البورصة فى وسط مدينة القاهرة، سأل الموظف المختص بتسلم طلبات الحصول على تأشيرة وهو بالمناسبة – غير فرنسى – سأل سؤالا عجيبا أثار دهشة الدكتور أحمد شوقى الحفنى رفيقى فى هذه الرحلة إلى فرنسا ..

فقد سأل الموظف عن الدكتور عبد الودود.. الذى هو "أنا" بعد أن عرف من البيانات المدونة فى جواز السفر أننى وكيل وزارة سابق فى الأزهر.

لقد وجه " الموظف " هذا السؤال إلى الدكتور أحمد

– هل الدكتور .. من أنصار شيخ الأزهر .. أم من خصومه الرافضين لسياسته فى إدارة الأزهر؟!

لقدانفجر الدكتور "شوقى" من توجيه هذا السؤال السمج، ثم وجه كلامه إلى "الموظف" المختص:

– ما علاقة فرنسا وما علاقتك أنت فى أن يكون الدكتور .. خصما أو صديقا للشيخ الأكبر ..؟! ألا ترى أن سؤالك هذا .. يعتبر تدخلا فى شأن لا يخصك؟ وأن سؤالك هذا يسئ إلى فرنسا التى اعتقد أنها لا تقبل توجيه مثل هذه الأسئلة إلى الراغبين فى السفر إلى فرنسا ..

ثم إن "شيخ الأزهر " مصرى لحما ودما ، أى أنه ليس فرنسيا ، ولم يعلم أحد فى مصر أن "باريس" عينته لدى القاهرة مندوبا ساميا" لفرنسا..!!

ثم تابع الدكتور " أحمد" حديثه مع الموظف السمج.

– إما أن تعطينا التأشيرة وإما أن ترد إلينا جوازتنا فلا حاجة بنا إلى فرنسا أو تأشيرة لدخول فرنسا..!!

* * *

كانت بداية سيئة .. فها أنا ... أتعرض لاستجواب :"نازى" فى القاهرة قبل أن اتحرك .. وقبل أن آخذ مكانى فى طائرة "اير فرنس" المتجهه إلى باريس..

ترى ماذا يمكن أن يحدث معى فى مطار "أورلى" أو فى مطار "شارل ديجول" إذا كنت قد تعرضت لهذا الاستجواب فى مدينة القاهرة. وفى أرض المحروسة..!!

وتدفقت الذكريات الكامنة فى عقلى منذ زمن قديم... ذكريات الماضى وأحداثه الدامية التى ارتكبتها فرنسا ضدالعرب وضد المسلمين !

لقد بدأت الحروب "الصليبية " فى فرنسا .. وبزعامة فرنسا هذه الحرب التى أثارها الافرنج على المسلمين فى القرون الحادى والثانى والثالث عشر كان ظاهرها استخلاص الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين الذين كانوا – كما يزعم بطرس الناسك – يقيدون حجاج المسيحيين بالسلاسل والأغلال. ويمتهنون قبر المسيح ، ويعاملون أهالى تلك البلاد المسيحيين معاملة الذل والهوان، قامت هذه الحروب وظاهرها – كما يقول " البابا أوربانوس الثانى" فى خطاب الدعوى الذى القاه فى مدينة "كليرمونت" فرنسا سنة ١٠٩٥م – إنها ليست لأخذ الثأر عن الأهانات التى لحقت النوع الإنسانى فحسب ، بل عن تلك الإهانات التى اتاها الكفار (المسلمون) نحو الله ... !

أما باطنها وهو مالم يستطع البابا اخفاءه فهو كما قال فى خطاب الدعوة الآنف الذكر " (إنها ليست لاكتساب مدينة واحدة ، بل لامتلاك أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التى لا تحصى، فاتخذوا حجة البيت المقدس، وخلّصوا الأراضى المقدسة من أيدى المختلسين لها، وامتلكوها أنتم خالصة لكم من دون أولئك؛ الكفار، فهذه الأرض كما قالت التوراة"(تفيض لبنا وعسلا)"..!!!

" (إنكم إن انتصرتم على عدوكم كانت لكم ممالك الشرق ميراثا، وإن أنتم خذلتم فستموتون حيث مات اليسوع، لا ينساكم الرب من رحمته ، فيحلكم محل أوليائه)"!!

"وهذا هو الوقت الذى تبرهنون فيه على أن فيكم قوة وعزما وبطشا وشجاعة ، هذا أوان تظهرون فيه شجاعتكم التى طالما أظهرتموها وقت السلم، وإذا كان من المحتم أن تثأروا لأنفسكم فاذهبوا واغسلوا أيديكم بدماء أولئك الكفار"!!!

فلما رآهم يبكون متأثرين بخداعه ومكره قال: " (الحمد لله ، لقد أصبح جند النار جندا لله ، يا قوم .. إذا دعاكم الرب اليسوع إلى مساعدته فلا تتواروا فى بيوتكم متقاعدين ، ولا تفكروا فى شئ إلا فيما وقع فيه اخوانكم المسيحيون من الذل والهوان والمسكنة ، ولا تستمعوا إلا إلى القدس وزفراته ، واذكروا جيدا ما قاله لكم المسيح "" ليس منى من يحب أباه وأمه أكثر من محبته إياى ، أما الذى يترك بيته ووطنه وأمه وأباه وزوجه وأولاده وممتلكاته ومقتنياته حبا فى ومن أجلى فسيخلد فى النعيم، وسيجزيه الله الجزء الأوفى""[1].

---

(١) نقلا عن تاريخ العالم للمؤرخين . Hustorian : History of the world

الحروب الصليبية بدأت من فرنسا كما قلت حتى آخر حملة صليبية قدمت من فرنسا .

هل نسينا قصة الملك الفرنسى التعيس لويس التاسع قائد هذه الحملة؟

إن " دار بن لقمان " لا تزال قائمة فى مدينة المنصورة.

وهى خير شاهد على هذه الحقيقة..!!

قد تقول .. أيها القارئ - تلك أمة خلت ، وماض لم يعد له فى واقعنا المعاصر تأثير ولا أثر .. غير أنى لا أرى مبررا لحسن الظن. فهذه الحرب لا تزال دائرة وإن اختلفت الصورة، ولا تزال قائمة وإن اختلفت الوسائل والسبب..!

* * *

فى كتاب (الجزائر الثائرة) الذى ألفه الفرنسيان "كوليت" و ".. جان جونسون: يقول هذان المؤلفان[1] :

كان العبث بالدين الإسلامى هو المجال المفضل للقائد" روفيجو" ... فقد وقف هذا القائد الفاجر.، ونادى بين بنى قومه بأنه يلزمه أجمل مسجد فى المدينة ليجعل منه معبدا لإله المسيحيين !! وطلب من أعوانه ذلك فى أقصر وقت ممكن وأشار لهم إلى جامع القشاوة لأنه ، كما قال، أجمل جوامع الجزائر طرأ، وهو فى وسط المدينة وفى قلب الحى الأوروبى فضلا عن أن أفنيته تؤدى إلى مداخل السراى.

وبالفعل .. تحدد ظهر يوم ١٨ من ديسمبر ١٨٣٢م لانجاز هذا العمل وتحقيق هذه الرغبة ، ففى الميعاد المحدد تقدمت إحدى بطاريات الجيش ، وأخذت أهبتها للعمل فى ميدان السودان ، وخرجت من بينها فرقة من سلاح

(١) ص ٤٠ ومابعدها.

المهندسين ،فهاجمت أبواب المسجد بالبلط والفؤوس، و إذ بداخل المسجد أربعة آلاف مسلم اعتصموا كلهم خلف المتاريس ، فاندفعت نحوهم القوة العسكرية ، ودحرتهم بالسناكى ، فخروا صرعى وجرحى تحت أرجل الجنود ، واستمرت العملية طوال الليل حتى إذا كان الصباح كانت النظم قد تمت ، والقرارات قد صدرت ، وصار الجامع " (كاتدرائية الجزائر) ..!!!

وما أن انتهى الجنود من هذا حتى داروا على أعقابهم صوب مسجد القصبة الغنى بذكريات الإسلام وأيامه المجيدة ، فدخله القواد والضباط والجنود، وأقاموا فيه شعائرهم الدينية حتى إذا انتهى القداس شرع القساوسة فى تمجيد "(إله الجيوش) وترديد " نشيد الغفران".!

ولعمر الحق ، إذا ساغ للجنود الجهلة أو لضباطهم العابثين بأن يأتوا مثل هذه الأفعال ،، فكيف يسوغ للقس سوشيه وهو الو كيل العام لأسقف الجزائر أن ينضم إليهم ، ويتزعم طابورهم ..؟!

فقد وضع هذا القس عام ١٨٣٩م كتابا أسماه (رسائل مفيدة ومشوقة عن الجزائر) وجه فيه الكلام إلى عاهل فرنسا فقال:

"إن مسيو فاليه رجل عميق التفكير ، ذو ضمير حى ، ولا ينقصه الحيلة.

إنه يحكم الجزائر كاكثر الملوك إطلاقا فى الحكم.

إنه الرجل الذى ليس للمستعمرة غنى عنه .

إنه يرغب فى أن يستتب الدين المسيحى وأن يحترمه الجميع.

إنه يريد أن يضاعف من عدد الصلبان والكنائس فى الجزائر.

إن مولاى ليستطيع أن يفعل ما يشاء مع رجل مثل المسيو فاليه الذى

اختار أجمل مسجد فى قسطنطينة ليجعل منه أجمل كنيسة فى المستعمرة)[1]"..!!

وقد وقع الاختيار على القس سوشيه ليكون راعيا لهذه الكنيسة التى كانت مسجدا، وما أن اطلقت يداه ليعد لنفسه منبرا للوعظ فيها حتى استولى على منبر الرسول محمد ،أتى به من مسجد يقال له " المقدس" وهو آية فى النقش العربى ، وعلى هذا المنبر النفيس وقف سكرتير الحاكم "يوجو" ليقول:

"إن آخر أيام الإسلام قد دنت وفى خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح ، ونحن إذا أمكننا أن نشك فى أن هذه الأرض تملكها فرنسا فلا يمكننا أن نشك على أى حال أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد، أما العرب فلن يكونوا ملكا لفرنسا إلا إذا اصبحوا مسيحيين جميعا ..!!

* * *

لهذا فأنا لا أحب فرنسا .. دعك من هذه الشعارات أو هذه المدائح التى يتغنى بها عشاق باريس، فالكل يغنى على "ليلاه" كما يقول المثل. سواء أكانت "ليلاه" هذه (غانية) من حى "مونامرتر" أو "امرأة ضائعة " تنتظر أمام أبواب متحف "اللوفر".! والذى تسمعه فى " الراديو" أو تقرأه فى الصحف عن فرنسا وعظمة فرنسا .. كله كلام أجوف وأكبر عملية "غسيل " للمخ.. ولو كنت من (العالمين) بشئون الاقتصاد والسياسة ... لرأيت في كل هذه الشعارات "قلب شيلوك "تاجر البندقية !! أو "روح ميكافيللى" فى كتاب " الأمير" ! أو مخالب "جنكيز خان" القادم من صحراء جوبى"..!!!

إنها المنفعة البحتة ، والمصالح البحتة ، ولو ترجمت هذه الشعارات إلى

---

(١) المصدر السابق .

الواقع فلن تزيد فى نظرى ونظرك هذه الشعارات كلها عن "شيك" على بياض للشراء والبيع ، أو التصدير والاستيراد..! يستوى فى هذا كله : أن يكون فى سدة الحكم" شارل ديجول" أو "منديس" فرانس أو حتى " جاك شيراك"..!

ولكن العرب والمسلمين لا يقرأون للأسف .. ، وإلاّ .. فمن زود اسرائيل بالسلاح ؟ ، ومن بنى مفاعل "ديمونة" فى صحراء النقب، ومن كان معها ووراءها فى العدوان الثلاثى؟، من باعها طائرات "الميراج" والنفاثات التى قتلت الأطفال فى بحر البقر ؟ والتى استباحت سماء مصر وأرضها فى الريف.. والمدن؟

ومن حاكم "(جارودى) " ؟ بل لماذا حوكم؟ وبرلمان "من" الذى شرع وأجاز مثل هذه المحاكمة ؟ وأين هى حرية الفكر ؟ وما معنى أن يطلق على "باريس " اسم (عاصمة النور) فى الوقت الذى يحاكم فيها أكبر مفكر فرنسى وبغير سبب حقيقى لإجراء مثل هذه المحاكمة..!

ولا أدرى لماذا خطر على بالى الآن اسم "أبو لمعة" الأصلى !! لقدسمعته مرة يتحدث عن "نور" لكنه غير " النور" الذى تعرفه .. فهناك " نور أسود" ..!! كما قال " أبولمعة" "نور" يوهم من يراه أنه مضئ مشرق بينما هو فى حقيقته " (نار)" تدمر وتحرق..!!

حتى (البابا) الذى زار مصر واستقبله رئيسها ومعه شيخ الأزهر فى الوقت الذى لم يتحرك فيه "البابا شنوده" عن مقعده الذهبى!!

هذا "البابا" جون بول الثانى" لم يذكر للمسلمين حسنة واحدة .. وكل ما قاله عن المسلمين أنهم علموا شعوب أفريقيا وآسيا حروف الأبجدية المعروفة .. أو مبادئ القراءة والكتابة..!

أما أوروبا التى كان " الجهل فيها هو " جواز " المرور إلى الجنة؟ أوروبا التى كان يحكمها "البابوات" بالأغلال والسلاسل ..

و" الفاتيكان" الذى أحرق أكثر من ثلاثمائة الف عالم ومفكر وكان يعتبر " العقل" أو "الفكر" هو رأس البلاء والمصائب!! أوروبا التى كانت (بركا) و(مستنقعات) ، ويعيش أهلها وسكانها بين روث الخنازير والبهائم ، والتى كان "الفاتيكان" ينصب فيهاالرجل "قديسا" لأنه لم يستحم مرة واحدة فى حياته ..!!

إن المهندسين العرب هم الذين خططوا لبناء كنيسة" روتردام" فى باريس أيهاالبابا ..!!

والعلماء العرب والمسلمون هم الذين علموا أوروبا الهندسة والفلك والطب.

وكما يقول "جوستاف لوبون"[1] أن كتب ابن سينا فى الطب كانت تدرس فى جامعات فرنسا حتى القرن التاسع عشر ... وأساس "المنهج العلمى" الذى تفخر به أوروبا .. اختراع اسلامى .... وليس من وضع "بيكون".. ! وعلوم الجبر .. وعلوم الفلك كلها من اختراع المسلمين والعرب ..!

والمكتشفون الحقيقيون لمجاهل العالم بما فيها أميركا هم المسلمون لا" فاسكو دى جاما" .. ولا " ماجلان" .. فلم يكن "فاسكو" ولا " ماجلان" سوى تلميذين فى مدرسة الكشوف الجغرافية التى أنشأها المسلمون ، وقبل ميلاد أى مكتشف أوروبى بقرون....

وفى مجال علوم الكيمياء ... والصيدلية . وصناعة الفولاذ. والصباغة ،. وصناعة الورق والجلود.. كان المسلمون هم أساتذة أوروبا فى هذه العلوم كلها فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تحاكم الفيران والقطط والسوس والديوك..!

---

(١) حضارة العرب - تأليف جوستاف لوبون - ترجمة أحمد فتحى زغلول.

ومن أطرف المحاكمات وأشهرها (محاكمة الفئران)[1] فى بلدة "أتون" بفرنسا فى القرن الخامس عشر. فقد اتهمت الفئران فى هذه القرية بالتجمهر فى الشوارع بشكل مزعج مقلق للراحة" وتقدم للدفاع عنها "شاسانيه" المحامى الفرنسى وطلب التأجيل لأن الفئران لم تتمكن من الحضور ، حيث فيها الرضيع والمريض والعجوز، وهى تستطيع أن تستعد للمثول بين يدى المحاكمة إذا منحت فرصة التأجيل ، فوافقت المحكمة على التأجيل لوقت معين...!

ولما حان الوقت لم تحضر الفئران ،فقال محامى الدفاع للمحكمة: إن الفئران تذعن لأوامركم الموقرة ، وتود الحضور، ولكنها يا حضرات القضاة تخشى وقوع الأذى عليها من القطط إن هى جاءت إلى هنا ، فرد رئيس المحكمة قائلا:

إن من واجبنا تأمين المتهمين على حياتهم. فطلب المحامى أن تأمر المحكمة بحبس قطط البلد كلها قبل مرور موكب الفئران فى الشوارع لتكون مطمئنة على حياتها ، فوافقت المحكمة على هذا الطلب لعدالته ، وأصدرت امرا بمنع القطط والكلاب من المرور فى الشوارع تأمينا للفئران أثناء حضورها إلى قاعة المحكمة"!!!

ولكن أهل القرية رفضوا تنفيذ ذلك فاضطرت المحكمة إلى أن تحكم ببراءة الفئران لأنها حرمت وسائل الدفاع المشروعة..!!

وقد نال المحامى بسبب هذه القضية شهرة ذائعة ، ولا ندرى إن كان قد أخذ أتعابه من الفئران أم لا، ربما كانت أتعابه أن تتعهد له الفئران بعدم قرض كتبه وأوراقه[2]..!!

---

(١) انظر كتاب " من روائع حضارتنا " د. مصطفي السباعى ، دار القلم، لبنان.

(٢) المصدر السابق.

ومن أغرب قضايا محاكمة الحيوان فى القرون الوسطى محاكمة الديك الذى باض.. فقد رفعت دعوى على ديك فى مدينة بال بسويسرا عام ١٤٧٤ م لأنه باض، وذلك فى عرف الأوروبيين يومئذ جريمة شنيعة ، إذ كان من المعروف عندهم أن السحرة يبحثون عن بيضة الديك ليستخدموها فى أغراضهم الشيطانية. وقدم الديك للمحاكمة . ودافع محاميه عنه بقوله :

كيف يكون الديك مسئولا عن واقعة لا حيلة له فيها ؟ ولكن المحكمة لم تأخذ بنظرية محامى الدفاع، بل أصدرت حكمها بإعدام الديك ، وعللت حكمها بقولها : ليكون فى ذلك عبرة لغيره من الديكه .. !!

وفى عام ١٤٩٥م وقعت قضية أخرى فى فرنسا هى من أغرب المحاكمات الحيوانية أيضا .. فقد رفع أصحاب مزارع العنب فى مقاطعة (سان جوليان) دعوى على حشرات السوس بتهمة أنها أتلفت كرومهم وقضت على أشجارهم وصناعتهموتجارتهم.

وتولى الدفاع عن هذه الحشرات إثنان من كبار رجال القانون ، واستمرت القضية أربعين عاما انتهت بأن أصحاب الكروم سئموا هذا التأخير ، فاتفقوا على اقطاع السوس قطعة أرض خاصة ليأكل فيها ما يشاء من زروع وأشجار...!!

* * *

حتى فى "(العقيدة) " وثورة الاصلاح فى الكنيسة كان للمسلمين الأثر الأكبر فى عقل" (لوثر) " وفى تحريم التماثيل والصور ، وفى رفض خلع صفة (القداسة) على أن (بابا) مجنون أو عاقل..!!

حتى الاعتذار الذى أعلنه البابا عن الجرائم والمذابح التى ارتكبها

"الفاتيكان" ضد المخالفين له فى العقيدة أو الرأى .. لم يشر فيه إلى المسلمين بكلمة واحدة. ولا عن حروب الإبادة التى ارتكبها "الفاتيكان" فى أوروبا وأميركا أى حروب الإبادة ضد الهنود الحمر والغجر.

والطائفة الوحيدة التى قدم إليها الاعتذار مباشرة هم اليهود فقط..!!

أو كما يقول المتحدث الصحفى باسم "البابا":

إن هذا الاعتذار الذى أعلنه البابا لا يعنى الاعتذار إلى أحد..!!

ولكن "خيبة المسلمين وحسن ظنهم يفسر الأمور دائما بغير ما تعنى[1] وبغير ما تقصد!

يقول"(فولتير):

أيها الأساقفة والرهبان والقسس ..!!

أكرر لكم القول أيها الجهلة الأغبياء .. الذين غرر بهم جهلة أغبياء، وأفهموكم أن عقيدة محمد عقيدة لذات وجنس.. فى حين أنه أبعد ما يكون عن هذا الوصف..

لقد خدعتم فى هذا الفهم .. كما خدع آباؤكم من قبل ...

أيها الأساقفة والرهبان والقسس..!!

إذا فرض عليكم قانون يحرم عليكم تناول الطعام من الرابعة صباحا.. وحتى العاشرة مساء .. وفى شهر يوليو القائظ .. عندما يجئ الصيام فى هذا الشهر..

وإذا حرم عليكم لعب الميسر ، وإلا لحقت بكم لعنة الله ...

---

(١) انظر ما كتبه "سلامة أحمد سلامة" حول هذا الموضوع- الأهرام - ١٨/٣/٢٠٠٠م.

وإذا حرم عليكم شرب الخمر تحت التهديد بالجزاء نفسه ..

وإذا فرض عليكم الحج فى صحراء محرقة ..

وإذا فرض عليكم اخراج اثنين ونصف فى المائة من أموالكم للفقراء ..
وإذا كنتم تتمتعون بثمانى عشر زوج فجاء من يحذف أربع عشر زوجة من هذا العدد.

هل يمكنكم الإدعاء مخلصين بأن هذه الشريعة شريعة لذات وجنس .. أو شريعة حرب وسيف ؟..

* * *

الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ..

فإنكم كالقبور المطلية ... تبدو جميلة من الخارج...

ولكنها مملوءة من الداخل بكل قذر ونجاسة..!

كان الكونت "هنرى دى كاسترى [1]" من رجال فرنسا المشهود لهم بالكفاءة.

كان من كبار الموظفين بالجزائر، برغم سنه المبكرة وكان يسير ممتطيا صهوة جواده ويسير خلفه ثلاثون من فرسان العرب الأقوياء ، فخورا بمركزه ، وكان يملؤه الغرور ، للمدح الذى يزجيه إليه هؤلاء الذين تحت إمرته.

وفجأة وجدهم يقولون له ، فى شئ من الخشونة ، وفى كثير من الاعتداد بالنفس:

---

(١) الإسلام : خواطر وسوانح – هنرى دى كاسترى – ترجمة فتحي زغلول.

" لقد حان موعد صلاة العصر " ...!

وبدون أن يستأذنوه فى الوقوف ، ترجلوا واصطفوا للصلاة متجهين إلى القبلة ، ودوت فى أرجاء الصحراء كلمة الإسلام الخالدة.

" الله أكبر .... " ...

شعر الكونت فى هذه اللحظة بشئ من المهانة فى نفسه ، وبكثير من الإكبار والإعجاب بهؤلاء الذين لا يبالون به ، ذلك لأنهم اتجهوا إلى الله وحده ، بكل كيانهم ، وبدأ يتساءل:

ما الإسلام ؟ أهو ذلك الدين الذى تصوره الكنيسة فى صورة بشعة تنفر منها النفس ، ولا يطمئن إليها الوجدان ...؟

وبدأ يدرس الإسلام ، وتغيرت فكرته عنه ، ورأى من واجبه أن يعلن ما اهتدى إليه ، فكان كتاب" (الإسلام خواطر وسوانح)".

وفى هذا الكتاب الطريف : تحدث عن كثير من جوانب الإسلام سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالرسول ، أم فيما يتعلق بالتعاليم الإسلامية وقد تحدث – فضلا عن ذلك – عن آراء مواطنيه ، خصوصا القدماء منهم فى صورة من السخرية ، والتهكم.

فقد ذهبوا إلى أن محمدا وضع دينه بادعائه الألوهية.

ومن المستغربات قولهم : إن محمدا الذى هو عدو الأصنام ، ومبيد الأوثان، كان يدعو الناس لعبادته فى صورة وثن من ذهب ، كما كان يعتقد الكرلوفنجيون".

بل لقد أغرق خيالهم فى الضلال ، فذهبوا إلى أبعد من ذلك.

وذهبوا إلى أن صورة "ماهوم"[1] كانت تصنع من أنفس الأحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق اتقان".

وبعد أن ذكر الكثير من آرائهم قال:

" لقد أطلنا القول فى تلك الأضاليل .، لأن تاريخ اسكندر[2] المذكور لم يزلها ، ولأنها تركت أثرا فى الأذهان وصل إلى أهل هذه الأيام ، وتشبعت به أفكارهم فى النبى وكتابه.

ولكن ما سر هذه الحملة الشعواء الضالة التى تهزأ بالحق والضمير ، والتى لا يقرها دين أيا كان ؟

" ولو سأل سائل " : هل كان أولئك المفسرون يعتقدون صحة ما يقولون ؟ لأجبناه جواب أهل " نور مندة" : لا – ونعم ، إذ من المحقق أن الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين سهل للمنشدين معرفة الدين المحمدي على حقيقته ، ولكنه ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية فى أناشيدهم ، بل حفظ روح البغضاء فى نفوس قومهم".

هل هذه الروح التى كانت سائدة عند المسيحيين تجاه الإسلام، اقتصرت على العصور الوسطى ؟ كلا ....

" فلم يزل هذا الروح سائدا عند المسيحيين حتى أن المستشرق" بريدو" الإنكليزى ألف سنة ١٧٢٣ كتابا فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم عنوانه: " حياة ذى البدع محمد" .!!

---

(١) المقصود محمد "صلى الله عليه وسلم".

(٢) ألف القسيس" اسكندر دوبون" كتابا ١٢٥٨ عن محمد وكان الناس يعدونه تاريخا صحيحا للرسول مع أنه ليس كذلك.

لقد كان الكونت "هنرى دى كاسترى " من أوائل الباحثين عن الحق فسافر بعقله ووجدانه إلى شاطئ "الحقيقة" التى حاول البابوات " وصنائعهم إغراق هذه "الحقيقة" فى بحر الظلمات والكراهية والحقد.!

ثم كان ما كان بعد ذلك بما لم يكن فى حسبان أحد، فقد أسلم "رينيه جينو" أكبر مفكر .. وفيلسوف عرفته فرنسا والعالم فى ذلك الوقت.

فى الأربعينات من القرن الماضى ، عاد سفير المكسيك فى القاهرة إلى بيته فى حى " الزمالك" وهو يكاد يطير من شدة الفرح..

سألته زوجته : عن السبب .

فقال السفير : لقد قابلت يازوجتى العزيزة أهم شخصية فى العالم فعادت زوجته تسأل : هل قابلت رئيس الوزراء ؟ قال السفير أكبر من رئيس الوزراء؟

فقالت الزوجه : هل قابلت الملك : فقال السفير : قابلت من هو أكبر من الملك!

فقالت الزوجة : هل قابلت ربنا ؟!

فقال السفير لزوجته المتلهفة : لا فهذا مستحيل قالت له : فمن قابلت اذن : فقال لها : لقد قابلت " رينيه جينو" !!!

كان إسلامه ثورة كبرى هزت ضمائر الكثيرين من ذوى البصائر الطاهرة، فاقتدوا به ، واعتنقوا الإسلام ، وكونوا جماعات مؤمنة مخلصة ، تعبد الله على يقين فى معاقل الكاثوليكية فى الغرب[1]. يقول "جينو" عن سبب إسلامه: إنه ... أراد أن يعتصم بنص مقدس ،لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلم يجد - بعد دراسة عميقة - سوى القرآن ، فهو الكتاب الوحيد

(١) أوروبا والإسلام . د/ عبد الحليم محمود ص ٧٣ وما بعدها.

الذى لم ينله التحريف ولا التبديل ، لأن الله تكفل بحفظه وحفظه حقيقة: "(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)".

لم يجد سوى القرآن نصا مقدسا صحيحا، فاعتصم به ، وسار تحت لوائه ، فغمره الأمن النفسانى فى رحاب الفرقان.

ومؤلفاته كثيرة مشهورة ، من بينها كتاب " أزمة العالم الحديث" بين فيه الانحراف الذى تسير فيه أوربا الآن ، والضلال المبين الذى أعمى الغرب عن سواء السبيل.

أما كتابه : " الشرق والغرب"[١] ، فهو من الكتب الخالدة ، التى تجعل كل شرقى يفخر بشرقيته. وقد رد فيه إلى الشرق اعتباره ، مبينا اصالته فى الحضارة، وسموه فى التفكير ، وانسانيته التى لا تقاس بها مادية الغرب وفساده وامتصاصه للدماء وعدوانه الذى لا يقف عند حد وظلمه المؤسس على المادية واستغلال، ومظهرا فى كل صفحة من صفحاته نبل الشرقيين وعمقهم ، وفهمهم للأمور فهما يتفق مع الفضيلة ومع أسمى المبادئ الإنسانية".

نشأ " رينيه جينو" فى فرنسا من أسرة كاثوليكية ، تربة محافظة ، نشأ مرهف الحس، مرهف الشعور ، مرهف الوجدان ،متجها بطبيعته ، إلى التفكير، العميق والأبحاث الدقيقة ، وهاله ، حينما نضج تفكيره، ما عليه قومه من ضلال، فأخذ يبحث فى جد عن الحقيقة ، ولكن أين هى ؟ أفى الشرق أم فى الغرب؟ وهل هى فى السماء أو فى الأرض؟

أين الحقيقة ؟

سؤال وجهة "رينيه جينو" إلى نفسه كما وجهه من قبل إلى نفسه الإمام المحاسبى ، والإمام الغزالى ، وكما وجهه من قبلهم عشرات من المفكرين الذين

(١) رينيو جينو د. عبد الحليم محمود . مكتبة الأنجلو.

أبوا أن يستنيموا للتقليد الأعمى ... وتأتى فترة الشك والحيرة والألم الممض، ثم يأتى عون الله ، وكان عون الله ، بالنسبة إلى " رينيه جينو" أن بهرته أشعة الإسلام الخالدة ، وغمره ضياؤه الباهر ، فاعتنقه ، تسمى باسم الشيخ عبد الواحد يحيى ، وأصبح جنديا من جنوده يدافع عنه ، ويدعو إليه.

ومن أمثلة ذلك ما كتبه فى كتابه" رمزية الصليب" تفنيدا للفرية التى تقول: إن الإسلام انتشر بالسيف .. ومن أمثلة ذلك أيضا ، ما كتبه فى مجلة "كابيه دى سور" فى عددها الخاص بالإسلام والغرب ، دفاعا عن الروحانية الإسلامية، لقد أنكر الغربيون روحانية الإسلام، أو قللوا من شأنها ، وأشادوا بروحانية المسيحية، وأكبروا من شأنها. ووضعوا التصوف المسيحى فى أسمى مكانة. وقللوا من شأن التصوف الإسلامى. فكتب الشيخ عبد الواحد يحيى ، مبينا سمو التصوف الإسلامى وروعته، وقارن بينه وبين ما يسمونه بالتصوف المسيحى ، أو " المستيسزم" ، وانتهى بأن هذا "المستيسزم" لا يمكنه أن يبلغ، ولا عن بعد ، ما بلغه التصوف الإسلامى من سمو ، ومن جلال.

على أن الشيخ عبدالواحد يحيى ،. لم يشد بالإسلام فحسب ، وإنما أشاد فى جميع كتبه وفى مواضع لا يأتى عليها الحصر بالشرق.

لقد دأب الاستعمار على أن يغرس فى نفوس الشرقيين : أنهم أقل حضارة، بل أقل إنسانية من الغربيين، وأتى الشيخ عبد الواحد ،فقلب الأوضاع رأسا على عقب ، وبين للشرقيين قيمتهم ، وأنهم منبع النور والهداية ومشرق الوحى والإلهام(١).



(١) أوروبا والإسلام . مصدر سابق.

فى لقاء صحفى مع المفكر الإسلامى العالمى" رجاء جارودى" سئل عن الأسباب التى دعته إلى اعتناق الإسلام ، فقال:

دعنى أقل لك أن اعتناقى الإسلام لم يكن شيئا من قبيل التجربة ، ولكنه كان شيئا كالانجازات الكبرى فى حياة الإنسان.

وعندما شرح الله صدرى للإسلام ، عرفت أن الإسلام ليس مجرد دين يختلف عن بقية الأديان فحسب ، بل إنه دين الله ... دين الفطرة التى خلق الله الناس عليها... دين يكون الإنسان به هو روح الكون وسيده.. أعنى بذلك أن الإسلام هو الدين الحق منذ خلق الله آدم... الإنسان الأول.. ثم سئل عن الدعوة إلى الإسلام، وهل أدت دورها .. وما السبيل لنجاحها فى المجتمعات الإنسانية؟

فقال: نحن الأقليات ، لنا فرصة عظيمة فى الدعوة إلى الإسلام.. وخاصة فى الغرب . والتقاؤنا باخواننا المسلمين فى مؤتمر الأقليات المسلمة يتيح لنا الفرصة لرسم أهداف هذه الرسالة ، والتشاور حولها مع إخواننا ، والعمل على توحيد التصورات وتنسيق الجهود. وإذا كانت الصهيونية العالمية قد نجحت فى تحقيق الاتصال بين شتات اليهود فى العالم ، والتنسيق بين جهودهم ، فإن علينا - نحن المسلمين - أن نفعل الشئ نفسه لأنه واجب شرعى ، هذا بالاضافة إلى ما للالتقاء الشخصى والعلاقات الأخوية من أهمية كبرى تتجاوز حدود القوالب الرسمية، لأنها وحدها هى التعبير الصادق والجيد والواضح عن الأخوة والوحدة الإسلامية.

إن باستطاعة المسلمين اليوم أن يحملوا إلى الغرب رسالة الفجر، وباستطاعة الإسلام أن يستعيد سطوته التى كانت له خلال القرن الأول للهجرة.. حين نشر جناحيه على قمم جبال الهمالايا .

لقد أخذت الحضارة الغربية تشعر باخفاقها ، سواء فى مثالها الأميركى، أو فى مثالها السوفياتى. فالعالم الثالث يموت بسبب افتقاره إلى الوسائل ، بينما العالم الغربى يموت بسبب افتقاره إلى الغايات. ثم إن علوم الغرب وتقنياته قد وضعت طاقات رجل عملاق فى يدى قزم منحرف ضال..!

ولأنها وجهت إلى خدمة أغراض القوة والمتعة والنمو ، فإن هذه العلوم والتقنيات أدت إلى أن نطلق اسم "السلام" على ذلك التوازن القائم على الرعب ، والذى قد يؤدى بكلتا القوتين العظميين المتجابهتين إلى القضاء على الكرة الأرضية بأسرها .

إننى أوجه كلامى إلى الملايين من الغربيين الذى يقدرون فداحة هذا الخطر ، وإلى الملايين من نوى النوايا الصادقة فى كل العالم : الذين يبحثون قلقين . فى هذا الليل الدامس، عن معنى لحياتهم وموتهم وتاريخهم المشترك... إلى كل هؤلاء يستطيع الإسلام أن يجئ بالنور المؤدى إلى الصراط المستقيم الذى يهدى الله إليه عباده.

* * *

منذ أكثر من خمس عشرة سنة زارتنى فى مكتبى بإدارة الأزهر القديمة الأخت الفرنسية "فاطمة الزهراء" أو "كارولين باسكال" سابقا .

فتاة لم تتجاوز السابعة والعشرين . تخرجت فى " السوربون" وبالذات فى مقارنة الأديان.

قالت وهى تبتسم : ذلك هدى الله يهدى به من يشاء!

قلت هذه حقيقة يا أخت " فاطمة " لكن ألم يكن لدراستك أثر مباشر فى هذا" التغيير أو هذا التحول.؟

قالت "فاطمة" أو "كارولين " سابقا.

- بلى كان لتخصصى فى علم "مقارنة الأديان" أثر مباشر بل أثر قوى ومؤثر.

لقد جاء تحولى إلى الإسلام بعد أن قرأت ما كتبه "باسكال" عن خطيئة آدم. الأولى وعن تحمل أبنائه وزرها إلى يوم القيامة.

وهل يمكن للعقل أن يقتنع بمثل تلك الأقوال؟

ما الرأى، أولا ، فى ألم الحيوان ؟ أنا مثلا أضرب كلبا ، إنه يعوى من الألم ، وإن كان يتألم ، فهل يجب أن يقال إنه انحدر من صلب أبيه الأول الذى أكل هو أيضا من طعام محرم؟ أم هل يجب أن يعد معاقبا من أجل غلطة آدم مع أنه لم يمكن للكلاب فى هذا شأن يذكر ، وهذا ظلم بالغ حدا لقسوة ؟

ومن ناحية أخرى ماذا يقال عن آلام الإنسانية ..؟

يقول بسكال: " لا شئ يزحم العقل الإنسانى بالألم كعقيدة الخطيئة الأصلية ، وأنه ليبدو أبعد ما يكون عن العقل أن يعاقب إنسان من أجل خطيئة اقترفها أحد أسلافه منذ أربعة آلاف سنة ". وكم يبدو غريبا أن يحكم على طفل بالألم من أجل خطيئة لم يكن هو نفسه قد ارتكبها ، ولم يكن قد غمس فيها أصبعا بأية وسيلة ، بل لم يعرف عنها شيئا إلا من التاريخ ، وقبل ميلاده بآلاف السنين.!

لكى يكون المرء مسئولا ، ومعاقبا بالعدل ، يجب أن يكون المرء حرا فى مقاصده ، وبدون ذلك فليس ثم مكان للأهلية بالفضيلة ، ولا للسقوط بالاثم.

وأتى القرن الثامن عشر ، والكنيسة تحلم بإعادة سابق سيطرتها على العالم الأوروبى ، وتسعى جاهدة لاسترداد ما فقدته من سلطان على الضمائر

والنفوس والقلوب، وشعر كبار الكتاب بالخطر يتهدد الإنسانية فى صورة محاكم التفتيش ، فحمل "فولتير" و"روسو" وغيرهما حملة شعواء على رجال الدين المسيحى، وتخطت حملتهم رجال الدين إلى المسيحية نفسها ، فأخذوا يقوضون قيمها، بمعاول من فولاذ .

بيد أن أبحاثهم – وإن كانت تستهوى الأديب – لبلاغة الأسلوب، وجمال التعبير، وقوة المنطق ، فإنها لم تكن تتسم بالصورة العلمية الحقيقية ، وكانت تبدو ، عند المتمعن ، كأنها ثأر ثائر لا يبالى ، فى سبيل الغاية ، بالوسائل التى يسلكها، ومن أجل ذلك كانت أبحاثهم متفاوتة القيمة : فيها الضعف ، وفيها القوة وفيها الحقيقة، وفيها الوهم ، ولكنها – على كل حال– نالت من قدسية المسيحية ، وعبدت الطريق للنقد العلمى.

بدأ إذن النقد العلمى فى القرن التاسع عشر، وبدأ متسلسلا، ثم أخذ يتغلغل شيئا فشيئا، حتى إذا كان أواخر القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين، شمل النقد المسيحية من جهة عقيدتها، ومن جهة كتبها المقدسة.

كتب "رينان" عن المسيح عليه السلام، كتابا يثبت فيه " أن السيد المسيح لم يكن إلها، ولا ابن إله، وإنما هو إنسان يمتاز بالخلق السامى وبالروح الكريمة"!

وإذا قوضت فكرة المسيح الإله ، أو المسيح ابن الإله ، فقد انهارت المسيحية الحالية من أساسها .!!!

ولكن "رينان" لم يكن متطرفا فى حكمه، فقد أثبت على كل حال وجود المسيح وجودا تاريخيا حقيقيا.

وما كان من المعقول قط: أن يؤمن رينان ، ذو العقلية الصارمة ، بألوهية المسيح ، أو بالتثليث أو بالخلاص ، بالطرق التى توجبها الكنيسة، والحمد لله أن أمن بوجود المسيح كحقيقة تاريخية.

ولكن أخرين أخذوا ينقبون فى بطون الكتب، ويتتبعون الروايات ، ويغربلون الوثائق ، فانتهوا إلى عدم الاطمئنان لوجود المسيح وجودا تاريخيا ، ورأوا أن المسيح : أسطورة.

ولقد اشترك الأستاذ "بابيه" أستاذ علم الاجتماع فى جامعة "السربون" مع زميلين له فى تأليف كتاب[1] ينحو هذا النحو الأخير.

وأثبت الأستاذ "بابيه" أن السبب الرئيسى ، بل السبب الوحيد الذى جعل "الأمبراطور قسطنطين" يتخذ المسيحية دينا رسميا ، إنما هو ما رآه فيها من التعصب الذى لا يوجد فى غيرها من الأديان التى كانت منتشرة إذ ذاك فى روما ، ورأى أن هذا التعصب نفسه هو الذى سيربط الأمبراطورية برباط من حديد، فيكون ذلك مقاوما لعوامل التفكك التى تسرى فى شرايين الأمبراطورية.

لقد ابتأس الأمبراطور حينما رأى التفكك والانحلال يسرى فى امبراطوريته المترامية الأطراف، وأخذ يفكر فيما يمكن أن يربط هذه الأشلاء التى توشك أن "تتداعى".

ونظر فى الأديان الموجودة فوجدها ثلاثة أديان متعادلة، كل منها يصارع الأخر ليصرعه ،ولم يكن نظره فى هذه الأديان للهداية والرشد. أو النجاة فى العالم الأخروى، وإنما كان ينظر فى الأديان ليرى أيها أشد تعصبا وأشد تهيؤا واستعدادا للتنكيل بالمخالف، فرأى أن المسيحية يتوافر فى رجالها ذلك، فاختارها دينا رسميا للدولة من أجل هذا السبب فحسب.!!

(١) تاريخ المسيحية.

تقول الأخت فاطمة :

إن فى فرنسا الآن خمسة ملايين من المسلمين.معظمهم قدموا بالطبع من خارج فرنسا ، أى من المستعمرات الفرنسية السابقة فى شمال وغرب افريقيا .

كما أن فى فرنسا أكثر من ألف مسجد.. وهى مساجد تتراوح بين المسجد الجامع أو الزاوية.. أو المصلى.!

أقدمها مسجد باريس . وهو مسجد اقامته فرنسا تخليدا لذكرى الجنود المسلمين الذين قتلوا فى صفوف الجيش الفرنسى..!

كان أول إمام لهذا المسجد اسمه " سى غبريط" ! اعتقد أنه كان مغربيا كما كان صوفيا .. صوفيا من النوع الذى يرى فى المستعمر أو الغاصب "ولى أمر"!! وبالتالى تجب طاعته على كل مسلم كما كانت تجب طاعة الخلفاء وأمراء المؤمنين فى سالف الزمن والعصر.!

كما أن فى فرنسا وغيرها من دول أوروبا مراكز إسلامية كثيرة . وهى مراكز تتراوح أيضا بين مركز إسلامى مركزى لجميع المسلمين أو مركز "عائلى " أو "قومى" لبعض الجنسيات التى تلتقى فى هذه المراكز لدراسة شئون الجالية الخاصة ، أو التعاون فى عمل مشترك بيسر أحوالهم المالية والمادية.

ألوف المراكز وألوف المساجد فى مختلف أقطار أوروبا . ولكنها مراكز بلا تأثير حقيقى . وبلا أثر عقلى فى تقديم الإسلام إلى غيرهم كما ينبغى!

لقد حمل معظم المسلمين فى هذه الأقطار الأوروبية كلها عاداتهم. وتقاليدهم بل وخلافاتهم سواء أكانت هذه الخلافات مذهبية أو سياسية أو حتى إقليمية! صحيح توجد محاولات جادة وصادقة لجمع الشمل. وتوحيد الصف .

إنها محاولات لا بد أن تنجح .. ولا بد أن يعى المسلمون ذلك جيدا حتى لا يضيعوا كما ضاع كثيرون فى بلاد المهجر.

أخيرا تقول الأخت فاطمة: عندى سؤال أرجو أن تجيبنى عنه بصراحة.

- هل المسلم سئ الخلق .. أفضل .. أم أسوأ من الشخص - غير المسلم - الحسن الخلق؟

إننى (أى هى) تميل إلى - أن غير المسلم - الحسن الخلق أفضل من المسلم السئ الخلق..

* * *

وأقول للأخت المسلمة :

لقد دخلنا فى " العميق " ... وهو مثل شعبى فى مصر يعنى السياحة فى البحر إلى المنطقة الخطرة ، حيث يواجه الإنسان الموت غرقا ، أو يواجه الحيتان وأسماك القرش، التى تفترسه افتراسا ، أو تذهب به إلى هاوية سحيقة لا يخرج منها أبدا ..!

ولست أدرى ؟ لماذا خطر ببالى هذا " المثل الشعبى " حين بدأت الإجابة على هذا السؤال؟

ولكى اعتقد أن هذه المصادفة القدرية لا تبعد كثيرا عن الإجابة المطلوبة عن السؤال. ذلك .. لأن سوء الخلق .. والموت سيان ...!

وكما يقول شاعر مصر الكبير أحمد شوقى :

ألا إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا



لو طبقنا أو استرشدنا بهذا المعنى الذى أورده الشاعر فى هذا البيت فى تتبع أسباب قيام الحضارات أو انهيارها لوجدنا ذلك صحيحا مائة فى المائة. ينطبق هذا على الحضارات القديمة كلها .. فى الهند .. وفى الصين وفى فارس، وفى روما وفى بغداد ودمشق والأندلس والقاهرة .، وفى الحضارة الأوروبية اليوم.

ولماذا استشهد بقول شاعر بينما يقرر القرآن ذلك صراحة :

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ [الإسراء].

وقد قرئت هذه الآية بلفظ (أمرنا) بدلا من (أمرنا) ، ويعنى ذلك أنه حين يتولى أمور الناس الفسقة والطغاة والفجرة ينتهى شأن هؤلاء الناس وتذهب ريحهم من هذه الدنيا.

ألم أقل لك أيتها الأخت أننا قد توغلنا فى المنطقة " الخطرة" من البحر؟

ولكن ما الحيلة إذا كان هذا هو الواقع والحقيقة؟

وقبل أن تجرفنا التيارات والعواصف بعيدا عن "الإجابة" .. أو عن (الهدف والغاية) من هذه الإجابة .. تعالى معى أولا. نقرأ ما يقوله الله لنبيه ، وما يقوله النبى لأمته عن الأخلاق وأهميتها فى قيام الحضارة وتربية الأمم والشعوب على الخير والحق والفضيلة :

لقد كان من أبلغ ما وصف الله به نبيه قوله له : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾.[القلم]. هذا الخلق العظيم الذى عرف به النبى - قبل مبعثه - هو الذى جعل مشركى مكة مرغمين على الاعتراف بصدقه وأمانته ، وجعل من أبى

سفيان رغم ما كان بينه وبين النبى من عداوة .. يعترف بطهره ونقائه وجعل من "هرقل" شاهد حق على صدق نبوته ورسالته.

وهذه هى مؤهلات النجاح فى أية دعوة أو رسالة ، فالتطابق بين القول والعمل ، والارتباط بين السلوك والفكر ، والامتثال والتوافق بين الظاهر والباطن هو الذى فتح للمسلمين أفاق العالم.. فتح لهم القلوب قبل أن تفتح المدن ، وفتح لهم الطرق والمعاقل قبل أن يتحرك الجيش .

وهل يخطر ببالك أن شعبا مسيحيا هو شعب (حمص) فى سوريا ، يطلب من جيش أجنبى (هو الجيش الإسلامى بقيادة أبى عبيدة بن الجراح).. يطلب من الجيش الإسلامى ألا يخرج من المدينة خوفا من قدوم جيش مسيحى (هو جيش الرومان)؟..

ولكن هذا ما حدث .. أما لماذا؟ فكما يقول المؤرخ المسيحى توماس أرنولد – على لسان أهل حمص:

".. أنتم أيها المسلمون أحب الينا من الروم – وإن كانوا على ديننا – أنتم أوفى لنا وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا".

ثم قول : سير توماس ارنولد بعد ذلك : إن أهل حمص غلقوا أبواب مدينتهم حتى لا يدخلها جيش هرقل[1].

وقد حدد رسول الله الغاية الأولى من بعثته ، والمنهاج المبين فى دعوته فقال: " إنما بعثت لأتم مكارم الأخلاق".

فكأن الرسالة التى خطت مجراها فى تاريخ الحياة ، وبذل صاحبها جهدا

(١) الدعوة الى الإسلام – سير توماس أرنولد – ص٧٣ – ط القاهرة –١٩٧٠م.

كبيرا فى مد شعاعها وجمع الناس حولها ، لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم ، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم. حتى يسعوا إليها على هدى وبصيرة...

والعبادات التى شرعت فى الإسلام واعتبرت أركانا فى الإيمان به ليست طقوسا مبهمة من النوع الذى يربط الإنسان بالغيوب المجهولة، ويكلفه بأداء أعمال غامضة وحركات لا معنى لها بل هى تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة ، وأن يظل مستمسكا بهذه الأخلاق، مهما تغيرت أمامه الظروف...

والقرآن الكريم والسنة المطهرة ، يكشفان - بوضوح- عن هذه الحقائق.

فالصلاة الواجبة عندما أمر الله بها أبان الحكمة من إقامتها ، فقال:

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ [العنكبوت]

فالأبعاد عن الرذائل ، والتطهير من سوء القول وسوء العمل، هو حقيقة الصلاة ، وقد جاء فى حديث يرويه النبى عن ربه :

" إنما اتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى ، ولم يبت مصرا على معصيتى ، وقطع النهار فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب"(١).

* والزكاة المفروضة ليست ضريبة تؤخذ من الجيوب ، بل هى :

أولا - غرس لمشاعر الحنان والرأفة ، وتوطيد التعارف والألفة بين شتى الطبقات.

---

(١) البزار- خلق المسلم - محمدالغزالى - ص ٥ وما بعدها.

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) ﴾ [التوبة]

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) ﴾ [البقرة]

* وكذلك شرع الإسلام الصوم لنفس الغرض والغاية يقول الرسول ﷺ : "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه".[(١)]..

وقال :" " ليس الصيام من الأكل والشرب ، إنما الصيام من اللغو والرفث .. فإن سابك أحد . أو جهل عليك . فقل : إنى صائم"[(٢)].

والقرآن الكريم يذكر ثمرة الصوم بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) ﴾ [البقرة]

* وكذلك يمكن أن نقول عن فريضة الحج :

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) ﴾ [البقرة]

---

(١) البخارى..

(٢) ابن خزيمة.

"على أن بعض المنتسبين إلى الدين. قد يستسهلون أداء العبادات المطلوبة، ويظهرون فى المجتمع العام بالحرص على إقامتها وهم – فى الوقت نفسه – يرتكبون أعمالا يأباها الخلق الكريم والإيمان الحق".

ومن المعروف بداهة .. أن الإسلام يتكون من شعبتين رئيسيتين :

أولاهما :

العقيدة وهى الإيمان القلبى الصادق الذى لا يعتريه شك ولا ريبة.

وثانيهما :

الشريعة ، وهى الجانب العملى والتطبيقى لشرائع – الإسلام وآدابه وأحكامه فى هذه الدنيا.

إن العقيدة شعور داخلى فى القلب لا يعلمه إلا الله وحده .. ومن ثم.. فلسوف يتحدد موقف الإنسان يوم القيامة أمام الله حسب هذا الاعتقاد وهذا الإيمان.

أما الشريعة أو الأحكام والآداب والفرائض والواجبات فهى أعمال ظاهرية يعرفها الناس ، ويحكمون على صاحبها بالإسلام ، وما دامت الأعمال الظاهرة هى التى يحكم بها على صاحبها فى هذه الدنيا.

فسأرد عليك بصراحة كماتطلبين.

إن غير المسلم الحسن الخلق .. فى هذه الدنيا . أحسن من المسلم سئ الخلق!

أما فى الأخرة فإن الحساب هناك إنما يكون بالإيمان بالله الواحد الأحد وبالنبى الخاتم سيدنا محمد.!

وكما يقول الإمام بن تيمية ان الله ينصر الدولة العادلة مع الكفر ، ولا ينصر الدولة المسلمة مع الظلم، وانظرى إلى ما يقع فى عالمنا اليوم لتعلمى أن ما قلته هو الحق!!!!

منذ حوالى عشرين عاما زارنى فى مكتبى بإدارة الأزهر سفير جزائرى سابق .. لقد حدثنى هذا الأخ عن أحد الأساتذة الذين أسلموا عن طريق القراءة والبحثفقال:

لقد أعجب الرجل بالإسلام أيما إعجاب فقدوجد فيه ماكان يفتقده فى غيره من الأديان وبلغ من شدة حماسه أن قرر زيارة بلاد المسلمين ليرى بنفسه كيف تنعم هذه البلاد بالحياة فى ظل الإسلام..!!!

لقد بدأبالجزائر والمغرب وتونس .. و ... ولم يكمل الرجل رحلته ثم قفل راجعا إلى فرنسا ..

وحين سأله أصدقاؤه لماذا لم تكمل رحلتك إلى بلاد الشرق ؟ قال هذا : الأستاذ الفرنسى المسلم.

الحمد لله الذى جعلنى مسلما .. بالإسلام ... وقبل أن أرى أحداً من المسلمين..!!

وهذه العقبة الكبرى فى حركة سير الإسلام فى أوروبا وأميركا ، وبالرغم من هذا كله.

فإن الإسلام . يعلو .. وينتشر . وبين أرقى الطبقات، وفى فرنسا بالذات.

لقد بدأت الحقيقة تتكشف. والأكاذيب تهوى وتتحطم. فمنذ سنوات كتب أحد المفكرين فى فرنسا مقالا مثيرا تحت عنوان ـ هـؤلاء الفرنسيون اختاروا الله!!!

وقد ركز فى مقاله على شخصية فرنسية مشهورة وهى " الكونت دو" فماذا قال : هذا الكاتب عن "الكونت"؟

وأى مفاجأة تلك التى هزت كيانه من العمق .!

فلنستمع إليه وهو يحدثنا قائلا:

الكونت "دو..." يمثل فى نظرى فرنسا القديمة بملوكها وكنيستها ، أنه يمت لى بصلة القرابة عن بعد ، وكان مصورا فوتوغرافيا للبابا بولس السادس وهو مغرم بعلم اللاهوت ، وإلى جانب ذلك فهو من كبار الجامعين للمؤلفات الفنية.

اعتاد فى ولائم الأسرة أن يصف لنا آخر صورة للسيدة العذراء التى أتم رسمها كما كان كثيرا ما يقودنا إلى تاريخ القساوسة الطويل، ويصف أعمال القديسين الباهرة.

وفى العام الماضى تفجرت بيننا مفاجأة مذهلة ! كنا جلوسا حول المائدة عندما صاح الكونت " المسيح ابن الله "، ومريم أم الإله ، هذا كلام ما عاد محتملا! هيا .. دعونا من هذا فالله ليست له أم وليس له ولد! وفوق كل ذلك فهو ليس الكائن الذى اخبرونا عنه ، بأنه ظهر فى القدس يصنع المعجزات منذ ألفى عام ، الله ليس هذا الإنسان .! قال الكاتب الفرنسى : " غلبتنا الدهشة لهذا التحول الخارق، بيد أننا لم نضطرب بعدما تكشفت لنا الحقيقة ، وعرفنا أن الكونت "دو..." قد اعتنق الإسلام.!

إن آخرين فعلوا مثله ، فليس هو الوحيد الذى غير دينه.

هذا ؟ روجيه جارودى" أعلن إسلامه ، وهو مفكر فرنسى نابه ، وعضو قديم فى الحزب الشيوعى، والقائد "كوستو" أسلم هو الآخر!

و " موريس بيجار " أسلم وانضم إلى المذهب الشيعى!

و "ديران سوفلان " مراسل جريدة "لومند" دخل الإسلام أيضا .

ثم "فانسان مونتيل" المتخصص فى الدراسات الإسلامية هو كذلك أحد المرتدين -يقصد الكاتب أنه ارتد عن المسيحية- وهناك عشرات من المفكرين والفنانين والمغامرين تحولوا من المسيحية إلى الإسلام، بل هناك أضعاف ذلك من الشبان الحدثاء الأسنان الذين عرفوا الإسلام فى المغرب ، والهند، والباكستان.

أعمارهم بين الخامسة والعشرين والثلاثين، وقد قرروا أن يعبدوا الله وحده، ومضوا فى الطريق الذى آثروه!

وكنيسة باريس السيئة الظن بالأمور - هكذا يقول الكاتب - تحصى الذين اعتنقوا الإسلام من أصل فرنسى بمائة ألف مسلم ، وهذا الإحصاء لم يجمد، فمنذ سنتين أو ثلاث يزيد هذا العدد ، هل زاد عشرين ألفا ؟ أو خمسين ألفا ! لا ندرى !

ويستأنف "تييرى دى بومون" حديثه قائلا : إننى استطعت أن أفهم حركة المنضمين إلى المذاهب المنحرفة خلال السبعينات من أتباع " من يونج مون" و "جمورماراجى" "وهارى كريشنا" .

بيد أننى كنت على مسافة مائة ميل من التفكير فى أن فرنسيين يعتنقون الإسلام! أتكون هذه القضية مغالطة تاريخية أخرى ؟ أم ماذا؟

ورأيت إشباعا لفضولى أن أذهب لرؤية الكونت ، أعرف شقته التى يقطنها أنها تشبه المتحف الذى يضم تراث الأجداد، وبها أخشاب مزخرفة ، وأثاث من القرن الثامن عشر ، وتماثيل غريبة.

ورأيت أمام المدفأة الموجودة بالصالون تمثالا "لجان دارك" وهى تشير بيدها فى اتجاه الدهليز ، وبينا أنا غارق فى التأمل سمعت الكونت يقول لى : ألا تحب أن تزور الغرفة التى أصلى فيها؟

وتبعته فى ممر مظلم، ومررنا أمام حمام، فأشار إلى مغسل قديم -بانيو- من القصدير -وكان قطعة أثرية رائعة حقا- وقال : هنا أتطهر أولا للصلاة ثم انتقلنا إلى غرفة صغيرة بها كرسى ، وسجادة ، ولاحظت أن هناك خطا أبيض مرسوما على الأرض "الباركيه" ، لعلة يحدد القبلة !

قال الكونت : فى هذه الغرفة كان يجتمع رهط من كبار العلماء، ومن الشيوخ الصالحين، كنا نقيم الصلاة هنا ! خلف كنيسة "سانت جيرمان دى برى" .!!

قال الكاتب الفرنسى : عندئذ خامرنى إحساس غريب، لقد تغيرت نظرتى للمتعصبين الفوضويين الذين يعلنون على الغرب حربا مقدسة، إن هذه النظرة تلاشت وحل مكانها شعور أخر ! أساسه أن فرنسا إذا أسلمت فسيتم ذلك من الداخل، لا من غزو خارجى!!

ومضى تفكيرى فى مجراه : إذن فى الأوقات المختلفة فجرا أو عصرا سوف يفرش آلاف الفرنسيين سجاجيدهم ، وسوف يركعون ويسجدون بعد أن يستمعوا إلى مؤذن منهم يصيح: الله أكبر الله أكبر ..!! أما النساء فسيضعن على رؤوسهن مناديل من القماش ، وينفردون فى صفوف خاصة.

وتخيلت فرنسا كلها وقد اعتنقت الإسلام ! ماذا سيحدث ؟ لن تجد سكارى فى الطرق ولن تبقى هناك تماثيل ، ولا إعلانات جنسية ، ولا برامج منوعات، وستتحول الكنائس إلى مساجد ، ويعاد طلاؤها باللون الأبيض! والمحال التى تبيع لحم الخنزير ستغلق أبوابها بعد أن تفلس!!

فى شارع " الشانزلزيه " لم أنبهر بأى شئ. يمكن أن تقول : إننى رجل أعمى .. أو رجل فقد حاسة الجمال والذوق أو شيخ قادم من أعماق ريف الدلتا أو الصعيد .. كل هذا جائز ووارد.. وللناس فيما يعشقون مذاهب!

فى هذا الشارع ذهبت إلى مقهى قريب من "قوس النصر" طلبت فنجانا من القهوة ولكن أية قهوة ؟ إن قهوة المعلم " ميفة" التى كانت تقع فى مواجهة قاعة الإمام محمد عبده. فى شارع "كفر الطماعين" أطيب وألذ من قهوة " الشانزليزيه" مائة مرة .. لكن مع فارق أخر أهم .. فثمن فنجان القهوة فى "مقهى" المعلم" ميفة" كان خمسة مليمات فى ذلك الوقت بينما دفعت مرغما أكثر من عشرين فرنكا فى المقهى الفرنسى القريب من "قوس النصر"!

فى طريق عودتنا من "باماكو" عاصمة" مالى" إلى القاهرة على متن طائرة "ايرفرانس" قضينا فى "باريس" حوالى تسع ساعات لقد عرضت "شركة ايرفرانس:" النزول فى فندق للاستراحة بعض الوقت.

لقد رفضت العودة مرة ثانية إلى "بارس" وبقيت فى صالة "الترانزيت" مع السيد/ علاء أبو العزايم الذى كان مسافرا إلى أميركا مباشرة من المطار.. أحسست بالجوع .. فذهبت ومعى السيد / علاء إلى "كافتيريا" قريبة من صالة الخروج. .. بيضة واحدة .. وقطعة جبن باردة .، وقدح من الشاى لا تعرف له طعما ولا رائحة. أتدرى كم دفعنا فى هذه الوجبة ؟ لن تصدق أيها القارئ ... ولن يخطر ببالك قيمة المبلغ الذى دفعه السيد/ علاء أبو العزايم .. لقد دفع أكثر من اثنين وعشرين دولارا فى وجبة لا تزيد قيمتها فى أى مطار فى العام على ثلاثة دولارات؟ والأدهى من ذلك وأمر أننا تعرضنا فى شارع " الشانزليزيه" لحادثة نشل .. لكنها لم تتم لحسن الحظ .. فقد أمسك الدكتور أحمد شوقى بالنشال قبل أن يهرب ويفر!

حتى "سويسرا" التى ذاع صيتها فى جميع أنحاء الدنيا .. لا تزيد فى نظرى على "كازينو" عالمى للقمار ، أو " بنك دولى" للأموال المسروقة والمهربة ، أو "سوق سرى" لبيع السلاح لمن يشترى هذا السلاح. أو "بورصة" كبرى للعمولات والسمسرة!!!

إن مدينة "فيينا " عاصمة النسما أقرب إلى قلبى من باريس ألف مرة . والمصيبة الكبرى أن أحد شيوخ الأزهر الكبار الذين تعلموا فى فرنسا أعلن أن لو كان "للجنة" عاصمة فى هذه الدنيا لكانت "باريس" هى عاصمة هذه "الجنة"!!!!!

مسكينة المطربة " اسمهان" فعندما غنت لمدينة "فيينا" أغنيتها المشهورة.

ليــالى الأنس فى فيينــا

نسيمها من هوى الجنــة

نغم فى الجـو له رنـــــة

سمعها الطير بكى وغنى

"فيينا" روضة من الجنـة

حين غنت "إسمهان " هذه الأغنية اتهمها البعض بالفسوق والزندقة! إذ .. كيف تصف " فيينا " بروضة من الجنة ... بينما هى لم تر الجنة أصلا!

ترى ماذا كانت تقول اسمهان فى قبرها لو جاز للموتى أن يتكلموا ، حين تسمع أن " فتوى" شرعية صدرت بنقل عاصمة " الجنة" إلى باريس بدلا من "فيينا" ... وبالتأكيد .. لم يتهم أحد صاحب هذه "الفتوى" بالزندقة لأن هذه "الفتوى" صدرت عن شيخ معمم .. وما دام شيخا معمما فلا يستطيع أحد أن يتكلم.

بريطانيا
الأمبراطورية
التى غابت عنها
الشمس

بريطانيا الأمبراطورية

التى غابت عنها الشمس

من زمان..

وفى منتصف الثلاثينات من القرن الماضى لم أكن أعرف شيئا لا عن بريطانيا ولا عن لندن. حتى جاء يوم ذهبت فيه إلى "وابور الطحين" فى قريتنا . فقرأت لوحة كانت مثبتة على قارب الحبوب فى هذه الماكينة أو هذا "الوابور" وقد كتب عليها "صنعت فى لندرة" عاصمة انجلترا !

حتى هذه الكلمات لم تزدنى معرفة بأى شئ عن بريطانيا .. كانت كلمة "الإنجليز" هى الشائعة - وكنا إذا رأينا طائرة تعبر فى سماء القرية ندعو على ركاب هذه الطائرة.

يا عزيز يا عزيز ... داهية تأخذ الإنجليز!

فلم نكن نتصور فى هذا الوقت أن هذه الطائرة مصرية .. أو أن من بين ركابها أحدا من المصريين.!

وفى عام ١٩٣٦ ظهر "الراديو" ولأول مرة فى قريتنا . بل وفى القرى المجاورة لها .. كان عمدة القرية "محمد شلبى" قد اشترى هذا الراديو من وكيل شركة "تليفونكن" . وكان هذا الراديو يعمل بالبطارية الجافة التى كانت تشحن كل شهرين فى مدينة القاهرة.

لم يصدق الفلاحون .. أن الخشب ينطق.. بل قال أحد الناس الطيبين ذات ليلة.

إن هذا الصندوق تسكنه العفاريت والجن.!

فرد عليه فلاح نابه :

كيف تسكنه العفاريت والجن يا حاج محمد ونحن نسمع منه القرآن بصوت الشيخ محمد رفعت.؟!!

وكانت إجابة مفحمة .. لم ينطق بعدها الحاج محمد بكلمة واحدة.!

وفى إحدى الأمسيات . وبعد الفراغ من تلاوة القرآن . سمعت فى نشرة الأخبار التى كانت تلى قراءة القرآن مباشرة . سمعت فى هذه النشرة " أن رئيس وزراء بريطانيا " نيفيل تشمبرلين قام بزيارة تفقدية إلى " أيرلنده" الشمالية لمتابعة الوضع المضطرب فى هذه المقاطعة . وبخاصة بعد مطالبة جمهورية "أيرلندة" بعودة الجزء الشمالى المغتصب إلى الوطن الأم .. وبعد أن هدد "ديفاليرا" رئيس جمهورية أيرلنده بإعلان الثورة على القوات البريطانية فى "ألستر" و "بلفاست".

فالحركة الانفصالية فى شمال أيرلنده قديمة . والدعوة إلى عودتها إلى الوطن الأم كما يقول حزب "شين فين" ليست جديدة.

* * *

ثم قامت الحرب العالمية الثانية . ووجدت "مصر" نفسها "بين شقى الرحى" .. فبينما كان "روميل" يتقدم لاحتلال الاسكندرية من جهة الغرب. كانت الدبابات البريطانية تحاصر "قصر عابدين" لارغام الملك على التنازل عن العرش أو وقوفه مع بريطانيا فى هذه الحرب.

وبينما كنت أسير فى " ميدان الأزهر" متجها إلى شارع الموسكى إذ بى أفاجأ بكتاب معروض للبيع فى إحدى المكتبات المنتشرة فى شارع "الصنادقية"

فى هذا الوقت كان اسم هذا الكتاب " الإنجليز فى بلادهم " كان مؤلف الكتاب مصريا اسمه "الدكتور حافظ عفيفى" لقد اشتريت الكتاب وبقرش صاغ واحد! وما كدت أفرغ من قراءته حتى تساءلت بينى وبين نفسى.

أصحيح ما كتبه المؤلف؟ وهل " الإنجليز فى بلادهم" على هذه الدرجة من الأدب؟ ثم كيف نوفق بين ما كتبه المؤلف وبين ما يفعله الإنجليز هنا فى مصر وفى غيرها من بلاد المسلمين والعرب؟

بل كيف يجرؤ كاتب على كتابة مثل هذا الكلام فى الوقت الذى يتمنى فيه كل مصرى ومصرية هزيمة الإنجليز فى هذه الحرب؟

وتمضى بنا الأيام والسنون فى قافله الزمن .. لقد تغير كل شئ فى العالم قامت نظم وسقطت نظم لقد انحسر موج الاستعمار بعد أن حمل عصاه على كاهله ورحل ..!لم تعد بريطانيا ذات أنياب ولا مخالب .. بل أصبحت محمية اميريكية تسير وراء واشنطون ، وأصبح " البيت الأبيض" هو السيد المطلق فى "داوننج ستريت:" أو فى لندن.

وفى عام ١٩٦٩م. حين كنت أعمل آنذاك خارج الوطن ، وفى احدى دويلات الخليج بالذات فكرت فى استئناف دراستى العليا التى توقفت وقررت السفر إلى بريطانيا للحصول على درجة الدكتوراه (P.H.D) من جامعة "كمبردج" أو "اكسفورد" أو جامعة" لندن".

لقد نجح فى هذه المحاولة كثيرمن أصدقائى . فلماذا لا أحاول "أنا" الآخر .. لقد اصبحنا فى زمان يتعامل فيه الناس بالورق . سواء أكانت هذه الورقة "شيك" تصرفه من بنك، أو ورقة تحمل اسم شهادة جامعية من إحدى الجامعات المشهورة فى بلاد الغرب.!

وشددت الرحال إلى لندن .. لقد أعلن قائد الطائرة عن قرب وصولنا إلى مطار" هيثرو" وها هى الطائرة تجرى بعجلاتها فوق سطح الأرض.

وعدت بذاكرتى إلى الوراء ثلاثين عاما ... إلى تلك الأيام التى كانت تصدر فيها "روايات الجيب" لقد كانت هذه " الروايات" - فى الأربعينات من القرن الماضى - نافذة واسعة على عالم الثقافة فى كل الدنيا ، فمن خلال هذه "الروايات" عرفت لندن وشيكاغو وباريس وبرلين وامستردام وغيرها من مدن العالم. ومن خلال هذه الروايات عرفت شكسبير . وتشارل ديكنز وأجاثا كريستى. لقد تصورت أن يقابلونى فى المطاراستقبال المحب العاشق ..! وفى أسوأ الفروض أن يستقبلنى " أرسين لوبين" أو "شرلوك هولز".!!

قلت لسائق التاكسى :

- إلى محطة "ليفربول ستريت" من فضلك . فقد كانت وجهتى الأولى . أو اختيارى الأول لجامعة كمبردج ، لقد أحببت مدينة :كمبردج" حتى قبل أن أراها، وللسفر إليها طرق كثيرة .. غير أن السائق الأمين اختار اقصرها وأقربها!!

إن فى "لندن" أكثر من خمس محطات للسكة الحديد ... أشهرها جميعا محطة " فكتوريا" ومحطة "بادنجتون

فى القطار المتجه إلى "كمبردج" كان يجلس أمامى فى المقعد المقابل طالب فى الخامسة عشر من عمره.

سألته : هل أنت إنجليزى ؟ Are you English

فرد بعصبية قائلا :

- لا .. أنا من سكوتلاند .No Iam Scot

ومنذ لك حين عرفت أن بريطانيا أو المملكة المتحدة تتكون من مقاطعات أربع:

انجلترا England وهى أكبرها

سكوتلاند Scotland

ويلز Walls

شمال إيرلند North Ireland

وفى هذه الولايات أو المقاطعات تنمو حركة الانفصال والكراهية الآن لكل ما هو إجليزى. والإنجليز هم سكان England أو انجلترا وانجلترا هى الأكبر وبعبارة أكثر دقة هى "الأخت الكبرى" - لهذه المقاطعات الأربع!

* * *

قبل أن يصل القطار إلى " كمبردج Cambridge كانت عربات القطار قد خلت تقريبا من معظم الركاب . وفى العربة التى كنت أجلس فيها لم يكن يشاركنى الجلوس فى هذه العربة سوى رجل انجليزى اسمه مستر"بول" وفتاة افريقية طويلة سمراء من نيروبى عاصمة " كينيا".

لقد سألنى " المستر بول"Paul

- هل أنت من مصر؟

قلت له وكيف عرفت أننى مصرى؟!

قال المستر" بول" وهو يبتسم : لقد عشت فى القاهرة أربع سنوات حين كنت مجندا فى الجيش الثامن البريطانى بقيادة " الفيلد مارشال مونتجمرى".

كانت القيادة العامة للقوات البريطانية تتخذ مقرها فى القاهرة فى شارع سليمان باشا . وبالقرب من فندق "شبرد" القديم قبل أن يحترق فى أحداث ٢٦ يناير.!

ثم عاد يسأل:

– هل تعرف أحدا فى مدينة "كمبردج"؟

– نعم أعرف صديقا يعمل فى الجامعة وإن كنت لا أعرف له عنوانا فى المدينة .. غير أنى أحمل رقم تليفونه.

قال المستر بول : هل استطيع أن أرى هذا الرقم ؟ قلت نعم ثم قدمته إليه. فقال : هذا التليفون فى "كمبردج" فعلا فاطمئن.

ونزلت من القطار إلى "المجهول"..! لقد ظننت أن المستر "بول" سيتركنى ويذهب إلى حاله غير أن الرجل لم يفعل .. لقد اتصل برقم صديقى فى التليفون. ثم أعطانى "السماعة" لأتكلم.

لا تتصور فرحتى أيها القارئ . . التفت إلى المستر "بول" لأشكره فقال: ليس الآن ولكن بعد أن أحملك فى سيارتى إلى بيت صاحبك!!!

كان المستر "بول" يعمل فى مدينة "لندن" وفى صباح كل يوم كان يركب سيارته ويتركها فى "جراج" قريب من المحطة ، ثم يواصل رحلته بعد ذلك بالقطار إلى مدينة لندن.!

وتذكرت الدكتور حافظ عفيفى ! لقد كان الرجل صادقا فيما كتب فالإنجليز هنا .. غير الإنجليز فى مصر !.. والرجل لم ينس ذكرياته فى "القاهرة" بالرغم من مضى أكثر من ربع قرن.!

فى شارع "هينتون أفينيو " Hinton Avenue كانت إقامتى مع أسرة إنجليزية كنا فى هذا البيت مجموعة من مختلف قارات العالم .. واحد المانى ، وواحد سويسرى ، ورابع إيطالى ، بالاضافة إلى طالب أسيوى هو "تورجوت" . وآخر "مكسيكى" هو " كارلوس" وثالث أفريقى وهو "أنا"..!

كان أول عمل قمت به بعد استقرارى فى هذا البيت الالتحاق بمدرسة خاصة لتعليم الإنجليزية .. وقد نصحنى الأخوة العرب بالالتحاق بمدرسة "ستوديو سكول - أف - أنجليش"Stodiu School of English كانت هذه المدرسة تقع قريبا من البيت الذى أسكن فيه وفى شارع قريب من محطة السكة الحديد Station Road corner

كانت بداية هادئة وجميلة. غير أنى لاحظت - بمرور الوقت - من الدارسين الذين كانوا يقيمون معى فى البيت. أمورا غريبة بعد أن عرفوا أننى مسلم!

عرفوا ذلك حين كنت أتحدث إلى صاحبة البيت بألا يحتوى طعامى على لحم الخنزير .. وأن تتفضل مشكورة بعدم وضع أى مسكر أمام مقعدى فى غرفة الطعام..!

فالإسلام كما عرفوه ، ودرسوه دين همجى..! وأتباعه لا بد وأن يكونوا على شاكلته وإن عاشوا فى مجتمع حضرى..!

وقد لاحظت أيضا ..

أن صاحبة البيت - الذى كنت أنزل فيه مع هذه المجموعة - بدأت تراقبنى خفية ..! كانت تتعمد دخول " الحمام" بعد خروجى منه .. وتزور حجرتى بعد الذهاب إلى المعهد الذى كنت أدرس فيه ، وترصد حركاتى طوال الوقت حين أكون موجودا بالبيت..!

وبعد حوالى أسبوعين وجدتها تدخل على فجأة .. كان اليوم يوم أحد .. وكان كل من فى البيت نائما بعد سهر طويل فى نوادى الليل .. وكنت دون غيرى اليقظ الوحيد بين أهل الكهف..!

قالت المسز" داى"(Dye) وهذا هو اسمها :

- أريد أن أعتذر إليك ..! فقدلاحظت أنك الوحيد الذى - يحافظ على نظافة البيت ..! كنت أدخل الحمام بعد خروجه منه فأراه كأن لم يستعمل قط .. وكنت أذهب لترتيب حجرتك فأراك سبقتنى إلى هذه النظافة، وهذا الترتيب ، وعرفت أنك الوحيد الذى يحافظ على نظام البيت ومواعيده بالضبط.

ولكن شيئا واحدا يحيرنى ولم أفهمه حتى الآن ..؟!

قلت للمسز "داى" مازحا ..

- وأى شئ هذا الذى يحيرك منى ..؟!

قالت :

فى تمام الساعة الخامسة صباح كل يوم أسمع فى حجرتك حركة وأرى الأنوار مضاءة.

فماذا يحدث عندك صباح كل يوم فى هذه الساعة المبكرة ..!

قلت للسيدة " داى" :

فى هذاالوقت أقوم لأصلى الفجر وهى أول صلاة يؤديها المسلم كل يوم .. وبعد الصلاة أجلس لأقرأ شيئا من القرآن .. كتابنا المقدس .. ثم أتهيأ بعدذلك للنزول إلى غرفة الطعام لتناول طعام الإفطار فى الوقت الذى حددته لنا بالضبط.!

لقد تبدلت المسز "داى" تبدلا كاملا منذ هذه اللحظة، كانت تعاملنى معاملة خاصة تعجب منها الأخ الأستاذ الدكتور عبد الجليل شلبى - إمام المركز الإسلامى فى هذا الوقت - حتى زوجها الرجل الغليظ المشاعر والحس، بدأ يؤثرنى بمودته التى كانت شحيحة حتى بالنسبة لأطفاله الصغار فى البيت..!

كان معنافى البيت دارس فرنسى اسمه "جون باسكال" أبوه من كبار رجال الأعمال فى فرنسا فى مدينة "بوردو" .... لقد دعانى ذات يوم إلى حجرته، وبعد كلمات المجاملة المعروفة وتقديم المرطبات والفاكهة سألنى قائلا:

- هل تعرفنى ..؟

- طبعا فأنت فلان..

قال : لا ... إننى أعنى شيئا آخر ..!

- قلت : ما هو ؟

قال : أنا يهودى ...؟

قلت : وما الغرابة فى ذلك، إننى كمسلم مطالب باحترام اليهودى والمسيحى . فدينى يأمرنى بأحسن المعاملة لأهل هاتين الديانتين بصفة خاصة..

أما إذا كنت تقصد ما بين إسرائيل والعرب فالقضية هنا مختلفة.

فأنا كمسلم يأمرنى الإسلام بقتال أى رجل يريدأن يعتدى على حياتى أو مالى .. حتى لو كان هذا المعتدى مسلما فإن الإسلام يطالبنى بأن أقاتله وأن أدفع ظلمه..

فالقضية هنا ليست قضية يهودى ومسلم .. أو مسيحى ومسلم .. أنها قضية عدوان وظلم .. ودفع الظلم من طبيعة الإسلام .. سواء أكان المعتدى أو الظالم مسلما أو غير مسلم..!!!

قصة الأخت مرجريت :

كنت قد تعرفت على هذه الأخت من خلال حوار دار بينى وبين أحد القساوسة الأنجيليكانيين فى مدينة ستراتفورد .. ولم تدع الأخت مرجريت هذه الفرصة تمر .. فقد احتفظت بعنوانى – حيث كنت أقيم – فى هذا الوقت بعيدا عن الوطن الأم. وحرصت على مكاتبتى في كل ما يعترضها من شبهات تتصل بالإسلام وموقفه من قضايا العدل والحرية فى هذا العصر.

لقد اختارت الأخت مرجريت الإسلام . وانقطت اخبارها عنى .. حتى فوجئت بزيارتها لى قبل عشرة أعوام.

– لقد تحولت تحولا كبيرا يا أخت موجريت..

قلت ذلك .. بعد أن رأيتها فى زى إسلامى سابغ ، وفى سمت دينى وقور..

كانت مرجريت قد تزوجت من أمريكى مسلم ، ولم تنس أن تطلق على ولديها اسمين عزيزين فى قلب كل مسلمة ومسلم . لقد اختارت لولديها اسمى أحمد ومحمد...

أهذه هى مرجريت الإنجليزية ؟ خريجة جامعة كمبردج؟ والفتاة التى انتزعت نفسها من حياة الليل فى اكسفورد ستريت Oxfors St. وماربل أرش (Marble Arch) وأوكار الكوكايين والحشيش فى محطات الأندرجراوند (The under ground)

لم أصدق ما أرى وأسمع ، لقد تداخلت فى عقلى الصور والقيم – والواقع والمثل أمام هذه "البانوراما" الإسلامية التى اسمها مرجريت .. هذه السيدة المسلمة خريجة جامعة كمبردج.. وابنة الأمبراطورية التى واجهت الإسلام –

على امتداد قارات الدنيا – بشراسة وحقد ..

ولكنه الإيمان حين يتمكن فيسمو بصاحبه عن الواقع الأليم المر.. وعن الجنس واللون ، وعن كل زينة عابرة تمنح صاحبها جاها زائفا يذبل ويذوى مع كل لحظة من لحظات العمر.

ألم يقل مولانا " محمد على " فى محاكمة كراتشى الشهيرة ، وهو يواجه محلفين ليس بينهم مسلم.

أن القضية ليست بين محمد على والحكومة .. إنها قضية الله مع البشر.

والمشكل كله .. هل سيكون السلطان لله على الإنسان أم للإنسان على الله ؟

الله الذى وهبهم الحياة ..والشرف والعقيدة والجاه والسلطان والقوة . تلك هى عقيدتى .. فاشنقونى إن شئتم .. ولكن اعلموا أنكم بذلك تنتحرون . إذ تقتلون أرواحكم .. ستكونون أجسادا تتحرك بلا روح .. وجيفا تلقى طعاما للغربان والكلاب..!!!

* * *

قلت للأخت مرجريت مواسيا . وهى تحدثنى عن واقع المسلمين فى العالم كله.

لقد تجاوزت هذه المحنة منذ اختيارك للإسلام .. وأذكر أننى صارحتك بما تشكين منه فى هذه الأيام .. والحمد لله .. فالإسلام.. ليس دين أمه معينة ، ولا دين جنس معين .. إنه دين الإنسانية جميعا حيث وجدت ، وبأى لغة نطقت ، وليس فى الإسلام "كهنوت" أو "اكليروس" أو رجال دين يمسكون بأيديهم مفاتيح

السماء ، أو يمنحون بركاتهم وغفرانهم لكل من يدفع الثمن من الأثرياء ، ولكل من هب ودب فوق هذه الغبراء.

ألم يقل نبينا محمد لأحب أبنائه وبناته فاطمة ، اعملى فإنى لا أملك لك من الله شيئا.

إننا جميعا أحرار فى اختيارنا وفى إيماننا يا أخت مرجريت ، وبمقتضى هذا الإيمان والاختيار يتحدد موقفنا أمام الله ... كما يتحدد وضعنا ومكانتنا فى هذه الدنيا...

صحيح ... أن الواقع الإسلامى ... اليم ... ومر ... وأحوال المسلمين تسئ ولا تسر ولكننا - كما قلت - مسئولون أولا عن أنفسنا .. ولو استقر هذا الايمان واليقين فى قلب كل واحد منا لأمكن تغيير الكثير مما يعوق حركة الإسلام ، ومما ينسب إليه من تهم تسئ إليه فى كل مكان.

لقد بدأ الإسلام غريبا .... وسيعود غريبا كما بدأ ....

* * *

إن بعض اليائسين يفسرون هذا الحديث تفسيرا يتفق مع نظرتهم المتشائمة، أو مع شهواتهم التى اخلدوا بها إلى هاوية سحيقة ... بينما يشير هذا الحديث إلى ظهور الإسلام فى بيئة مشابهة للبيئة التى نشأ الإسلام فيها أول الأمر. من حيث الغرابة النفسية ، والوحشة الفكرية ومن حيث التسامى عن كل مغريات هذه الدنيا وما مثلك ومثل شقيقاتك وأخواتك فى الإيمان إلا حجة قائمة تنطق بهذه الحقيقة.!

وإذا كان العرب والمسلمون قد انفرط عقدهم فى هذا العصر وشاهت صورتهم فى كل بلد وقطر ... فليس لأنهم دون البشر كما وصفتهم صحيفة

الصن (The Sun) - ، بل لأنهم تخلوا عن إيمانهم الذى مكن الله - لهم - به ذات يوم ... ومن يدرى؟ فقد يمكن الله - للإسلام - على أيدى شعوب كانت من ألد أعدائه فوق هذه الأرض....؟!

وداعا يا أخت مرجريت ...

قلت ذلك ... وهى تستأذن فى الانصـراف ... للحاق بالطائرة المتجـهة إلى لندن حيث تعيش أسرتها هناك فى حى هادئ راق اسمه "هامستد" (Hampstead)

لكن وداعا لأى شئ؟

إن القضية ليست قضية مسلمين يتبادلان الرأى والنصيحة بل هى قضيةحياة أو موت - بالنسبة لكل مسلم ومسلمة .نكون أولا نكون كما يقول شكسبير على لسان هملت فى مأساته المعروفة ...

وهى مأساة تتكرر كل يوم مع ألف ومائتى مليون من البشر يمتد وجودهم الجغرافى من أقصى الغرب على شاطئ المحيط الأطلسى .. إلى أقصى الشرق على شاطئ المحيط الهندى.

وهى مأساة تتجدد ، وتتعدد ... وتختلف من بلد إلى بلد .. ومن قطر إلى قطر ، ومن جماعة إلى جماعة بل تكاد تعصف بكل فرد.

* فى أوائل الأربعينات من القرن الماضى ، سافر الكاتب البريطانى المعروف (جورج برنارد شو) إلى (سنغافورة) على ظهر الباخرة.

(The Imress of Greet Britian)

فأجرى معه رئيس تحرير إحدى المجلات حوارا قال فيه :

– قرأت لك مقالا فى صحيفة (Cosmoplitin) تمتدح فيه الإسلام ، وأحب – الآن – أن اسمع رأيك فى الإسلام ؟

– فأجاب : الإسلام دين الديمقراطية وحرية الفكر ... ودين البيع والشراء.. وفوق ذلك فهو دين الجنتلمان ..!!!

– قلت : فما الذى يمنعك من إعلان إسلامك إذن ... وأنت الاشتراكى الجنتلمان؟

– فقال : ازعم ويزعم الناس أنى اشتراكى ، ولكنى لا أدرى هل ما أزعم ويزعمون حقيقة أم لا؟..

أما من حيث الجنتلمانية فلست جنتلمانا ...!

– فضحكت وقلت : ولكنك فى أغلب كتاباتك تعلم القارئ وتحضه على أن يكون جنتلمانا ..؟

– فقال : وكم معلم فى الدنيا يتبع تعاليمه ..؟!!

ألا إن هناك أمرا مهما يجب أن أقوله.

– فسألته : وما هو ..؟

– أجاب : الإسلام شئ .. والمسلمون شئ أخر ... الإسلام حسن ولكن أين المسلمون ..؟!!

– قلت : إذن تعتقد أن المسلمين ليس لهم من الإسلام إلا الاسم . وهل تقارن المسيحية كنظام اجتماعى بالإسلام ..؟

– أجاب : كلا ، ليس فيما أعرف من الأديان ، نظاما اجتماعيا صالحا كالنظام الذى يقوم على القوانين والتعاليم الإسلامية ...!!!

– قلت : ولكن هناك حركات تدل على أن المسلمين بدأوا يستيقظون ؟

– قال : وأين هذا؟

– أجبت : فى الشرق العربى.

– قال : هؤلاء جلهم من أصل عربى، وحركتهم جنسية أكثر منها إسلامية؟!

– قلت : لا أظن ذلك .. ولكن ما رأيك؟

– أجاب : الإسلام لا يستيقظ إلا إذا عمل المسلمون بصفتهم مسلمون فقط وتجنبوا ما نسميه (الروح الوطنية) والغلو فى القومية ..!!

– قلت : فى أوروبا وأمريكا مبشرون إسلاميون . فما رأيك فى هؤلاء؟

– أجاب : لا شك فى أنهم يستحقون العطف ، إذ أننى لا أظن أن المسلمين يقدرون التبشير بالإسلام كما يقدر المسيحيون – على اختلاف مذاهبهم – التبشير بالمسيحية ، فليس للمسلمين جمعية تبشير تضاهى أية جمعية تبشير لأى فرقة مسيحية ..!!!

والذى قاله "برنارد شو" حق مائة فى المائة ! فالمسلمون شئ... بينما الإسلام شئ آخر يختلف عن المسلمين فى كل شئ .!

والفارق كبير جدا بين جمعيات التبشير بالمسيحية وجمعيات الدعوة إلى الإسلام؟

وكثيرا ما قال " جمال الدين " أن الغربيين يستمدون فكرتهم عن الإسلام من مجرد رؤيتهم للمسلمين ، فإنهم يرون المسلمين متخاذلين ضعفاء أذلاء مستكينين ، فرقت بينهم الأهواء والشهوات ، وقعدت بهم الصغائر وانصرفوا عن

عظائم الأمور ، وأصبحوا مستعبدين مستذلين ، ولو كان الإسلام دينا قويا لما كان المسلمون هكذا.

ينظر الغربيون إلى المسلمين فى العصر الحاضر ، وينسون شيئين:

ينسون إن المسلمين فى العصر الحاضر غير متمسكين بالإسلام وتكاد الصلة التى بينهم وبينه تكون مجرد صلة اسمية ، وينسون عظمة المسلمين وقوتهم أيام كانوا متمسكين بالإسلام ، وأيام أن كانت الدنيا لهم.

* * *

كان من أوائل البريطانيين الذين أسلموا اللورد "هيدلى" لقد أحدث اسلامه ضجة كبرى فى بريطانيا لمركزه ، ولما يعلمه فيه عارفوه من نضج فى التفكير، وترو فى الأمور ، وحينما أراد الحج مر بالإسكندرية ، فأقام له الأهالى حفلة كبرى وضعت تحت رعاية الأمير السابق – عمر طوسون- الذى ألقى كلمة حيا فيها الضيف الكريم ابتدأها بقوله :

"مرحبا مرحبا وأهلا وسهلا ، لقد خفت مصر إلى استقبالكم ابتهجت بمقدمكم الكريم ، وكان سرورها بذلك عظيما ، حتى لقد تمنت كل مدينة أن تسعى بأهلها إليكم ، أو يكون لكم متسع من الوقت لزيارتها ، فتقوم بما يجب لكم من الإحلال والإعظام والترحيب والإكرام".

وكانت الحفلة برئاسة صاحب الفضيلة الشيخ عبد الغنى محمود شيخ علماء الإسكندرية.

لكن كيف أسلم اللورد هيدلى ؟

ما هى العوامل التى دعته إلى اعتناق الإسلام؟

يقول اللورد :

"عندما كنت أقضى – أنا نفسى – الزمن الطويل من حياتى الأولى فى جو المسيحية ، كنت أشعر دائما أن الدين الإسلامى : به الحسن والسهولة ، وأنه خلو من عقائد الرومان والبروتستانت.

وثبتنى فى هذا الاعتقاد ، زيارتى للشرق التى اعقبت ذلك ودراستى للقرآن المجيد ...

له الله .. لكم تألم وقاسى فى سبيل وصوله إلى الحق.

استمع إليه يقول :

"فكرت وصليت أربعين سنة ، كى أصل إلى حل صحيح.

ويجب على أن أعترف أيضا أن زيارتى للشرق ملأتنى إحتراما للدين المحمدى[1] السلس الذى يجعل الإنسان يعبد الله حقيقة طوال مدة الحياة ،. لا فى أيام الآحاد فقط ".

ويرى أن الإسلام هو الدين العالمى حقا:

وها هو ذا يعبر عن الشكر حينما هداه الله : فيقول :

" روح الشكر هى خلاصة الدين الإسلامى ، والابتهال اصل فى طلب القيادة والإرشاد من الله.

إنه وإن كان شكرى لله على كرمه وعنايته، كان متاصلا فى ، من صغرى

---

(١) المحمدى أى المسلم .. وهذا التعبير ليس إسلاميا بل شاع هذا التعبير في بلاد الغرب الذين كانوا يقولون : إن المسلمين يعبدون النبى محمد كما يعبدون المسيح فى بلادهم . واللورد هيدلى لا يقصد ذلك

وأيام حداثتى ، فإننى لا استطيع أن أشاهد ذلك من خلال السنين القليلة الماضية، التى قرع فيها الدين الإسلامى لبى حقا، وتملك رشدى صادقا، أقنعنى نقاؤه ، وأصبح حقيقة راسخة فى عقلى وفؤادى ، إذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتهما قط من قبل ، كما استنشق هواء البحر ، الخالص النقى ، وبتحققى من سلامة وضياء وعظمة الإسلام ومجده ، أصبحت كرجل فر من سرداب مظلم ، إلى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار"!

" ليس هناك فى الإسلام إلا إله واحد . نعبده ونتبعه،إنه إمام الجميع ، وفوق الجميع ، وليس هناك قدوس آخر نشركه معه ، إنه لمن المدهش حقا أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباوة فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء ، رؤية ربهم القهار ، المتصل داوما بكل مخلوقاته ، سواء كانوا عاديين ، أو أولياء مقدسين.

مفتاح السماء موجود دائما فى مكانه، ويمكن ادارته بأذل وأقل المخلوقات دون أية مساعدة من كاهن أو ملك ، إنه كالهواء الذى نستنشقه مجانا لكل خلق الله.

أما هؤلاء الذين يجعلون الناس يفهمون غير ذلك ، ما دعاهم إلى هذا العمل إلا حب الفائدة . وحب الرئاسة.!



لقد كان الأمير (تشارلز)" ولى عهد بريطانيا " شجاعا وأمينا عندما وقف يقول فى محاضرته الشهيرة بجامعة أكسفورد عن الإسلام والغرب:

قال :

"هناك سوء فهم شديد ين العالمين الإسلامى والغربى هذا الواقع يدركه كل إنسان هنا فى بريطانيا".

وأنه من الغريب أن يستمر سوء الفهم حتى يومنا هذا بالرغم من أن المسلمين والمسيحيين واليهود أصحاب كتاب سماوى وديانة سماوية، وأننا جميعا نشترك فى قيم واحدة. منها احترام المعرفة والعمل والرحمة والوفاء والبر بالوالدين.

لقد وقفت مبهورا أمام كلمة "(ولا تقل لهما أف)[1] .. لأن مجتمعنا فى أشد الحاجة إلى هذا الوفاء والبر..

إن مناهج التعليم فى بلادنا تمجد أبطال الحروب الصليبية بينما كانت هذه الحروب تمثل عند المسلمين أقصى درجات التوحش والهمجية..

إننا ننظر إلى الإسلام من خلال بعض الفتن والأحداث التى يثيرها البعض كما حدث فى لبنان ، ومن خلال ما يسمى بالأصولية الإسلامية .

وهذا - أيهاالسيدات والسادة - خطأ جسيم ..

لأن فى بريطانيا نفسها تقع مثل هذه الأحداث. فهل نحكم على بريطانيا مثل هذا الحكم بسبب قلة مستغلة ضد العدل والقانون.

إن الحكم على الشريعة الإسلامية بالقسوة حكم بعيد عن الاتصاف فعلينا أن نفرق بين الشريعة كنظام وقانون وبين التطبيق الذى يخضع لأغراض سياسية لا تحترم القانون ولا الدستور..

إن الحكم على وضع المرأة فى العالم الإسلامى من خلال بعض

---

(١) يقصد بالأية الكريمة التي جاءت في سورة الإسراء للبر بالوالدين آية رقم٢٣.

التصرفات المتزمتة لا يعنى أن المرأة مظلومة أو مقهورة فى مجتمعات المسلمين لقد تمتعت المرأة بحقوقها فى الإسلام قبل أن تتمتع به المرأة فى سويسرا.

وقد أعطى الإسلام حقوقا للمرأة لا تتمتع بها فى أوروبا ..!

وفى العالم الإسلامى اليوم ثلاث نساء[1] رؤساء لثلاث دول هى : باكستان، وتركيا . وبنجلاديش . وقد جئن بانتخابات ديمقراطية سليمة ... فأين هو الظلم الذى يقع على المرأة.

كما أنه لا يجوز أن ننكر على المرأة المسلمة ارتداءها الحجاب ما دام هذا من صميم دينها وتقاليدها .!

إن علينا أن نميز بين الأصولية المتطرفة وبين (الصحوة) الدينية التى تجعل المسلمين يتمسكون بقيمهم ومثلهم العليا.

إن التطرف ليس حكرا أو خاصا بالمسلمين . فعلى الجانب الآخر هناك تطرف مسيحى وتطرف يهودى بنفس الدرجة.

لقد أسدى المسلمون خدمات كبرى إلى الحضارة والثقافة، لقد كان المسلمون وعلى مدى ثمانية قرون هم أساتذة العلوم والحضارة والفن والثقافة . وقد كانت (قرطبة) فى القرن العاشر اكثر المدن تحضرا فى أوروبا.

وقد كان الإسلام فى العصور الوسطى هو المثل الأعلى للتسامح فقد منح المسلمون : اليهود والمسيحيين حقوقا متساوية وفتحوا لهم طريق الترقى إلى المناصب فى الدولة .

إن الإسلام يقدم لنا صورة متكاملة للتفاهم والتعايش بين جميع البشر ،

---

(١) كان هذا فى الوقت الذى القى فيه هذه المحاضرة . فقد كان هناك فى باكستان وبنجالاديش وتركيا ثلاث سيدات يرأسن الوزارة فى هذه البلاد.

كما أن الإسلام فى حقيقته وجوهره يقدم لنا تصوره الرائع للحياة والكون.

وهل يصدق أحد أو يتصور أن بريطانيا عرضت نفسها على الإسلام ؟ وأن ملكها أرسل وفدا رفيع الشأن إلى خليفة المسلمين فى الأندلس يطلب مساعدته لاعتناق الإسلام وتعليم القرآن ....؟

غير أن هذا حدث وفى وثيقة نشرتها منذ سنوات صحيفة "الصنداى تايمز" وبخط المؤرخ البريطانى " جبرائيل رونى"...

تقول هذه الحقيقة :

فى عام١٢١٣ م .. وبحركة بائسة من الملك جون لاكلاند أرسل وفدا سريا من ثلاثة أشخاص . إلى الأمير محمد الناصر ، الحاكم المغربى القوى و ليعرض له ولاءه وليعده بأنه سيكون أى الملك "جون لاكلاند" تابعا مخلصا ، فيما إذا قبل الأمير أن تكون بريطانيا تحت الرعاية العربية، وليؤكد له أن الدخول فى الإسلام هو المخرج من ضغط المشاكل السياسية التى تلح عليه ..؟!

لقد وقع بالصدفة بين يدى ، النص الحرفى لما حمله الوفد، فى دورية قديمةكانت تصدر فى ذلك الوقت عن أحد الأديرة ، عندما ، كنت أجرى أبحاثا على الكاهن الكاثوليكى "روبرت دى لندن" الذى كان صدر بحقه حرمان كنسى، ونفى من بريطانيا ، بسبب دوره فى ثورة الماغنا كارتا...

هذه الحلقة الواقعية المنسية، من التاريخ البريطانى، سجلها "ماتيو باريس" المؤرخ الاخبارى الدقيق لأحداث القرن الثالث عشر الذى أخذ حقائقه واستقاها من مصادرها...

وحسب ما يقول باريس، أن رجال الوفد الثلاثة كانوا مكونين من البارونيين توماى هارنجتون ورالف فيتزسنكولاس، والسيد روبرت دى لندن، غير

أن "باريس" لم يقدم أى تفسير لضم الكاهن اللندنى للوفد ، إلا أن السبب الأكثر ترجيحا ، هو أن الملك جون لاكلاند، عهد إلى السيد روبرت بإدارة شئون ابرشيته الخاصة، لذلك فهو من المقربين والموثقين، وبالتالى فإن اشتراكه فى الوفد يشكل ضمانا ضد البارونيين كى لا يمارسا عليه خداعا فى أثناء تأدية المهمة..

وكان توماس هاردنجتون ، رئيس الوفد كان قد أعطى تعليمات من قبل الملك، ليبلغها إلى أمير أفريقيا العظيم وأمير المغرب - وأسبانيا بأنه - أى الملك البريطانى - سيتنازل عن طواعية وطيب خاطر ، عن مكانته ومملكته ، ويصبح تحت تصرف الأمير العظيم .. وإذا كان يسره فإنه يضع بريطانيا أمانة بين يديه ، ويتخلى عن الاعتقاد بالديانة المسيحية، ويتمسك ويلتزم بكل إخلاص بدين وعقيدة محمد ..!!

ونقلت رسالة الملك جون أو تعليماته إلى الأمير بواسطة مترجم . حيث تكلم رئيس الوفد بمهارة خطابية هائلة عن غنى الأرض الأنجليزية، وخصوبة حقولها ومهارة شعبها العظيم الحاذق الخلاق، ومعرفة هذا الشعب للغات الثلاث: اللاتينية والفرنسية والإنجليزية واتقانهم لكل مهنة عقلانية..

وكان رد الأمير المغربى المسلم ردا حصيفا جاء فيه :

" لم أقرأ أو أسمع قط أن ملكا يمتلك مثل هذه البلاد المزدهرة الخاضعة المطيعة له عن طواعية ، يقوم بتدمير سيادته واستقلاله يجعل بلده الحر يدفع الجزية لغريب .. علما أنها يجب أن تكون ملكه وله وحده. وبتحويل السعادة إلى بؤس ، فيسلم نفسه لإرادة اخر ، ويهدم بلده دون سبب".. وطلب الأمير من أعضاء الوفد ألا يمثلوا فى حضرته ثانية ولدى عودتهم إلى بريطانيا" بكى الملك جون لأن مساعيه قد أحبطت"..

إن الملك "جون" أو حنا هو صاحب " الماجناكارتا" أعظم مواثيق الحرية

عند الإنجليز، وتاريخه ومسلكه لا غموض فيهما وإعجاب الرجل بالاسلام لا ريب فيه..!

ترى أين كنا ؟ وماذا صنعنا ..؟

لقد كانت أوروبا فى القرون الوسطى غاصة بالغابات الكثيفة ، متأخرة فى زراعتها ، وتنبعث من المستنقعات الكثيرة فى أرباض المدن روائح قاتلة، تجتاح الناس وتحصدهم ،وكانت البيوت فى بأريس ولندن تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب " كبيوت القرى عندنا منذ نصف قرن" ولم يكن فيها منافذ ولا غرف نظيفة ، وكانت البسط مجهولة عندهم ، لا بساط لهم غير القش ينشرونه على الأرض، ولم يكونوا يعرفون النظافة ويلقون بأحشاء الحيوانات وأقذار المطابخ أمام بيوتهم ، فتتصاعد منها روائح مزعجة، وكانت الأسرة الواحدة تنام فى حجرة واحدة تضم الرجال والنساء والأطفال، وكثيرا ما كانوا يؤون معهم الحيوانات الداجنة، وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القش فوقه كيس من الصوف، يجعل مخدة أو وسادة، ولم يكن للشوارع مجار ولا بلاط ولا مصابيح، ولم تكن أكبر مدينة فى أوروبا تضم أكثر من خمسة وعشرين ألفا[1].

هكذا كان الغرب فى القرون الوسطى حتى القرن الحادى عشر فما بعده باعتراف مؤرخيهم أنفسهم.

لهذا كتب الملك جورج الثانى ملك إنجلترا رسالة إلى الخليفة هشام الثالث حملتها بعثة من الطالبات الانجليزيات ، وجعل ابنة أخيه الأميرة "دوبانت" أميرة عليها . وهذا نص الرسالة :

---

(١) من روائع حضارتنا . د. مصطفى السباعى .. طبعة بيروت ١٣٨٠هـ.

من جورج الثانى ملك انجلترا ، والغال " فرنسا" والسويد" والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين فى مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام:

بعد التعظيم والتوقير : فقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتناء أثر منه ، لنشر أنوار العلم فى بلادنا التى يحيط بها الجهل من أركانهاالأربعة ، وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة "دوبانت" على رأس بعثة من بنات أشراف الإنجليز لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتك وحماية الحاشية الكريمة ، وهن من لون اللواتى سيتوفرن على تعليمهن ، وقد زودت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامك الكريم ، أرجو التفضل بقبولها مع التعظيم ، والحب الخالص...

من خادمكم المطيع

جورج الثانى

* * *

وقد بعث إليه الخليفة المسلم بهذا الرد:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف أنبيائه سيد المرسلين .. وبعد :

فإلى ملك انجلترا " الأجل .. لقد أطلعت على التماسكم فوافقت بعد

استشارة من يعنيهم الأمر على طلبكم . وعليه فإننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكى..!!!

هشام الثالث

خليفة المسلمين فى الأندلس

* * *

إننى لا أوجه أصابع الاتهام إلى خصومنا ..!!

إننى أوجهها إلى أجهزة الدعوة عندنا ... فإنها لا تكيد عدوا ولا تدعم صديقا ، وإلى مؤرخينا الذين لم يتابعوا مسيرة الإسلام شرقا وغربا ولم يسجلوا ما وقع له جزرا ومدا ..!!

فى " ريجنت بارك " Regent Park وأمام بحيرة البط كنت أجلس وحيدا أتأمل وأفكر ... فجأة أقبل شاب وجلس بجوارى . كان هذا الشاب يحمل كتابا. المفاجأة لم تكن فى الشاب بل فى الكتاب الذى كان يحمله .. فقد كان مكتوبا على غلاف الكتاب " محمد رسول الله " ! للسير (R.V.Bodley)

سألته :هل أنت مسلم ؟

قال : كان جدى مسلما ..!

وماذا يمنعك أن تفعل مثل ما فعل جدك.؟

قال : زوجتى.

قلت : وما شأنها بذلك؟

قال : إنها "يهودية ؟ وتريد أن أكون يهوديا!

قلت : ان اختيار الإنسان لعقيدته اختيار شخصى بحت ، ولا سلطان فيه للزوجة ولا للزوج.

قال : إننى لا زلت أفكر ..!

وتركته يفكر ! وعدت إلى قصة "جده" التى قرأتها فى الأربعينات من القرن الماضى. أى إلى قصة السير (R.V.Bodley)

يقول سير أ . س. بودلى [١].

فى عام ١٩١٨ وليت ظهرى للعالم الذى عرفته طيلة حياتى ، ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية حيث عشت بين الأعراب ، فى الصحراء، وقضيت هناك سبعة أعوام، اتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرتدى زيهم، وأكل من طعامهم، واتخذ مظاهرهم فى الحياة وغدوت مثلهم أمتلك أغناما، وأنام كماينامون فى الخيام ، وقد تعمقت فى دراسة الإسلام ، حتى أننى ألفت كتابا عن محمد صلى الله عليه وسلم عنوانه "الرسول" وقد كانت تلك الأعوام السبعة التى قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سنى حياتى وأحفلها بالسلام، والاطمئنان ، والرضا بالحياة...

وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق . فهم بوصفهم مسلمين ، يؤمنون بالقضاء والقدر ، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش فى أمان، وأخذ الحياة مأخذا سهلا هينا... فهم لا يتعجلون أمرا، ولا يلقون بأنفسهم بين براثن الهم قلقا على أمر ، يؤمنون بأن (ما قدر يكون) وأن الفرد منهم (لن يصيبه إلا ما كتب الله له). وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون فى وجه الكارثة مكتوفى الأيدى ، كلا؟

R.V.C.Bodley " Wind in the sahare (١)

ودعنى أضرب لك مثلا لما أعنيه ، هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال الصحراء وعبرت بها البحر الأبيض المتوسط ورمت بها وادى " الرون " فى فرنسا .. وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة ، وأحسست من فرط القيظ كأننى مدفوع إلى الجنون ولكن العرب لم يشكوا إطلاقا ، فقد هزوا أكتافهم ، وقالوا كلمتهم المأثورة "قضاء مكتوب".

لكنهم ما أن مرت العاصفة، حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير ، فذبحوا صغار الخراف قبل أن يؤدى القيظ بحياتها، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء ،فعلوا هذا كله فى صمت وهدوء دون أن تبدو من أحدهم شكوى ،قال رئيس القبيلة الشيخ: (لم نفقد الشئ الكبير ، فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شئ ، ولكن حمدا لله وشكرا ، فإن لدينا نحو أربعين فى المائة من ماشيتنا ، وفى استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد).

وثمة حادثة أخرى . فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوما فانفجر أحد الإطارات ، وكان السائق قد نسى استحضار إطار احتياطى ، وتولانى الغضب، وانتابنى القلق والهم، وسألت صحبى من الأعراب (ماذا عسى أن نفعل؟) فذكونى بأن الاندفاع إلى الغضب لن يجدى فتيلا ، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق، ومن ثم درجت بنا السيارة وهى تجرى على ثلاث إطارات ليس إلا ، لكنها ما لبثت أن كفت عن السير ، وعلمت أن البنزين قد نفد. وهنالك أيضا لم تثر ثائرة أحد من رفاقى الأعراب ، ولا فارقهم هدوءهم ، بل مضوا يذرعون الطريق سيرا على الأقدام ، وهم يترنمون بالغناء.

لقد أقنعتنى الأعوام السبعة، التى قضيتها فى الصحراء بين الأعراب الرحل ، أن المتاثين ، ومرضى النفوس، والسكيرين، الذين تحفل بهم أمريكا وأوربا . ما هم إلا ضحايا المدنية التى تتخذ السرعة أساسا لها.

إننى لم أعان شيئا من القلق قط ، وأنا أعيش فى الصحراء بل هنالك فى جنة الله، وجدت السكينة، والقناعة ، والرضا ، وكثيرون من الناس يهزءون بالجبرية التى يؤمن بها الأعراب ويسخرون من أمثالهم للقضاء والقدر...

ولكن من يدرى ؟ فلعل الأعراب اصابوا كبد الحقيقة فإنى إذ أعود بذاكرتى إلى الوراء .. واستعرض حياتى أرى جليا أنها كانت تتشكل فى فترات متباعدة تبعا لحوادث تطرأ عليها ولم تكن قط فى الحسبان أو مما استطيع له دفعا ، والعرب يطلقون على هذا اللون من الحوادث اسم (قدر) أو "قسمة" أو (قضاء الله) ، وسمه أنت ما شئت.

وخلاصة القول أننى بعد انقضاء سبعة عشر عاما على مغادرتى الصحراء، مازلت اتخذ موقف العرب حيال قضاء الله ، فأقابل الحوادث التى لا حيلة لى فيها بالهدوء والامتثال والسكنية ، ولقد أفلحت هذه الطباع التى اكتسبتها من العرب فى تهدئة أعصابى أكثر مما تفلح آلاف المسكنات والعقاقير.

إنه الإيمان ينبوع السعادة..(ومن يؤمن بالله يهد قلبه، ومن يؤمن بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم)، صدق الله العظيم

إنه غرور الإنسان وجموحه، هذا الغرور هو الذى دمر طمأنينة الإنسان وروحه..

عندما أطلق " الروس " أول سفينة فضائية إلى الكون ، وعاد ملاحها "جاجارين" إلى الأرض ... سئل :

هل رأيت الله فى الفضاء الأعلى ...؟

فأجاب جاجارين المغرور :

كلا ... إنى لم أر هذه الخرافة ...!

هذا الغرور لم يلبث أن سقط محترقا على الأرض بعد مدة.. سقط ليواجه "الله" الذى جحده بعيدا عن الحزب والدولة..

منذ حوالى عشر سنوات ... تعرفت على صديق بريطانى مسلم فى ضاحية Glpsyhill بمدينة لندن...

لقد كان لـ "اسلام" هذا الأخ الإنجليزى قصة عجيبة ... قصة تكشف لنا ... أن إنسان هذا العصر الذى بلغ من القوة والجبروت بحيث يستطيع أن يقتل ملايين البشر بـ "لمسة أصبع" وهو جالس على بعد آلاف الأميال من ساحة الحرب.. هذا الإنسان الجبار المغرور بما وصل إليه من تقدم هائل فى صناعة الدمار والقتل يقف عاجزا ومشلولا أمام "فيروس " دقيق يهدد حياته بالفناء والموت.

كان هذا الأخ ممثلا من ألمع نجوم السينما والمسرح ... وذات يوم أصيب بمرض رهيب ذهب بسببه إلى المستشفى ... وفى حجرة الاختبار والفحص، سمع الأطباء يتحدثون عن اصابته بـ "فيروس" لا يمكن رؤيته بالمجاهر العادية ... بل لا بد لرؤيته من جهاز الكترونى يكبر صورته مليون مرة ....

لقد أصيب صاحبنا باحباط وخيبة أمل ...

ما هذا ... ؟ لقد ثارت اعماقه وبدأ يحدث نفسه.

أنا الممثل الشهير الذى جمع من المال والشهرة مالا يستطيع ألف رجل أن يجمعوه فى ألف سنة . يهاجمنى هذا "الفيروس" الحقير الضئيل ... ويقف أمامه الأطباءعاجزين...؟

ماذا تفيد الشهرة والمال والنساء ..؟

بل ماذا تفيد هذه الألوف المؤلفة من المعجبين والمعجبات .. ماقيمة باقات الورد التى كانت تتناثر تحت قدمى كلما أديت دورا ينبهر منه الناس ... وما قيمة صورى وهى تتصدر إعلانات الصحف والمجلات ...، وهى تتألق على شاشة التليفزيون .. وعلى أبواب دور المسارح والسينما ...؟

لقد تضاءل كل هذا أمام "فيروس" حقير عجز عن معرفته مشاهير الأطباء، وأصبحت حياتى كلها رهن هذا الكائن الدقيق الذى لا يرى إلا بمجهر الكترونى معقد ...؟ ألا فلتذهب إلى الجحيم كل هذه الأمجاد الزائفة والوهم الكاذب ، والغرور الأجوف..

وذهب صاحبنا إلى الهند ... أراد أن يعيش حياة الرهبان الهنود ،وأن يشارك فقراء " دلهى" و "بومبى" حياة الشظف والتقشف.

وهناك فى أحد المعابد ألقى رحله ، وخلع ثيابه وامتدت الموسى إلى شعره فلم تعد صلة بين ماضيه وحاضره. ستة أشهر أو تزيد قضاها صاحبنا داخل المعبد. أن الظلام الذى هرب منه عاد فأطبق عليه من كل ناحية والرى الذى كان ينشده استحال إلى غصة فى حلقه..

كان «كالمستجير من الرمضاء بالنار» ... أو كان كما يقول"ايليا أبوماضى" فى" طلاسمة " المشهورة :

قيل لى فى الدير قوم أدركوا سر الحياة

غير أنى لم أجد غير عقول اسنات

وقلوب بليت فيها المنى فهى رفات

ما أنا أعمى فهل غير أعمى..

لست أدرى ؟

ونام ذات ليلة .. فرأى نفسه يسير فى صحراء موحشة محرقة وعلى بعد .. نظر شجرة فاتجه إليها متلهفا ... أراد أن يستظل بها من وهج الشمس ، وأن يستريح عندها من تعب القلب ،.. والنفس ...

لقد فوجئ برجلين يجلسان تحت هذه الشجرة .. رجلان وقوران تكسوهما مهابة أخاذة، وسمت جميل يجذب الناظر إليهما من أول نظره...

– من انتما ؟

– أنا أبو بكر ..، وهذا أخى عمر.

– صاحبا النبى العربى محمد ؟

– نعم.

– وماذا تفعلان هنا ؟

– ننتظر قدوم النبى صلى الله عليه وسلم.

– يقول صاحبنا :

فشعرت بقشعريرة لم أشعر بمثلها فى حياتى أبدا ... لقد درست فيما درست من تاريخ العالم شيئا عن الإسلام غير أنى لم أكن محبا لا للعرب ولا للإسلام ... فمن الذى جمعنى برجلين كانا خليفتين لمحمد...؟

و ... وجلست صامتا ....

وإن هى إلا لحظات حتى رأيت غمامة تظلل الكون كله...

لقد تغيرت طبيعة المكان فى لحظة ... شعرت كأن الصحراء والشمس وما حولى من الجبال والصخور استحالت كلها إلى واحة .....

وحين أقبل النبى سلم عليه أبو بكر وعمر بحرارة .. ثم استدار ووضع يده على قلبى فأحسست ببرد الراحة والسعادة .. واستيقظت من نومى إنسانا جديداً .

وفى مسجد «نيودلهى» كان لقائى بإمام المسجد الذى علمنى كيف أكون مسلماً .. فكيف حدث هذا التحول .

أنها قصة "فيروس" دقيق لا يرى إلاّ بمجهر الكترونى معقد ....!

إن الإسلام ينتشر ذاتيا فى بريطانيا والمؤسسات الإسلامية عاجزة تماما عن ملاحقة تطورات العصر بل إن واقعها يثير فى قلب كل مسلم طوفانا من الألم واليأس.

حتى المبعوثون إلى أوروبا وأميركا . وعددهم لا يتجاوز أصابع اليد ! تراهم وكأنهم غابوا عن الوعى !

فإن معظم جهودهم تنحصر فى الصلاة بالمسجد إذا حضر الوقت .. أو فى الصلاة على ميت مسلم أدركته المنية فى عواصم الغرب !!

إن ملف هؤلاء المبعوثين ملئ بالعجب.. كثير منهم ذهب ولم يعد !! ومنهم من اشتغل بالتجارة وشراء الشقق !!!، وآخرون تفرغوا لبناء محطات تموين السيارات بالنفط !! وفريق رابع اتفق مع دول أخرى سخية الجيب واليد !! أما مصر أو الأزهر فقد خرجا – وإلى الأبد – من القلب !!!

* * *

المركز الإسلامى فى لندن يأتى فى مقدمة المراكز التى كان لمصر فيها نفوذ، هذا المركز أقامته مصر فى الأصل، والأرض التى أقيم عليها كانت ملكا

لمصر.. ففى الحرب العالمية الثانية تنازلت مصر لقوات الحلفاء عن قطعة أرض لإقامة كنيسة ... وتنازلت بريطانيابالمقابل عن قطعة أرض لإقامة مسجد ، وتبرع الملك الراحل فاروق بمبلغ كبير من المال كان ينفق منه على المركز الإسلامى والمسجد.

لم يكن فى بريطانيا فى ذلك الوقت سوى مسجد واحد فى ضاحية "ووكونج" ، ولم يكن المسلمون فى بريطانيا بهذه الكثرة كما هم اليوم(١).

وحين فكر المسلمون فى توسعة المسجد .. بادرت مصر لتنفيذ هذا المشروع وسافر إلى لندن - من أجل ذلك - السيد حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت لوضع حجر الأساس .. وما كاد المشروع يبدأ حتى ظهر فى الأفق من يرى فى استئثار مصر - بهذا المسجد وهذا المركز - خطرا .. فكان ما كان مما لم يعد خافيا ولا سرا !!!

وقد جرت العادة عندما يسافر رئيس الجمهورية لزيارة بلد فى أوروبا وأمريكا أن يكون فى استقباله شيخ بعمامة ... وقس بقلنسوة .!!

أما عن القس .. فقد اختير بعناية .. طول .. وعرض .. ومظهر دينى يفرض تقديره واحترامه على أى أحد.

أما الآخر الذى هو "نحن " فصورة تشمئز منها النفس .. عمامه فى وسط الرأس !! وجبة ترتفع كثيرا عن الأرض !! وجلباب من تحت "الجبة"فى لون كفن ميت كشف عنه فى القبر!!

وشعار معظمهم جميعا - مبعوثين كانوا أو متعاقدين - هو البقاء حتى الموت .. أو الجهاد الدائم إلى آخر برميل من النفط!!

---

(١) فى بريطانيا ٢ مليون مسلم.

فى تقرير أرسل من لندن - قبل خمسة وعشرين عاما - يقول هذا التقرير:

فى كل عام يقام حفل تحضره الملكة يدعى إليه ممثلو الأديان فى المملكة المتحدة ... وبداهة ... فلابد من أن يكون ممثل كل دين من خيرة علماء هذا الدين وأكثرهم علما وثقافة...

حاخامات ... وأساقفة ... وكرادلة ... على أعلى مستوى من العلم والفهم والدراية.

أتدرون من الذى مثل الإسلام فى هذا الحفل الذى تحضره الملكة ؟! ويشترك فيه علماء من كل دين وملة ؟!

اكتموا أنفاسكم وتجلدوا قبل أن تتعرفوا على هذه الكارثة !!!

يقول التقرير:

لقد اختير طالب لتمثيل الإسلام والمسلمين فى هذه المناسبة التى تحضرها الملكة!! طالب يحمل الشهادة الثانوية ، ولا صلة له بالعلوم الدينية ... يمثل أكثر من الف مليون مسلم أمام الحاخامات والأساقفة .. والملكة !!!

وكانت فضيحة للإسلام والمسلمين فى أوروبا.

يقول مولانا " جلال الدين الرومى" فى إحدى قصائده:

" كان يوجد فى إحدى القرى مؤذن ردئ الصوت ،وكان الناس يضيقون به وبصوته الذى يصدع رؤوسهم ، حتى أن الأطفال كانوا يفرون عند سماع صوته ،كما يفرون من خيال العفاريت، فأجمع السكان على أن يتخلصوا من هذا المؤذن بأى ثمن ، فجمعوا مبلغا من المال وتقدموا إليه ، وقالوا له :لقد

منحك الله صوتا يفوق صوت الناى وأنغام العود . وقد استفدنا واستمتعنا كثيرا بصوتك ، ونريد أن يتمتع غيرنا به كما تمتعنا ، والمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فتقبل منا هذا المبلغ المتواضع ، وانصرف مشكورا ، وانشر بدائع الحانك من صوت آذانك على بلد أخرى فتناول المؤذن المبلغ وهو يظن أنه بلغ من القوم غاية رضاهم ، ثم بحث عن قافلة مسافرة فلحق بها ، وفى أثناء الرحلة توقفت القافلة عند أحد المنازل لقضاء الليل ،

فقام المؤذن المختال بصوته والمعجب بموهبته ، وبعد قليل شاهد المسافرون قدوم أحد الكفار الأغنياء ومعه أطايب الحلوى والهدايا ، وسأل أفراد القافلة قائلا: أين مؤذنكم الذى سمعنا صوته الآن ؟ فسأله بعضهم ما الذى أعجبكم فى صوته ، وكيف طابت أنفسكم لسماعه ؟ فأجاب الغنى الكافر ، وكان مجوسيا من الذين يعبدون النار : " إن لى ابنة تمتاز بجمالها ورشاقتها ، ولكنها منذ شهور مال قلبها إلى الإسلام ، فحاولنا صرفها عنه فلم يستطع ، ولما سمعت هذا المؤذن تضايقت وسألت عنه ، فخدعتها اختها بأن هذا يمثل شعار الإسلام، وعند سماع ذلك توهمت أن كل شعائر الإسلام يتم تأديها بمثل هذا الصوت فضعفت عقيدتها الجديدة . ولما كنت "مجوسيا" وغير مسلم ، كان طبيعيا أن أرتاح إلى هذا ، وأن أقدم الهدايا إلى هذا المؤذن..!

ثم يقول " مولانا جلال الدين " :

" قال الكافر للمؤذن : تقبل منى هذه الهدية ، فلقد صرت لى خير عون ، وما قدمته لى من إحسان ، جعلنى عبد احسانك على الدوام ، ولو كنت غنيا بالمال والثروة لملأت فمك هذا بالذهب ".!!



كان الاستثناء الوحيـد من بين هؤلاء المبعوثين هو المرحـوم الدكتـور "عبد الجليل شلبى".

فما رأيت أحدا يلتف حوله الناس كما رأيتهم يلتفون حول فقيدنا الشيخ .. لم يكن عمله وقفا على المسجد والمركز فقط . بل جعل من بيته مركزا آخر يلتقى فيه طلاب المعرفة والعلم ، والراغبون فى دراسة الإسلام من كل لون وجنس.

وفى هذا البيت الذى كان ملحقا بمبنى المركز الإسلامى القديم فى حديقة "ريجنت" التقيت بشاب إنجليزى حديث عهد بالإسلام ... لقد اتهمت الأسرة الشيخ عبد الجليل باختطافه وعملت بكل الوسائل لاسترداد ابنها من يد الشيخ الذى سيطر على حواسه ...!

وفى يوم أحد طلب منى الشيخ مرافقته لزيارة أسرة هذا الشاب .. لقد ركبنا القطار من محطة " فكتوريا" إلى الضاحية التى تقيم فيها هذه الأسرة .. وهنا كانت المفاجأة .. إن والد الشاب الذى كان ساخطا على الإسلام والمسلمين بالأمس تحول إلى النقيض والعكس أما لماذا كان هذا التحول؟ فيقول عنه الأب..

لقد اكتشفت أنك انقذت ابنى ولم تختطفه ! فمنذ عشرة أيام وأنا أقرأ فى كتاب عن الإسلام لمسلم هندى استرجعت روحى.

بعد الفراغ من قراءة هذا الكتاب استقر قلبى على شاطئ الأمان الذى ضللت طريقى إليه فى غابر الزمان .. لذلك قدمت بنفسى لاستقبالك فى محطة القطار ..!

وذات يوم .. ذهبنا معا إلى حديقة "هايدبارك" كان الزحام شديدا حول إحدى المنصات التى اعتلاها أحد القساوسة ليدافع عن "المسيح" أمام هجمة شرسة من بعض الشباب المتمرد الملحد.

لقد أنكر هؤلاء الشباب قدوم المسيح أصلا ، واستشهدوا على هذا الانكار بموقف "اليهود" من المسيح قدما وحديثا وزادوا فى هذا الإنكار فضموا "المسلمين إلى اليهود فى هذه المعركة الخاسرة سلفا ...

وهنا قدم الشيخ "عبد الجليل" نفسه إلى دائرة الحوار . وسرعان ما أفسح الجميع له مكانا فى المقدمة ، وانتظروا ما سوف يقوله عن هذه الحرب الدائرة.

قال الشيخ : نحن المسلمين نؤمن بالمسيح كايماننا بالنبى " محمد فالمسيح حقيقة ، ومن ينكر هذه الحقيقة من المسلمين لا يكون مسلما أبدا ... فموقف المسلمين مختلف تماما عن موقف اليهود ، وإن كان تصور المسلمين لشخصية المسيح . يختلف كثيراعن تصور الكنيسة لشخصية هذا المسيح ..!

وهنا انقشع الظلام عن القس. واستراح من غمة أزاحها عنه الشيخ المسلم فى سماحة ومودة وحب.

ومنذ سبع سنوات سافرنا معا إلى استراليا وماليزيا وبروناى ، وقد صادف وجودنا فى مدينة "سيدنى" أيام عيد الأضحى المبارك وفى مسجد الإمام على بحى "لاكمبا" ألقى شيخنا الراحل خطبة العيد باللغتين العربية والإنجليزية.

وعقب أداء الصلاة التقينا بوزير الهجرة الاسترالى الذى حضر لتهنئة المسلمين بهذه المناسبة وقد سمعت الوزير الاسترالى يقول معلقا على هذه الخطبة:

إن ما سمعته اليوم عن الإسلام يدفعنى إلى إعادة النظر فى موقفى عن الإسلام.. إن صورة الإسلام هنا مشوهة ، ولم تقم هيئة أو جماعة حتى الآن بتصحيح هذه الصورة ...!

وفى تعليقه على كلمة الوزير قال الشيخ "عبد الجليل" : إن موقفكم هذا يذكرنى بموقف سابق لباحثه استرالية من "ادليد" اسمها " تشاريس واداى"..
إن لهذه الباحثة كتابا اسمه "العقل المسلم" وفى هذا الكتاب تقرر فتقول : ليس من الانصاف والعدل أن ننظر إلى الإسلام من خلال واقع المسلمين فى هذا العصر . واستطيع أن أوكد ومن خلال دراسة محايدة وعادلة : إن الإسلام شئ ... ومسلمى اليوم شئ آخر .. إن الإسلام منهج حياة كامل ، ولا يوجد دين يربط بين الإنسان والكون فى منظومة عقائدية كاملة كما ربط الإسلام بين الإسلام والكون..

* * *

وفى زيارة للمرصد الفلكى العالمى بضاحية " جرينتش" القريبة من لندن رأينا ونحن نصعد التل المؤدى إلى المرصد فريقا من رجال الكنيسة يرتلون بعض الأناشيد على أنغام الموسيقى.

وتركنى الدكتور " عبد الجليل " فجأة واندمج مع فريق المنشدين بعد أن اعطوه نسخة من هذه الأناشيد.

وفجأة توقف العزف بعد أن اكتشف رئيس الفريق وجود نشاز فى هذا العزف. وطلب من الدكتور " عبد الجليل " أن يخرج من الصف ...!

لقد قال لى الدكتور عبد الجليل معلقا هذا الموقف:

إن إلقاء المواعظ فن وإذا أردت ان تجيد هذا الفن فاستمع إلى هؤلاء القوم فى إنشادهم أو إلى رجال المسرح فى القائهم.!

فى شارع بيكر ستريت (Baker Street) ، وفى شارع اكسفورد (Oxford Street) ، وفى حديقة هايدبارك (Hyed Park) تقع عيناك على

أغرب منظر ... عشرات الشباب الذين يلبسون ملابس صفراء. وقد حلقوا نصف رؤوسهم وجلسوا يمارسون الطقوس البوذية نهارا أو ليلا فى ضوء الشمع !

كما يلفت نظرك لافتات ضخمة تدعوك إلى الانضمام إلى جامعة الهاريشى . أو "هارى كريشنا" أو حتى " قدماء المصريين" الذين اقيم لهم معبد خاص فى جنوب لندن يتعبد فيه المؤمنون بحورس ، وايزيس أو حتى خوفو وخفرع ومنقرع.!

فراغ هائل يشمل كل الطبقات . وكل الطوائف وكل الساخطين على الكنيسة والتى تتعرض عقائدها وطقوسها لضغوط شديدة.

والأدهى من ذلك وأمر ... أن الخرافات والشعوذة والسحر الأسود وطقوس غابات افريقيا والأمازون بدأت تنتشر فى عموم بريطانيا . أو كما يقول الباحث المسلم الدكتور " عبد الحكيم ونتر" – وهو بريطانى الأصل – أن فى لندن وحدها حوالى ربع مليون ساحرة أو ساحر !

كل هذا يقع ويحدث وعلى مرأى ومسمع من الدولة و"سكوتلاندبارد" (والـ .أم.أى.فايف) و (الـ .إم . أى .سكس)[1].

ولا حتى كلمة "همس"!

يقع هذا كله .. ولا حس ولا أثر لدعاة الإسلام سوى التهريج .. أو التهديد أو المطالبة بتطبيق أحكام الشريعة فى بريطانيا !!! أو إقامة "برلمان إسلامى" ... أو حتى إقامة "دولة" اسلامية فى ضاحية "تشوك فارم" (Chalk Farm) !!!

---

(١) اجهزة المخابرات المعروفة باسم (M.1.5. - M.I.5)

إن فى بريطانيا أكثر من مليونى مسلم . وحوالى ألف مركز إسلامى ومسجد وهناك مئات المدارس والمستشفيات والمتاجر يديرها مسلمون من شتى الجنسيات وفى أهم المدن فى لندن وفى "كارديف" وفى "برمنجهام" وفى " مانشستر" وفى "بلاكبورن" وفى "براد فورد" وفى " ليفربول" وفى "ليدز" وفى "بريستول".

وهناك مركز إسلامى كبير أنشئ أخيرا فى جامعة "اكسفورد" وهو المركز الذى الذى افتتحه " الأمير تشارلز" وألقى فيه محاضرته الشهيرة التى انصفت الإسلام كدين وكحضارة ومثل التسامح والإخاء والعدل.

وفى البرلمان البريطانى أو مجلس العموم يوجد عضو مسلم ... كما يوجد فى مجلس اللوردات عضو آخر اسمه " اللورد أحمد" ! وهو الذى ترأس بعثة "الحج" البريطانية فى هذا الموسم أى موسم عام ١٤٢٠ من هجرة النبى "صلى الله عليه وسلم " .

فالطريق أمام الإسلام مفتوح وسهل وممهد والناس فى بريطانيا وغيرها من شعوب أوروبا لا يعرفون عن الإسلام إلا القليل ... وهذا القليل كذب ومحرف ومزيف!

فى حى (هامستد) فى لندن كنت أقيم مع أسرة انجليزية .

وقد تعودت فى أسفارى الطويلة أن أحمل معى تسجيلات المرحوم الشيخ "محمد رفعت" أن صوته الملائكى فى بلاد " الغربة" وبخاصة فى أوروبا يغسل قلبك من كل هموم الدنيا.

وذات يوم وفى تمام الساعة السابعة والنصف نزلت إلى قاعة الطعام كنت قد نسيت إغلاق المسجل .. ففرض الشيخ رفعت بصوته الأثيرى الربانى وجوده على كل من فى المنزل.

وفجأة التفت إلى المستر "(تيلر)" صاحب البيت وقال بأدب :

– أظن هذا صوت أشهر مغن عندكم فى مصر ...!

* قلت له معتذرا : آسف . لقد نسيت ايقاف المسجل..

ثم قلت له : إن الذى تسمع صوته ليس مغنيا .

إنه صوت أشهر قارئ للقرآن الكريم كتابنا المقدس فى مصر ..

– وهنا سأل المستر (تيلر) وماذا يقرأ الآن...؟

* كان الشيخ رفعت يقرأ الربع الأول من سورة (مريم) وما كدت أشرح للمستر (تيلر) ما يقرأه الشيخ رفعت حتى نهض واقفا ...

– وقال : هذه أول مرة أسمع فيها هذا الكلام ... أفى كتابكم المقدس كل هذا التقدير والاحترام للمسيح وأمه ؟

إننى لا أكاد أصدق .. لقد علمونا فى الجامعات والمدارس عكس ذلك تماما .

* وما كدت أكمل بقية التفسير لما كان يقرؤه الشيخ رفعت حتى هتف قائلا:

إذن .. فأنا مسلم ولا أدرى .؟!

سألته : كيف كنت مسلما ولا تدرى ؟

فقال المستر "(تيلر)" فى الوقت الذى جلست فيه زوجته تصغى وتسمع.

إننى أومن بالمسيح كما صوره القرآن .. المسيح النبى . والرسول .. لا المسيح الإله ولا ابن الإله..!

إننى اسمع هذا لأول مرة .. .. فلم تكن لى أدنى صلة بالقران من قبل . وما رأيت مسلما حتى أقمت عندنا هذه المدة القصيرة فى البيت .

لقد أهديته نسخة من ترجمة معانى القرآن لـ "يوسف على" وكانت أخر مرة رأيته فيها – فى المسجد المركزى – وهو يصلى !!!

فى " كمبردج" (Cambridge) كنا نصلى الجمعة . فى كنيسة صغيرة اسمها "فيشر هاوس" (Fisher House).

فقد سمحت إدارة الجامعة للطلبة المسلمين بأداء شعائرهم فى هذه الكنيسة التى لم يعد يدخلها أحد!

كنا نذهب إلى هذه الكنيسة قبل الصلاة بوقت كاف ... فننقل التماثيل والصلبان إلى ركن بعيد عن اتجاه القبلة .. ثم بعد الصلاة نعيد كل شئ إلى مكانه.

لقد تعجب من هذه القصة زميلى السويسرى الذى كان يقيم معى فى شارع "هينتون" فليس من المعقول أن يصلى مسلم فى كنيسة أن هذا شئ غريب يسمعه لأول مرة.

وقد زادت دهشته حين اخبرته أن نبى الإسلام "محمد" كان يسمح للنصارى بالصلاة فى مسجده . فقال كمن يحدث نفسه.

لقد علمونا غير ذلك ... وصوروا الإسلام ونبيه كعدو للمسيح ... إن الكنيسة لم تكن عادلة فى حكمها على النبى "محمد"كما لم تكن أمينة حين تعلم اتباعها غير الحقيقة والصدق..!

منذ عشرين عاما ظهر فى لندن " كتاب اسمه "المسلمون قادمون" !

تخيل فيه المؤلف أن مشيخة الأزهر قد نقلت مقرها من القاهرة إلى "كاثدرال سانت بول" (Saint puals Cathedral)

وإن " يوسف إسلام " أو "كات ستيف" المسلم البريطانى المشهور قد نصب "خليفة" للمسلمين فى كنيسة وستنسترأبى! (Westminster Abbey)

وأن مجلس العموم (The houses parliament)

قد امتلأ بأمثال أبو حمزة المصرى وعمر بكرى !

مسكين " انتونى برجس" مؤلف هذا الكتاب لقد نسى أن المسلمين الذين يعنيهم غير موجودين أصلا ! لا شرقا ولا غربا!!!



أمريكا
والزحف الأسود ..!

أمريكا والزحف الأسود!

فى الستينات من القرن الماضى كانت أمريكا تمثل فى أعين معظم المصريين طوق النجاة وواحة الأمل..!

فالأفواه مكممة ، والمعتقلات مكتظة .. وكلمات مثل " الرجعية " والثورة " المضادة" تجرى على السنة المسئولين هناك فى موسكو وهنا فى القاهرة.

كان المد الشيوعى فى ذروته . كما كان " التدين " تهمة تعرض صاحبها للاعتقال والمطاردة..

وفى هذا الوقت انتشرت – فى طول البلاد وعرضها – على ألسنة الناس "نكتة" .. وكانت هذه " النكتة" تجسيدا وتعبيرا عما وصل إليه الحال فى مصر المحروسة، وعما يجيش فى صدور الناس من ثورة وغضب على الأوضاع القائمة:

تقول هذه النكتة :

إن امرأة اعتقل ابنها الوحيد لأنه ضبط متلبسا بصلاة "قيام الليل" فى زاوية قريبة من بيته!

إن الشاب المسكين قضى فى المعتقل اكثر من سنة وبعد أن أفرج عنه كانت المباحث تذهب إلى بيته من وقت لآخر للتاكد من اقلاعه عن "قيام الليل" فى أى مسجد أو فى آية زاوية.!

وفى احدى المرات ذهب "المخبر" كما جرت العادة فاعترضت أم هذا الشاب طريق " المخبر " وصرخت فى وجهه قائلة؟

– ابنى خلاص .. تاب وأناب ... ولم يعد يصلى . ولا يصوم ولا يعرف ربنا!!

وفى هذا الجو الملبد بالسحب ، المليئ بكل أسباب الخوف والرعب جاء " أنور السادات" فتنفس الناس بعد كبت ، وانتعش الأمل فى قلوب المعذبين فى الأرض وكان مجيئه - رضى البعض أو كره - رحمة من الله بهذا الشعب.!

لقد طرد "الروس" .. وفتح النوافذ المغلقة التى عشش فيها العنكبوت والسوس ، وأصبح " المصرى" آمنا بعد أن انهكه الخوف والجوع!

وفى أميريكا أعلن وزير الخارجية كسنجر" أن أحداثا تاريخية تقع فى مصر . وأن على " أميريكا" أن تبادر بفتح صفحة جديدة تصحح فيها ما وقع قبل ذلك من خطأ.. وأن تعيد علاقاتها مع "القاهرة" التى سبق أن تعرضت لأزمات كثيرة منذ أيام وزير الخارجية الأسبق "دلاس"!

وأقبل الأميريكان ..!

فى "(مقهى الفيشاوى)" المعروف فى " حى الحسين " التقيت بأستاذ أميريكى فى جامعة "نورث كاروليناً" لقد حضر إلى القاهرة كسائح.. ولكنه - فى الحقيقة - حضر كباحث ودارس..!

فعندما علم أننى من الأزهر طلب الجلوس معى والتحدث إلى:

بعد التعارف. وتقديم كل واحد منا نفسه إلى الآخر سألنى الدكتور " روبرت ماكدونالد" عن سر كراهية الشعب المصرى للروس.

قلت للدكتور " ماكدونالد" :

هناك ثلاثة أسباب :

أولا : نظامهم الإلحادى الذى يقوم على إنكار كل ما هو مقدس أو وحى سواء هذا "المقدس" معترفا به من النصارى أو المسلمين أو اليهود..!!

ثانيا : أسلوبهم " الدموى " و" الهمجى " فى حكم الأمم والشعوب.

ثالثا: محاولتهم " مركسة" مصر لتحويلها إلى " محمية" سوفيتية تدور فى فلك " روسيا" حيثما تدور ..!

هذا بالاضافة إلى فشل " الشيوعية " فى توفير أدنى ضرورات العيش والحياة فى أى بلد يحكمه الشيوعيون.

لقد تهلل وجه الدكتور " روبرت" من شدة الفرح ، وبدا امامى سعيدا وكأنما عثر على كنز..!

ثم عاد يسألنى للمرة الثانية :

– هل زرت بلدا " شيوعيا" من قبل ؟

– قلت للدكتور " روبرت":

حتى الآن – لم أزر أى بلدشيوعى . ثم إننى لا استطيع زيارة أى بلد من هذا النوع . لأن لى موقفا من الشيوعية ذا ع خبره فى الشرق والغرب.!

– كيف ؟

– لقد حدثته عن "الفتوى " التى اشرت إليها من قبل ، والتى جعلت الشيوعيين يهتفون بسقوطى ونحن فى داخل السجن..!

– أنت .. أأنت صاحب هذه الفتوى؟

لقد سمعنا بهذه الفتوى ونحن فى " ندوة علمية" فى جامعة "هارفارد".

وأكاد لا أصدق نفسى أن يكون صاحب هذه " الفتوى" هو أنت ؟!

– إننى هو يا دكتور " روبرت"!

- وقبل أن نفترق سألنى :

هل تقبل " دعوة " بزيارة جامعة "نورث كارولينا " أو جامعة "هارفارد"؟

قلت معتذرا: لا أستطيع الآن فى الوقت الحاضر على الأقل فنحن ننتظر من الولايات المتحدة تصحيح علاقاتها مع مصر، ومع العرب والمسلمين أولا.

ثم الوقوف بجانب العدالة والحق فى المشكلة الفلسطينية ثانيا .

إن علينا نحن المثقفين واجبا أكبر وأهم. واجبنا أن نخدم الحقيقة . وأن نعلن الحق إلى الناس بعيدا عن آلاعيب رجال المخابرات والساسة وأن نقيم جسور الثقة بين الشعوب على أساس من الحق والعدالة.

- معك حق فيما قلت ولسوف أنقل وجهة نظرك هذه إلى كل من أعرف من المسئولين فى " واشنطون" أو فى" نيويورك"..!

لم يكن هذا أول لقاء لى مع أميريكى ففى عام ١٩٦٣ م .. زارتنا فى الأزهر سيدة أمريكية اسمها " بربارة" كانت هذه السيدة من المهتمات بتاريخ الديانات فى الشرق الأقصى والأوسط ، لم تكن مسيحية. وإن قالت : أنها " عمدت " بعد مولدها فى "كاليفورنيا".

كانت هذه السيدة مغرمة بمصر .. وكانت . ترى فى الإسلام "دينا" يتميز بالوضوح والبساطة، وتتنبأ له بمستقبل زاهر ومشرق فى أوروبا وأميريكا ..!

وفى " (صحن الأزهر)" .. جلست السيدة " بربارة" تحدثنى عما يجب عمله .. من الأزهر ..!.. لقد ذكرتنى على الفور بقصة الأستاذ الأميريكى الذى زار "لجنة الفتوى" بصحبة الإمام الراحل عبد الحليم محمود ، وكيف أن الأزهر - لا زال يدرس ويفكر - كما قال الإمام الراحل عبد المجيد سليم ..!!!

إن قصة اكتشاف أميريكا تكاد تكون صورة مكررة لقصة اكتشاف

استراليا أى أن المسلمين هم أول من اكتشفوا أميريكا..!!!

إن المسافة بين أميريكا واستراليا تكاد تكون قريبة .. ولكن ليس جدا فأميريكا واستراليا متصلتان بالمحيط الهادى أو الباسفيكى إحداهما من جهة الشمال . وهى أميريكا . والأخرى من جهة الجنوب وهى استراليا .

إن الطائرة تقطع المسافة بين نيويورك . و ..." سيدنى" مرورا بالقاهرة والشرق الأقصى فى حوالى يومين . ولكنى إذا ركبت الطائرة " من "سيدنى" واتجهت فورا إلى " سان فرانسيسكو" فى غرب أميركا فإنك تصل إليها فى حوالى تسع ساعات .!

غير أن المفاجأة تنتظرك هناك .. فإذا كان سفرك يوم جمعة من استراليا فستجد أن اليوم هو الخميس فى "سان فرانسيسكو".!!!

إنها منطقة تتشابك فيها الجغرافيا مع الزمن ..! وتتضاءل بينها المسافات مع حركة الشمس والقمر . والمد والجزر!

لقد أشار الدكتور ت.ب. ايرفنج[١] فى حوار ممتع نشر فى سنة ١٣٩٦هـ -١٩٧٦م ، أشار إلى وصول المسلمين إلى أميريكا اللاتينية قبل وصول الأسبان إلى العالم الجديد، وكان هذا الوصول المبكر من مسلمى شمالى وغربى أفريقيا، ومن مسلمى الأندلس ، ودعم رأيه بالعديد من الأدلة.

منها التقاليد الموروثة عند الهنود بالأميريكتين، ومنها التأثير الأفريقى فى الصناعة التقليدية لدى الهنود الأميريكيين ومنها ما عثر عليه من آثار مكتوبة فى الصخر فى ٩٠ موقعا بأميريكا الجنوبية والوسطى كتبت بحروف من لغة الماندنج بغرب أفريقيا .

---

(١) استاذ بجامعة "تنيسى" (Tenecy) في الولايات المتحدة .

ومن الأدلة تلكم البعثات الكشفية التى أرسلها ملوك دولة "مالى" الإسلامية فى غربى أفريقيا فى عهد "مانسى أبو بكر" ، وحكى قصتها السلطان مانسى فى حجه إلى البقاع المقدسة، حين مر بالقاهرة وقص هذا على سلطان مصر ، وأشار إليها المؤرخ العمرى.

ولقد سبقت هذه الرحلات الكشفية الإسلامية وصول "كولمبس" بـ١٨٠ سنة ، ومن الأدلة التى اعتمد عليها دكتور ايرفنج فى إثبات وصول المسلمين إلى العالم الجديد قبل "كولبس"، ما وجدمن عملة معدنية عربية ضربت فى سنة ٨٠٠هـ ، واكتشفها فى سواحل أمريكا الجنوبية ، وترجع إلى الأندلس ، مما يثبت أن مسلمى قرطبة ، وصلوا إلى العالم الجديد قبل كولمبس.

ولقد أشار المسعودى فى مروج الذهب (كتب سنة ٣٣٩هـ -٩٥٦م) إلى كتاب له " أكابر الزمان " أشار إلى رحلات المسلمين عبر الأطلنطى إلى العالم الجديد : استفاد منها كولومبس فى رحلاته الكشفية ، فلقد ذكر فى سجلات رحلاته :

إن الهنود الأميريكيين حدثوه عن علاقات تجارية سابقة مع الأفريقيين ، ولقد شاهد " أميريكو فسبوشى" فى وسط الأطلنطى فى عودته زوارق الماندينج من غامبيا فى غربى أفريقيا ، وهكذا كان الوصول الأول للإسلام إلى العام الجديد مبكرا، وتلا ذلك وصول أخر تمثل فى المسلمين الذين قدموا مع الأسبان والبرتغاليين، أولئك الذين كانوا يكتمون إسلامهم خوفا من بطش محاكم التفتيش الأسبانيةوالبرتغالية.

ولقد جمع عدد من الباحثين " الانثروبوليجيين" أمثال" تيدور دويت" و "وليم برون" ، و "جمس هاميلتون" بعض المعلومات عن الرقيق المسلم بالولايات المتحدة، حيث التقى "تيودور دويت" بأيوب سليمان ديااللو" وكان أميرا مسلما

استرق فى سنة ١١٤٤ هـ- ١٧٣١م .

وهناك العديد من الباحثين الذين كتبوا عن تجارة الرقيق ، وكتبوا عن قصص واقعية لبعض أفراد الرقيق المسلم فى الولايات المتحدة والعالم الجديد.

ومن هذه القصص حياة "أبوبكر الصديق " من تمبكتو " مالى" وكانت من مراكز الاشعاع الإسلامى فى غرب أفريقيا قبل الاحتلال الأوروبى لهذه المناطق، والتقى به الباحث الإنجليزى " مادن" (Maden) فى جاميكا فى سنة ١٢٥٠هـ- ١٨٣٤م وسلمه أبوبكر الصديق مخطوطين باللغة العربية ترجما إلى الإنجليزية فيما بعد كنموذج لحياة الرقيق المسلم فى العالم الجديد.

وهكذا كانت هذه الموجة من الرقيق الأفريقى المسلم الذى جلب إلى الولايات المتحدة ، أجبر على التخلى عن عقيدته نتيجة التحديات فلا غرابة أن يعود الأفريقيون إلى الإسلام فى الولايات المتحدة بمثل هذه الأعداد الكبيرة[١]. ومنذ حوالى ثلث قرن ، نشرت صحيفة " نيويورك تايمز"[٢] (New York Times)

وفى صدر صفحتها الأولى وتحت عنوان : المسلمون السود يزحفون على واشنطون ، هذا المقال الذى ننقل بعض فقراته بالحرف :

" وصل مالكولم اكس اليوم ليتولى قيادة المسلمين فى عاصمة الدولة حيث توترت العلاقات العنصرية بصورة تدعو للقلق.

ولقد صرح مالكولم اكس بأنه سيظل القائد للحركة فى مدينة نيويورك وسيحتفظ بمسكنه هناك بالاضافة إلى مسكنه فى واشنطن ، وقد اعفى القائد

---

(١) الأقليات الإسلامية - سيد بكر.

(٢) فى يوم ١٠/٥/١٩٦٣م.

المحلى للحركة من أعباء وظيفته بسبب فشله فى الاستفادة من الفرص السانحة لتوسيع الحركة فى واشنطن.

وصف "مالكولم اكس" العلاقات العنصرية فى الولايات المتحدة - بأنها تنذر بالانفجار ، وقال إنه ما لم تعمل أغلبية البيض بسرعة عى منح الحقوق السياسية الكاملة للزنوج فإن الوضع قد يؤدى إلى إراقة الدماء.

إن البيض لا يفتحون الباب للسود أبداً ، وعلى السود الاعتماد التام على أنفسهم وعليهم أن ينهضوا لتحسين جميع أحوالهم الإنسانية.

وقال قائد المسلمين السود :

(إن الزنوح فى هذه البلاد قد فقدوا الأمل فى الرؤساء ويئسوا من اصرار البيض على عدم منحهم لحقوقهم المشروعة).

وقال مالكولم اكس : إنه ينوى الإشراف على كل الاجتماعات الجماهيرية للسود التى تعقد فى أمسيات الأحد بواشنطن ، وقال : إنه يمنع البيض من حضور هذه الاجتماعات ، ليستطيع السود مناقشة مشاكلهم بصراحة تامة وبدون أى خوف، وبذلك يتوصلون إلى النتائج المطلوبة ، وقال : إن ٥٤٪ من سكان المدينة من الزنوج.

وقال إن حل أزمة الزنوج فى واشنطن هو فى اعتناقهم للإسلام - دين المسلمين. إن المسيحية هى دين الرجل الأبيض وهى دائما تركز اهتمامها بالدور الذى يلعبه الرجل الأبيض، أما الإسلام فلا يعترف بالألوان ولكنه يعترف فقط بالشخصية الإنسانية .

وفى مناقشته للنسبة العالية للجريمة فى أوساط الزنوج، قال: إن الظروف التى خلقها البيض هى السبب فى ذلك ،، إن كل منظمات الإجرام فى تجارة

المخدرات، والرقيق الأبيض والميسر يديرها البيض . إنك لن تجد زنجيا واحدا يحتل منصبا كبيرا فى هذه المنظمات. إن الزنوج لا يملكون السفن والطائرات التى تستخدم فى تهريب المخدرات إلى هذه البلاد.. إن الزنوج هم فى الواقع من ضحايا المجرمين البيض.!!!

إن قادة التنظيمات الزنجية المعروفة قد فشلوا فشلا ذريعا ، وذلك قياسا بالنتائج التى تحصل عليها السود فى مطالبتهم بالحقوق المدنية.

إننا نحن المسلمين السود لا نتكلم كثيرا ، ولكن نفضل أن يحكم علينا الناس بأعمالنا .

إننا لا نبشر بالبغض والعنف، ولكننا نؤمن أنه إذا هاجم كلب له أربع أرجل أو رجلان أحد السود فينبغى أن يقتل الكلب.!!! لكن من هو مالكولم اكس[1]؟

لقد ولد مالكولم اكس فى قلب المجتمع الأمريكى حيث يعتبر الزنجى الأسود مخلوقا منحطا لا قيمة له ، وقضى أكثر من طفولته خادما لأسر أميريكية من البيض، تلقى تعليمه الابتدائى فى مدرسة للبيض فى مدينة (ماديسون) بولاية ميتشجان ولكن معاملة البيض له زرعت فى نفسه بذور الحذر منهم وعدم الثقة بهم منذ حداثة سنه.

فقد سأله مدرس اللغة الإنجليزية مرة عن نوع المهنة التى يرغب مزاولتها فى المستقبل فأجاب مالكولم اكس "المحاماه" .. إلا أن مدرسه نصحه بالعدول عن الفكرة والاتجاه نحو تعلم التجارة ومزاولتها.

---

(١) نقلا عن مجلة (The Menaret) التى تصدر فى لندن وانظر فى هذا أيضا كتاب "مالكولم اكس" الذى كتبه "اليكس هيلى" مؤلف كتاب الجذور (Alex Haley).

هذا مع أنه كان دائما أحد الثلاثة الأوائل فى فصله .؟!

ترك مالكولم ولاية ميتشجان فى صيف عام ١٩٤٠م وهو فى الخامسة عشر من عمره واتجه إلى مدينة بوسطن على الساحل الشرقى من الولايات المتحدة ليعيش مع أخت كبرى له هناك.

وكانت تلك الرحلة نقطة تحول مهمة فى حياة مالكولم كما يروى هو عن نفسه فى ترجمته الشخصية ، لقد كانت رحلته نقلة إلى فصل آخر من فصول "مدرسة الحياة" التى كان مالكولم أكس تلميذا من أشهر وأنجب تلامذتها.

دخل مالكولم المراهق – أنذاك–فى بوسطن عالم الليل ينظف الأحذية فى النوادى الليلية ويغسل الصحون وتجارة البغاء حيث يسود قانون الغاب ، وحيث تبنى الحياة كلها على الخداع والممالأة والتحايل والمكر والدهاء.. دخل مالكولم ذلك الخضم ... وأخذ نصيبه كاملا .. ونزل إلى أعماق مواخير الحياة الأميريكية حتى صار مدمن مخدرات ، مما دفعه إلى عالم الإجرام والسرقة وانتهى به الأمر إلى السجن .!

يقول "مالكولم" عن نفسه[1] .

لقد صرت اعتقد أن المرء يجب أن يقوم بأى عمل يجد فى نفسه كفاية من المكر والسوء أو الوقاحة تمكنه من القيام به ... وأن المرأة لا تزيد على كونها شيئا من الأشياء.

قبض على مالكولم فى جريمة سرقة ، وحكم عليه بالسجن مدة عشر سنوات فى فبراير ١٩٤٦م وهو لايزال دون الحادية والعشرين من عمره ، وكان

---

(١) انظر فى ذلك كتاب «مالكولم إكس» الذى كتبه «إليكس هيلى» مؤلف كتاب «الجذور» ، طبعة نيويورك.

السجن أيضا نقطة تحول جديدة ، وفصلا أخر من فصول المدرسة التى تخرج منها مالكولم بتفوق عجيب ألا وهى مدرسة الحياة...

فى داخل السجن استأنف مالكولم تعليمه بمجهوده الشخصى.

وفى داخل السجن تعلم فن الخطابة والنقاش.

وفى داخل السجن أيضا تعرف على الإسلام، وأمن به فكان ذلك أخطر تحول فى حياته ، وبداية مرحلة جديدة شاء الله أن تستمر حتى انتقل مالكولم إلى ربه مؤمنا مجاهدا مرضيا.

تعرف مالكولم على الإسلام عن طريق منظمة تدعو إلى الإسلام بين الزنوج فى الولايات المتحدة تسمى" بدولة الإسلام" ويرأسها رجل يسمى "ألايجا محمد" يدعى أنه رسول الله .. وأن الله سبحانه وتعالى قد جاء إلى أميريكا فى هيئة رجل – فى عام ١٩٢٨م "يسمى والاس فارض" وقابل "الايجا محمد" وحمله رسالة الإسلام لنشرها بين السود فى أميريكا من أجل تحريرهم من قبضة " الشيطان" الذى هو الرجل الأبيض ...!!!

كان مفهوم مالكولم للإسلام عند خروجه من السجن مبنيا على ما وصله عن طريق "ألايجا محمد" وأتباعه. وكان "ألايجا محمد" شخصيا يكتب الرسائل لمالكولم اكس أثناء سجنه ، ودخل مالكولم منظمة "دولة الإسلام" ليكون من أنشط رجالها العاملين . قد كان إيمان مالكولم وحساسيته وشعوره القوى بالمشكلة يدفعه دفعا للعمل ونشر الإسلام بين السود ، وكان لحركته وقدراته ومؤهلاته التى حصل عليها فى السجن الدور الكبير فى جعله الرجل الثانى بعد ألايجا محمد فى "دولة الإسلام" وزاد عدد اتباع الايجا محمد عشرة أضعاف فى خلال ثمانى سنوات بمجهودات مالكولم اكس وأنشطته..

وأهم من هذا وذاك أن مالكولم قد بدأ إذ ذاك يعرف حقيقة الإسلام الصحيح وبدأ يتبين سمو هذا الدين . وأنه الطريق الوحيد لبناء مجتمع إنسانى راق، لامحل فيه لتفرقة عرقية ولاستغلال فئة من البشر فئة أخرى ، ووضحت لمالكولم اكس آنذاك تلك الثقة الهائلة بين حقيقة الإسلام وبين تلك الدعوة الشوهاء التى يدعو إليها " أاليجا محمد ": باسم الإسلام وهى ليست من الإسلام فى شئ، وتفتحت فى مالكولم عندئذ رغبة أصيلة وقوية فى معرفة هذا الدين معرفة وثيقة كى يصلح ما ساعد على بنائه من حركة زائفة تتسمى باسم الإسلام.

وخرج مالكولم من الولايات المتحدة فى أوائل ربيع ١٩٦٤م ميما شطر مكة وقاصدا أداء فريضة الحج.

وكان الحج تجربة هزت كيانه من الأعماق ، فقد شهد فى عرفة ومنى ومكة حقيقة المساواة بين الناس التى ينادى بها الإسلام ، ويطبقها المسلمون ، وكتب إلى صديق له يقول:

" لقد شهدت هنا ما لم أحلم به من قبل فى حياتى . لقد عشت أسبوعا فى خيمة واحدة مع أناس كانت شعورهم أشد صفرة من الذهب وعيونهم فى مثل زرقة السماء ، ولم ألمس شيئا فى حديثهم يدل على أن كلمتى "أسود" و"أبيض" تعنيان بالنسبة لهم أى شئ أكثر من اشارتهم إلى اللونين اللذين تدلان عليهما ، ولقد تبينت أن ذلك إنما ينبعث من التربية التى يعلمها الإسلام.. ..

قضى مالكولم اكس شهرين بعد الحج فى البلاد الإسلامية ، يعمل جاهدا على تعلم أكبر قدر ممكن عن الإسلام وتشريعاته التى يقوم عليها ، وعاد إلى الولايات المتحدة ، وكتب يقول:

" إن مهمتنا الأولى هى تحطيم ما أنفقنا عشر سنوات فى بنائه".

فقد هالة أن يكون عمله السابق إنما يسهم فى إقامة ذلك الزيف الذى يتسمى باسم الإسلام ويخدر السود بأحلام عذبة ، دون أن يكون وراءها شئ من الحقيقة ، وقد بدأ مالكولم اكس سعيه وجهاده فى هذا السبيل بتكوين منظمة أسماها " المسجد الاتحادى ؛ تعمل على نشر الإسلام الصحيح وتقصر نشاطها على البرامج الإسلامية الصرفة.

وأخذ مالكولم من جهة أخرى يعمل فى سبيل تحرير السود فى أمريكا ورفع مستواهم فى المجالات التعليمية والاقتصادية والروحية وكون لهذا الغرض منظمة " الوحدة الأفريقية الأميريكية" وجعل من أوائل أهدافها رفع قضية السود فى أميريكا إلى محكمة العدل الدولية والأمم المتحدة ، على أساس أن السود يطالبون بحقوقهم الإنسانية .. لا بحقوقهم المدنية فحسب ، وكان يقول " إذا لم تعط حقوقك الإنسانية فإن من المستحيل عليك أن تصل إلى حقوقك المدنية"...

بلغ نشاط مالكولم اكس ذروته بعد عودته من الحج وكانت طفرة هائلة.

تلك التى نقلت الفتى المتشرد الذى سار شوطا واسعا فى طريق الإجرام وجعلت منه ذلك الإنسان العملاق الداعية إلى الخير والهدى والطريق المستقيم. نعم إنها لطفرة واسعة تلك التى وصلت بمالكولم اكس إلى أن يكون تلميذا من تلامذة معلم الخير (صلى الله عليه وسلم).

وفى فبراير ١٩٦٥م وقف " مالكولم" ليخطب داعيا إلى الله ... فإذا بالرصاص ينهال عليه ويخر "مالكولم" شهيدا فى سبيل الله ؟!!



نعود مرة ثانية إلى دعاة الإسلام الأوائل فى أميريكا ...

لقد ظهر فى حى السود الأمريكيين ببلدة " دترويت" رجل غريب فى صورة "ملا"[1] يدعو نفسه " والاس فارد محمد" وجنسيته لم تكن معروفة أو محققة .. ويقال أنه من أصل هندى..

كما قيل : إنه فى بداية أمره كان يحدث السود بأنه جاء من مكة وأنه ابن ثرى من أثرياء قبيلة قريش.

وقال : إنه أصلا من بلاد جاميكا مولود من أب سورى مسلم.

كما يقال : إنه من أصل فلسطينى شارك فى عدة حركات ضد التمييز العنصرى فى الهند وجنوب أفريقياولندن قبل مجيئه إلى بلدة " دترويت" بأميريكا .

ويقال : إنه تثقف فى جامعة لندن وقد أعد نفسه لأن يكون دبلوماسيا يعمل فى الدولة الحجازية ولكنه ضحى بمستقبله ليحقق الحرية والعدالة والمساواة للسود فى أميريكا المتوحشة.

كما يقال بأنه من مواليد تركيا ومن عملاء النازيين الذين عملوا مع هتلر فى الحرب العالمية الثانية.

ويحكى أحد أتباعه الأوائل قصة ظهوره فى بداية الأمر بقوله :

" إنه كان يطرق المنازل لبيع الملابس الواقية من المطر وبعد ذلك صار يبيع الحرير (وبهذه الطريقة استطاع ان يصل إلى داخل المنازل حيث أن المرأة تحب أن ترى الأشياء الجميلة وتتطلع إلى ما بأيدى الباعة المتجولين لتختار الأجمل والأحسن ...).

لقد أخبرنا أن هذا الحرير الذى يبيعه هو مثل نوع الحرير الذى يلبسه أبناء جلدتنا من الأفريقيين فى بلادهم ، وأنه جاء به من هناك مما دعانا أن

(١) " الملا" هو العالم الدينى المسلم باللغة الفارسية.

نسأله أن يخبرنا عن بلادنا الأفريقية. استجاب لهذه الرغبة ولكنه اقترح أن يكون الاجتماع بمنزل أحد الأشخاص لسماع قصته.

يذكر أحد أوائل المستعمين إليه قوله:

(اسمى والاس فارض جئت من المدينة المقدسة مكة، وسأحدثكم عن نفسى بأكثر من هذا، ولكن ليس الآن حيث أن الوقت غير مناسب لذلك أنا أخوكم ، وأنتم لم ترونى فى عباءتى الملكية .. وهو فاتح اللون وملامحه شرقية تؤيد الاعتقاد بأنه من المسلمين)...

وقد تابع «والاس فارض» مقابلته للسود فى مجموعات صغيرة بالمنازل مصغيا لمشاكل المحرومين منهم ومشاركا لهم فيما يقدمونه ...

وكان يحدثهم بأن " رسالته هى : تحقيق الحرية والعدالة والمساواة لاخوانه السود فى شمال أميريكا الذين قال عنهم بأنهم ينتمون إلى الجنس الذى ينتمى إليه ، وكان يعبر عن الأمة السوداء فى حديثه بأنهم أعمامه وعن مقابلهم من البيض بأنهم الشياطين ذو العيون الزرقاء".!

انتشر خبر «والاس فارض» على أنه نبى مبعوث للسود وكثر المستمعون والتابعون له فأنشأ أول معبد سماه" معبد الإسلام" وكلما ازداد عدد اتباعه ازداد شجاعة وهجوما ضد عادات السود السيئة التى عرفوا بها فى أميريكا والتى تستخدم ضدهم للضغط والتمييز...

وأول ما بدأ تعليمه لاتباعه هو رفضهم لأن يسموا بالزنوج (Negro) لأن كلمة زنجى إنما هو من اختراع الرجل الأبيض والتى أطلقها على الرجل الأسود ليتميز بذلك الاسم وليفصله عن اخوانه الأسيويين والأفريقيين ...

استمر "فارض" فى التبشير ضد الرجل الأبيض، ومما أخبر به أنه جاء

فى كتاب الوحى وعد بأن ستكون حرب مصيرية بين الحق والباطل وأنها ستكون فى جبل أرماجدون[1] من أسيا وأن فى التوراة رسالة خفية لإنشاء ما يسمى بالإسلام الأسود ، وأن الحرب بين الحق والباطل هى الحرب بين البيض والسود ، وأن وادى "ايسدرلون " الذى ستكون به المعركة إنما هو رمز للوحشية فى أميريكا الشمالية ، وأن حرب السود للبيض ستكون المواجهة الأخيرة للحرب العنصرية التى يرزح تحتها السود منذ وقت طويل.!

كما كان يخبر اتباعه عن تاريخ أسيا وأفريقيا فى صورة مشوقة ، وقد استطاع بمهارة عجيبة أن يستفيد من المؤلفات المكتوبة فى هذا الصدد، كما استطاع أن يستفيد من القرآن والتوراة ليعرف اتباعه السود على أنفسهم من خلال ما يسرد عليهم من الأحداث التاريخية.

كما علم أتباعه أن كلمة (God) حقيقة لفظها هو لفظ الجلالة "الله" وبطريقة هادئة بطيئة استطاع ان يحول اتباعه من التوراة والإنجيل إلى القرآن ، كماازداد تحمسه ضد البيض..

أما مبادئه وعقائده السرية فقد أوضحها فى نص مكتوب بعنوان : "تعاليم أمة الإسلام المفقودة المكتشفة بطريقة حسابية".

وهناك نصوص أخرى للطقوس والشعائر الخفية " لأمة الإسلام" والتى يتناقلها أفراد الجمعية بصورة شفهية يحفظها الطلاب فى مدارسهم عن ظهر قلب . ويوجد نص آخر يذكر فيه المبادئ السرية لجماعة :"أمة الإسلام".

يذكر بعض أساتذة علم الاجتماع بجامعة "متشجن" بأمريكا أنه رأى هذه النصوص فى أواخر عام١٩٣٠م ، وتجمل هذه المبادئ فى الآتى :

(١) أرماجدون أو هرماجدون ، مكان فى فلسطين يقال إن المسيح سيظهر فيه ليحكم العالم، انظر فى هذا الكتاب «النبوءة والسياسة» تأليف الكاتبة الأميريكية «جريس هاللى».

" الرجال السود فى أمريكا الشمالية ليسوا زنوجا،

ولكنهم أعضاء من القبيلة الضائعة شاباز،

سرقتهم التجار من المدينة المقدسة "مكة"

منذ ثلاثمائة وتسع وسبعين سنة.

جاء النبى إلى أميريكا ليبحث ويعيد الحياة.

إلى الأخوة المفقودين زمنا طويلا والذين سرقهم

القوقازيون "البيض" فسلبوهم لغتهم وقوميتهم ودينهم.

هنا فى أميريكا يعيش السود بغير أنفسهم ويجب

أن يعلموا أنهم هم الناس الأصليون وأنبل.

أمة على وجه الأرض .. !!! " ..

هذه صورة مختصرة عما كتب عن الإسلام وعن كيفية وصوله إلى أميريكا.

وحين نقول أميركا. فإننا نعى بهذه الكلمة أميريكا الشمالية كندا ، والولايات المتحدة.

وأميريكا الجنوبية التى تشمل اقطارا عديدة كالبرازيل والأرجنتين وشيلى ،.وفنزويلا.

كما يدخل فى مدلول هذه الكلمة جزر البحر الكاريبى مثل : ترينداد وهايتى ، وجامايكا..

وقد حدثت حركة تصحيح كبرى للمفاهيم الخاطئة التى اعتنقها "اليجا محمد" . وقد بدأت هذه الحركة على أيدى الشهيد مالكولم اكس ومحمد على كلاى.. ثم بعد وفاة "اليجا" نفسه . حيث قام ابنه "وارث الدين " تدريجيا بتصحيح الأخطاء التى كان أبوه يروج لها ويدعو غيره إلى الإيمان بها .

وهناك فى الولايات المتحدة وغيرها أكثر من ٣٠٠٠ ثلاثة الاف مسجد ومركز إسلامى وفى الجيش الأميركى ١٥٠٠٠ خمسة عشر الف مسلم.

ويقترب عدد المسلمين فى أميريكا وكندا من "عشرة ملايين" مسلم ولا يزال العدد يزداد . كما لا تزال المساجد تبنى وتقام . وإن كان ذلك يختلف من دولة إلى دولة لاختلاف العدد . واختلاف الإمكانيات حيث يظهر هذا النشاط فى الولايات المتحدة جليا وواضحا عن غيره فى دول الجنوب والشمال.

أولا: لأن حركة المسلمين السود حركة فعالة ومؤثرة وتملك امكانات هائلة.

ثانيا :لأن معظم المهاجرين من الدول العربية والإسلامية يقيمون فى الولايات المتحدة الأميريكية.

لقد نشرت مجلة "نيوزويك" منذ بضع سنوات أن المذاهب والديانات المنتشرة فى الولايات المتحدة أكثر من مائتى مذهب وديانة وهل يصدق أحد أن الشيطان[1] قد أصبح إلها فى أميريكا؟ وأن هناك كنائس تقدم فيها الطقوس إلى هذا الشيطان وزبانيته ..!

إن رجلا اسمه "المهاريشى" وهو راهب هندى استطاع تأسيس مملكة لحساب نحلته الوثنية . واستطاع انشاء جامعات ومصانع ومحطات تليفزيون وإذاعة تبث إرسالها ليلا ونهارا للتبشير بمذهبه وديانته.

---

(١) وقد وصلت " بركات" هذا الشيطان الي مصر والكويت !!!

و" صن مون" الكورى... أنه هو الآخر توج نفسه نبيا .

وضاعف من عدد اتباعه وثروته حتى أصبح امبراطورا. ويزعم فيما يزعم أن المسيح كلمه وحدثه منذ خمسين عاما ليتولى شئون العالم إلى أن يجئ - أى المسيح - إلى هذه الحياة مرة ثانية ..!

وهل سمعتم بـ " رشاد خليفة" الذى أعلن هو الآخر نفسه نبيا ..؟؟

لقد قرأت ما كتبه هذا المارق فأيقنت أن العقل والعلم قد اختفيا تماما من عقول الشعب الأميريكى...!

إن الفراغ هائل . والطريق أمام الإسلام سالكة وواسعة ...

ولكن اين الدعاة .. ؟؟ أين المخلصون المتجردون فى دعوتهم إلى الله..؟؟

منذ سنوات قرأت قصة عن ثلاثة من جماعة "التبليغ" كانوا قد سافروا ألى أميريكا. وفى الشارع رقم ٥١ بمدينة نيويورك توجهوا إلى منزل صديق لينزلوا عنده .. وكانت الصدمة أن هذا الصديق رحل من البيت .. فاستأذنوا صاحب البيت أن يقضوا ليلتهم فى مدخل البيت إلى أن تشرق الشمس..

وهنا قاموا لأداء صلاة العشاء لقد أذن واحد منهم وتقدم آخر ليؤمهم فى الصلاة . كان شابا صالحا وتقيا ، وما كاد يتقدم للصلاة ثم يبدأ التلاوة حتى ظهر صاحب البيت ووقف خلفهم ليرى ماذا يفعل هؤلاء الغرباء.. كان صوت الإمام رخيما . وكان خشوعه عميقا .. لقد بكى وهويقرأ . ثم بكى من وراءه تأثرا بهذا الإمام التقى الخاشع...

وحين فرغوا من أداء الصلاة أقبل عليهم صاحب البيت ودعاهم للصعود إلى شقته . وقدم إليهم طعام العشاء الذى كلفه كثيرا نظرا لغيبة زوجته وبدأ النقاش والحوار ....

من أنتم ؟ وما دينكم؟ .. وما كاد الرجل يتعرف على الإسلام حتى قال لهم:

"تعالوا معى إلى المكتبة . لقد فوجئوا بمئات الكتب التى تتحدث عن الأديان - ما عدا الإسلام طبعا-..

وهنا قال لهم الرجل:

لقد قضيت أكثر من عشر سنوات أقرأ.، وأبحث ، وأناقش ، فلم أجد فى أى دين من كل الديانات التى درستها ما يملأ قلبى بالطمأنينه أو يربط عقلى بالحكمة .

أما أنتم ..ففى أقل من نصف ساعة انتشلتمونى إلى الحقيقة التى قضيت عشر سنوات فى البحث عنها فلم أجدها إلا فى النصف الساعة التى تعرفت فيها عليكم ...!

وفى الصباح اتصل الرجل بزوجته فى واشنطون لقد دعاها إلى الحضور إلى نيويورك فورا لأن بعض الملائكة قد سكنوا فى البيت فعلا ..!

وأسلم الرجل .. كما أسلمت زوجته ... وتحول البيت بعد ذلك إلى مسجد للعبادة ، وإلى مركز للدعوة وإلى ندوة يلتقى فيها الباحثون عن الحق والحقيقة..

* * *

فى لقاء مع الدكتور " فاروق عبد الحق" أو "روبرت كرين" وكان مستشارا سابقا للرئيس "نيكسون".

لقد دار بينه وبين إحدى المجلات التى تصدر فى لندن هذا الحوار[1].

(١) مجلة النور " جمادى الأخرة" ١٤١٦هـ- نوفمبر ١٩٩٥م- الصادرة في لندن.

كيف اهتديت إلى الإسلام ؟

فى عام ١٩٨٠م وعلى أثر انتصار الثورة الإسلامية فى إيران ، ازداد اهتمام الناس فى الغرب بالإسلام، ولم يكن اهتمامهم إعجابا به وإنما اعتبروه تهديدا لهم ، لذلك تنادى العديد من صناع الفكر إلى عقد الندوات والمؤتمرات حول هذا الموضوع .وقد حضرت أحد هذه المؤتمرات كى أرى ماهية هذه الدراسات والأطروحات المقدمة. (فى خريف ١٩٨٠م) وكان مشاركا فى المؤتمر الكثير من قادة الفكر الإسلامى.

ولماذا أطلقت على نفسك اسم فاروق عبد الحق؟

لأننى أؤمن بالعدل والقانون وأسعى جاهدا لتطبيق العدل، والفاروق "عمر بن الخطاب" كان من أشهر الخلفاء المسلمين بتطبيقه للعدل وهكذا لم أجد اسما أكثر تعبيرا من فاروق عبد الحق .. فتسميت به بعد أن اشهرت إسلامى.!

هل يمكن الحديث عن الهاجس الذى يسكنك والذى وجدت فى الإسلام إجابة له؟

كان والدى يعمل استاذا فى جامعة هارفارد، وقد علمنى أن اهتم وأدافع عما هو صواب، وأن أحاول تجنب الخطأ ، وقد قضيت معظم وقتى فى التحرى عن العدل والعدالة قبل أن أصبح مسلما.

وفى الندوة التى جمعتنى مع البروفسور "روجيه غارودى" فى دمشق سمعته يتحدث ويهاجم الرأسمالية منذ كان شيوعيا . وكلانا كان لديه نفس الهدف وهو أن يدعم العدالة. وكلانا كان ضد التركيز على الثروة ، لأن الاهتمام بجمع الثروة ليس بعدل. لقد اتبع "غارودى" المبدأ المركسى الذى يسعى لتحطيم الملكية مفتاحا للحرية. لكن كلانا كان يرى أن الملكية تؤدى فى النهاية إلى الظلم

وعدم انتشار العدل .. وكلانا كان يدعو إلى نظام يدعو إلى انتاج وإعطاء العدالة للجميع.. لذلك وجدنا أن الإسلام هو الحل الوحيد.

فهو الذى يحمل العدالة فى مقاصد الشريعة وفى الكليات والجزئيات والضروريات وأنا كمحام كنت أسعى إلى مبادئ ليست من وضع البشر.

وأشير هنا إلى أن تعطيل معرفة أهداف ومقاصد الشريعة يعتبر أحد الأسباب المهمة فى انحطاط الحضارة الإسلامية .. فالمفتاح إلى الإسلام هو استعمال العقل والمتابعة للوصول إلى الحقيقة . والحقيقة تحتوى على الهدف والمقصد، لذلك فعندما يبحث الإنسان عن المعنى فى هذا العالم، والهدف من وراء هذا المعنى عندها يمكن للإنسان أن يستعمل ويخترع الحقيقة العلمية فعندما نعلم ما هو الهدف من كل شئ فى هذا العام نستطيع أن نتوصل إلى المعنى العلمى لهذا الوجود.

ويمكن القول هنا أن قادة الفكر الإسلامى فقدوا هذ البحث عن المقاصد والغايات منذ ما يزيد على ٣٠٠ سنة ، لقد ارادوا أن يستمروا ويبقوا وليس أن يتوصلوا إلى هدف أسمى وأعلى فى المجتمع ، وكانت هذه نهاية التفكير الإسلامى ونهاية الإزدهار الإسلامى.

إننى عندما ذهبت إلى جامعة هارفارد وحصلت على شهادتى فى القانون. مكثت هناك ثلاث سنوات لم أسمع خلالها كلمة العدل ولا مرة واحدة؟ هدف العدل هو أن يخلق النظام والاستقرار فى المجتمع وبدون هذه المعانى ستعم الفوضى وعدم الاستقرار.

واذكر هناحادثة كان لها أثر كبير فى حياتى ففى عام ١٩٤٨ م سافرت إلى ألمانيا لأدرس الصراع بين الحق والباطل فى الروحانيات ، وكان هناك الكثير من الطلاب الذين يدرسون فى هذا الحقل فقد راعهم ما حدث على يدى

النازية والهتلرية إبان الحرب العالمية الثانية. وكانت هذه الدراسات تدار من قبل حركات سرية كانت ضد الشيوعية كما كانت ضد النازية، وقد حاولت الذهاب إلى ألمانيا الشرقية لأقوم ببحث حول هذه الحركات السرية حيث القى القبض على مرتين واستطعت الهرب . وكان هذا من أحد الأسباب فى أن أمضى بقية حياتى أقاتل الشيوعية.

وكيف تم اختيارك مستشارا للشؤون الخارجية الأميركية؟

فى عام ١٩٦٣م كتب مقالة طويلة عن الصراع بين روسيا وأميركيا وقد قرأ الرئيس نيكسون هذه المقالة وهو فى الطائرة واستدعانى بعدها وكلفنى بوضع كتاب عن السياسة الخارجية الأميركية وعن الشيوعية، ثم عملت مستشارا للشئون الخارجية منذ عام ١٩٦٨م وكنتيجة لهذا الكتاب عينت نائبا للرئيس نيكسون للأمن القومى فى البيت الأبيض وكان هناك أربعة نواب للرئيس كنت أحدهم وفى عام ١٩٦٩م عندما تسلم هنرى كيسنجر وزارة الخارجية أنهى عملى بسبب ٢٥ ورقة كانت فى كتابى تضمنت موضوع فلسطين وقد اقترحت يومها تشكيل دولتين : يهودية وفلسطينية وقد بحث هذا الموضوع سنوات عديدة على أعلى المستويات فى دوائر الولايات المتحدة وفى البيت الأبيض ولكن كيسنجر كان ضد كل إنسان يبحث فى هذا الموضوع.! ووقف كيسنجر ضدى فى كل مجال دخلت أو عملت فيه . ثم عيننى نيسكون نائبا لإدارة شئون إحدى الولايات فى البيت الأبيض.كما عملت فى مسألة "وترغيت".

هل يمكن لمسلم أميركى أن يتسلم منصبا سياسيا فى الإدارية الأميركية؟

على الصعيد الشخصى لم أتسلم أى منصب منذ إسلامى. وإذا أراد الإنسان أن يقوم بدور مؤثر فيجب أن تكون هناك قوى متضافرة وليس شخصا واحدا. نحن بحاجة إلى مصانع فكر إسلامى لكى يشرحوا للأميريكين كيف

يجب على أميريكا أن تدير سياستها الخارجية . وأن يبينوا أن العدل هو الطريق الطويل الذى يجب أن تسلكه أميريكا.

السياسية الأميريكية الآن تريد أن تبقى على الأمور كما هى حتى ولو كان العالم مظلوما .. فما علينا إلا أن نسعى إلى الطريق الذى يؤمن العدالة ويؤمن الاستقرار لهذا العالم. لكن مفهوم العدالة يجب أن يشرح ويقدم بشكل صحيح إلى الأميريكان. بمعنى أخر مصانع الفكر الإسلامى هى التى يجب أن تصون الفرد والتراث الأميريكى.

ويجب على هؤلاء أن يعملوا أيضا مع صناع الأفكار الآخرين الموجودين فى أميريكا .. فهناك مصنع للأفكار للذين يريدون أن يفعلوا الشئ نفسه، ولكنهم يحتاجون إلى فكر إسلامى لكى يؤمن لهم النجاح. أى يجب على المسلم الأميريكى أن يفكر كأميريكى قبل كل شئ .. وقد عملت بصفتى مديرا للمجلس الإسلامى فى أميريكا ورئيسا للمحامين الأسلاميين فى أميريكا . عملت مع قادة الكونغرس ، وقد تحدثت مع "لى هاملتون" وهو أحد الشخصيات التى تصوغ السياسة الأميريكية وسألته:

هل يمكن لأصحاب الفكر الإسلامى فى أميريكا أن يحدثوا أى تأثير على السياسة الأميريكية ؟ وكان سعيدا عندما سمع هذا الكلام وقال إنه كان يحضر اجتماعات كانت تعقد فى الكونغرس أو فى الدوائر الأميريكية الأخرى ولم يقابل مسلما خلال كل هذه الاجتماعات . وأضاف إذا كان هناك من المسلمين من لديهم المعرفة بالسياسة الأميريكية فهو يتمنى أن يراهم ويناقشهم وهو يرحب بهم.

وبالتالى لابد أن تتضافر الجهود من أجل العمل مع الجهات الأخرى ونحن لا نزال بانتظار هذه الفئة من أصحاب الفكر الرفيع المستوى.

مرة ثانية هل هناك أى مسلم يتسلم منصبا سياسيا فى الولايات المتحدة الأميريكية؟

على حد علمى لا يوجد حتى الآن أى مسلم ، ولكن إذا علمنا كما أسلفنا - يجب أن ننتظر جيلا قادما ، فقد يكون الجيل الثانى من المسلمين أكثر تأهيلا لتسلم مناصب سياسية فى أميريكا ولقيادة هذه الحركة المتمسكة بتراثها ، والذين يعملون على إحياء التراث الإسلامى فى أميريكا ، وهم مهتمون بازدهار اميريكا ، بإمكانهم أن يكونوا نواة لحركة فكرية هناك.

أنا لست قلقا على بقاء الإسلام فى أميريكا. وهذا الجيل الجديد قادر على القيام بهذه المهمة. وهذا واضح فهى إرادة الله.

ما هى أولويات العمل الإسلامى فى هذه المرحلة؟

فى اعتقادى إنه يجب التركيز على بناء فكر عال للمفهوم الإسلامى بين الشباب بشكل خاص. يجب أن يفهموا العالم الحديث ويجدوا ردودا إسلامية لكل المشاكل المطروحة فى المجتمع.

ومن جانب آخر يجب أن ننمى ونطور قيادة فكرية بين المسلمين وفى كل حقول المعرفة. ويكون الهدف من كلا الأمرين هو تدعيم العدل والعدالة فى العالم.. وهذا يجعل الإسلام قوة إيجابية من أجل الخير فى العالم. وهذه الأولويات تنطبق على الغرب كما تنطبق على العالم الإسلامى.

يتهم الغرب المسلمين بالإرهاب، ما رأيك بهذا وكيف نفهم الجهاد فى الإسلام؟

١- الجهاد الأكبر : هو أن نصفى وننقى انفسنا وبدون هذا لا نحقق أى شئ.

٢ – الجهاد الأكبر : كما يقول القرآن الكريم : ﴿ وجاهدهم به جهادا كبيرا ﴾[1] وهذا الجهاد يشير إلى استعمال أفكارنا وعقولنا فى سبيل نشر الإسلام وافكار الإسلام.

٣– الجهاد الأصغر : وهو يتطلب عملا يتلائم مع المفهوم الإسلامى أى إذا رأيت باطلا فعليك أن تقاومه وكما يقول: النبى صلى الله عليه وسلم : "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان".

ويمكن أن نصل أحيانا إلى حلول أشد شجاعة وتأثيرا إذا لم نستعمل العنف ، ولكن هذا يتطلب وقتا أطول على الأغلب، وأحيانا لا نملك الوقت الكافى كى ننتظر ، فإذا هوجم الإنسان فلا وقت لديه للانتظار ولا بد من الرد بعنف على الهجوم.، ومثال على هذا هؤلاء الذين يهاجمون الفلسطينيين ، فما على الإنسان إلا أن يرد ويدافع عن نفسه وهذا الحق باللجوء إلى العنف لاستعادتها.

السؤال إذن متى وأين يجب أن نتخلى عن العنف؟

هذه مسألة يقررها الإنسان حسب الظروف. أحيانا العنف مطلوب للدفاع عن النفس، وخاصة إذا كانت هناك فرصة للنجاح. وإن كانت الفرصة ضعيفة علينا أن ننتظر حتى تصبح الظروف مواتية لذلك النجاح.

وماذا عن اتهام الغرب للإسلام والمسلمين بالإرهاب؟

الواقع أن أميريكا تقاد من قبل الصهيونية ، ولهذا فهم يعتقدون بأن استعمال أى قوة ضد اليهود أو ضد المصالح الأميريكية هو إرهاب.. كما يعتبرون بأن كل إنسا يجابه "إسرائيل" (إرهابيا).. وهذه عبارة قذرة لأنك إذا لم

(١) سورة الفرقان .آية رقم ٥٢.

تجابه "إسرائيل" ودعمت القضية الصهيونية فأنت لست إرهابيا فى نظرهم!. إنها كلمة يستعملونها لتدعيم أهداف ومطامع " إسرائيل " . وهذا ينطبق على أى شعب آخر يريد أن يناضل من أجل حريته . فمثلا فى كشمير يقاتلون من أجل حريتهم وهذا إرهاب من وجهة نظرهم.

هل يسمح الغرب للإسلام أن يشكل قوة يكون لها فعل فى المجتمع الدولى؟

لن يرضى الغرب أبدا بوجود هذه القوة الإسلامية .، فهو يسعى حسب وجهة نظره ، إلى قانون مستقر ، وفى اعتقاده أن الإسلام يشكل تهديدا خطيرا له. والحل الوحيد لنجاح الإسلام والمسلمين هو أن يؤسلموا السياسة الغربية، ويبينوا بأن الأفكار الإسلامية هى لصالح الناس جميعا ، والشعب الأميريكى هو أقرب الشعوب للإسلام بهذا لأن عقيدتهم تتماشى بالأساس مع هذا المفهوم من المفاهيم الإسلامية.

يتهم الإسلام بموقفه من المرأة فكيف تفهم موقف الإسلام من المرأة؟

هناك نوعان من الإسلام: الإسلام الحقيقى ، والإسلام الجاهلى – إن صح التعبير – وهذه الجاهلية هى التى تريد أن تعود بالمرأة إلى واقعها قبل ظهور الإسلام ، حيث لم يكن للمرأة حقوق ، ولكننا فى عهد النبى ﷺ تسلمت كل مقاليد الحكم فكانت هناك مشاركة للمرأة على كل الأصعدة فضلا عن كونهن زوجات صاحلات ، وأمهات صالحات وإذا لم يقمن بهذه المسئولية فإن الحضارة ستسير نحو الانهيار، فالرجل له دور والمرأة لها دور. وقد أعطى الإسلام الحق للمرأة بالتصرف فى ملكيتها ، وهو أمر غير معمول به فى الغرب حتى الآن.

والمشكلة هى أن بعض المسلمين فى الشرق أو فى الغرب لا يفهمون

التعاليم الحقيقية للإسلام فيما يخص المرأة. لذلك فهم لا يمارسون التعاليم الإسلامية فى هذا المجال ، ومن الصعب أن يفهم الغربيون حقيقة الإسلام لأن الكثير من المسلمين الذين يعيشون فى الغرب ليسوا نموذجا طيبا للمسلمين ولا للإسلام!!

إن كثيرا منا قد قرأ أو سمع عن هذه المحاورة التى دارت بين الداعية المسلم" (أحمد ديدات)" وبين المنصر العالمى (جيمى سواجارت).

والذى زاد حماسة المسلمين للمتابعة هو السمعة غير الحميدة التى كسبها (سواجارت) بتطاوله المستمر على القرآن الكريم. وسبه لشخص الرسول ﷺ ودعايته المغرضة ضد الإسلام والمسلمين.

ففى أحاديثه التليفزيونية التى يشاهدها أكثر من مليونى شخص فى الولايات المتحدة وتصل لأكثر من ١٤٠ بلدا ، قال "سواجارت" : إن الخطر الذى يهدد الحضارة الغربية الآن ليس هو الشيوعية والاتحاد السوفياتى إنما الإسلام الذى يغزو بلاد الغرب بصورة مذهلة" وذكر المشاهدين بأن لندن ، عاصمة فكتوريا التى كانت تحكم العالم الإسلامى كله ، أصبحت تأوى أنشط مركز اسلامى فى العالم. وأن عدد المراكز الإسلامية فى الولايات المتحدة أصبح يفوق عدد أعضاء الحزب الشيوعى الأميريكى. وفى حين يتراجع الأخير (الحزب الشيوعى) يتزايد عدد المراكز وتقوى جموع المسلمين" . وأكد " أن الشيوعية هى من صلب الحضارة الغربية وإن تعارضت مع قيمها الروحية" .!

وأخيرا ، تعرض للقرآن الكريم والرسول ﷺ بكلمات بذيئة جارحة وأكاذيب ملفقة، وهو يعتبر الوحيد ، من بين رجال الدين المسيحيين الأميركيين الذى لا يتورع عن مهاجمة الديانات الأخرى. ولا يعصم لسانه من الطعن فى زملاء عقيدته وكنيسته.

ففى العام الماضى، استطاع سواغرت القضاء على منافسة جيم بيكر بإشاعة علاقاته الجنسية المحرمة وممارسات زوجته تامى بيكر اللاأخلاقية وقاد حملة التشهير بهما، وقال عن بيكر : إنه "سرطان فى جسد المسيح" يجب اجتثاثه.وقدفعل.

وفى العام ١٩٨٦ ، اعترف القس مارفن غورمان ، من مدينة نيواورليانز بولاية لويزيانا، بارتكابه لـ "عمل غير أخلاقى" مع امرأة ، فما كان من سواغرت إلا انتهاز الفرصة والتشهير بغورمان واتهامه بقضايا اخلاقية لا تحصى قام على أثرها غورمان برفع دعوى قضائية ضد سواغرت مطالبا فيها بـ ٩٠ مليون دولار كتعويض ولكن القضية شطبت فى وقت لاحق.

وكان "سواغرت دائما يردد ..." الغلمان الصغار الذين صففوا شعورهم، وقاموا بطلاء أظافرهم وسموا أنفسهم مبشرين ، ويعنى بذلك زملاءه القساوسة والمنصرين ، ومنهم جيم بيكر وغورمان وغيرهما.

ولكن دارت الأيام، وجاءت الأخبار بما لا يشتهى سواغرت . وإذا بالخصم القديم مارفن غورمان يضع يده على سانحة الثأر وقاصمة الظهر بعدأن تجمعت لديه المعلومات والصور عن ممارسات سواغرت اللا أخلاقية. فقدم الصور والبراهين إلى مجلس " جمعيات الرب" التى يقف على رأسها "سواغرت" ، حيث بادر المجلس إلى الاجتماع بسواغرت فى جلسة تحقيق دامت عشر ساعات يوم الخميس ١٨ شباط (فبراير)، بمدينة سبرينغ فيلد" ولاية "ميسورى" وعقب الاجتماع . قال "فورست هال" سكرتير خزانة جمعيات الرب ، أن سواغرت " اعترف بحوادث سقوط أخلاقى محدودة" ، وأضاف أنه ، فى اعترافه ، لم يحاول أن يلقى بلائمة سقوطه على أى أحد".

وفى عطلة الأسبوع ، قدم سواغرت اعترافا أمام أفراد اسرته ، تلاه

باعترافات أمام جمهور من اتباع كنيسة بلغ حوالى ٨ آلاف شخص، ونقلت الاعتراف كل كاميرات التليفزيون عبر الولايات المتحدة . وقد أجهش بالبكاء وهو يقدم اعترافاته فى ٢/٣١ فى مركز الإيمان العالمى فى مدينة باتن روج بولاية لويزيانا. فقال : "ليست لدى النية بتاتا لنكران خطيئتى.. ولا أسميها غلطة .. جريمة. أنا أسميها خطيئة "، وأشار إلى خطيئته بأنها "أحداث" قادت إلى اعتراف. هكذا أشار إليها بصيغة الجمع دون أن يعطى تفصيلات لهذه الأحداث.

واتجه، فى اعترافاته يوم الأحد ٢/٢١، نحو زوجته فرانسيس وقال :"أواه" لقد ارتكبت الخطيئة ضدك... وأضاف"أن خطيئتى كانت فى الخفاء" . وطلب من " كل من جلبت لهم الفضيحة والعار والإحراج ... السماح.

وكانت المعلومات قد أوضحت أن سواغرت كان على علاقة بعدد من "المومسات"، وقد التقطت له صور وهو يدخل ويخرج بعض فنادق نيواورليانز، وقد دفع أموالا للمؤسسات للقيام بأعمال داعرة لاشباع رغبة نشأ عليها ولم يستطع التخلص منها رغم وضعه الدينى وتقدم سنه)".

ولم يحدث خلال حديثه أن أشار سواجارت إلى الذنب الذى ارتكبه والذى أشار إليه ، ولكن العالم بأسره يعلم الكثير عن مغامراته وأفعاله الجنسية التى ارتكبها هذا الداعية الذى خصص فى التنديد " بذنوب الجسد" طوال سنوات كثيرة. فقد اتهم "سواجارت" بتورطاته السرية العجيبة مع مؤسسات فى فنادق مشبوهة ، وقد صدم رجال كنسيته بالصور الفوتوغرافية المقززة التى أخذت له وقتذاك .!

فى مجلة تايم العدد رقم ٣٣ الصادر فى ١٩ أغسطس سنة ١٩٩١م نشرت هذه المجلة تحقيقا عن الشذوذ الجنسى فى القوات المسلحة الأمريكية:

وقد جاء فى هذا التحقيق:

إن عدد المصابين بهذا الوباء يتراوح عددهم بين ١٠٠ مائة ألف ومائتى ألف من الجنسين.

وفى العدد نفسه أى العدد رقم ٣٣ لسنة ١٩٩١ م وفى صفحة ٤٣ من المجلة نشر تحقيق عن أكبر فضيحة جنسية قام بارتكابها الكرادلة الكاثوليك. وتقول المجلة : إن عدد الكرادلة المتورطين فى هذه الفضائح الجنسية الشاذة يشمل العشرات من كبار رجال الكنيسة الذين ينظر إليهم الناس بالإجلال والتقديس.

وقد نشرت جريدة " سيدنى مورننج هيرالد Sedny Morning Herald تقريرا خطيرا عن الشذوذ الجنسى ومباركة الكنيسة المتحدة الاسترالية هذا العمل وتقديمها كل التسهيلات لممارسته فى رحاب الكنيسة وممتلكاتها الخاصة.

فقد صرحت "بربارابولتن" Barbara Bolton المراسلة المتخصصة فى شئون الكنسية : بأن اتحاد الكنائس الاسترالى قد تنازل عن أهم مبانيه المخصصة للعبادة ليكون مقرا دائما لجمعية محبى الشذوذ الجنسى الدولية ..!

وقد تسابق رجال الكنيسة فى توزيع بركاتهم على الأخوة المجتمعين وتخص بالذكر مستر" ركس ماسيوز" رجل الكنيسة المعروف الذى تحملت "ابراشيته " كافة نفقات إعاشة المؤتمر الموقر...!

كما صرح القس نفسه : بأنه من أشد المعجبين بهؤلاء الشواذ لأنهم يمارسون حريتهم على أوسع نطاق...!

إننى أحبهم وأخدمهم – ولا زال الكلام للقس – !

وقد اضاف القس " دونالد جنسون" راعى الكنيسة الدولية أن ٩٠٪ من

رعاياه من الجنسين يمارسون الشذوذ الجنسى..

وفى نهاية الاجتماع حيا جميع الشواذ اتحاد الكنائس لتعضيده ومساندته لهم .. ثم حيوا القس "جونسون" الذى اعترف أمام الجميع بأنه من زمرة الشواذ رغم أنه متزوج وأب لاثنين من الأطفال..!!

وقبل ذلك وافقت الكنيسة الإنجليزية على إباحة الشذوذ الجنسى بين الجنسين واعتبرت هذه الظاهرة من ظواهر الحرية والتقدم بين الرجال والنساء.

وفى هولندا . قام قسيس بعقد زواج بين رجل ورجل لأن هذا يحقق السعادة المطلوبة لكلا الرجلين معا ..!!

فى أميريكا عثر على بقايا عظام وجثث آدمية فى مدينة "سانتا مونيكا" فى ظروف غريبة ومحيرة إلا أن المحققين اكتشفوا سر هذه العظام والجثث بعد تحريات دقيقة.، وقد تبين من هذه التحريات أن هذه العظام وهذه الجثث كانت بقايا "قداس" قام به عبدة الشيطان فى مدينة "سانتا مونكا"..!!

كما أكدت هذه التحريات أن عمليات القتل تمت بعد القيام بأعمال جنسية فاضحة ومخجلة ...!!!

كما تبين أن هذه الطقوس الشيطانية تقام فى أجزاء عديدة من الولايات المتحدة.

وسرعان ما كشفت التحقيقات عن شخص اسمه "انطون لافى" وصفته وكالات الأنباء أنه كبير كهنة الشيطان ، أو كبير كهنة جهنم ...!!!

وقد أسس هذا الكاهن الجهنمى كنيسة أطلق عليها اسم كنيسة الشيطان. كما قسم اتباعه إلى أربع درجات بدءا من الأدنى إلى الأعلى حسب النظام الكنسى المعمول به فى بقية الكنائس الأخرى.

الدرجة الأولى : درجة "تابع" وتطلق على المنخرط الجديد فى سلك "الشيطنة".

الدرجة الثانية : درجة ساحر أو محارب وتطلق على النشيطين فى الدفاع عن "كبير كهنة جهنم" ...!!!

الدرجة الثالثة : درجة كاهن أو كاهنة وتطلق على من يثبت براعة أو تفوقا فى خدمة الشيطان .. الأكبر.

الدرجة الرابعة : درجة (كاهن المعبد) أو (كاهنة المعبد) وهى تعادل درجة "الأسقف" أو "المطران" وتلى الدرجة التى يمثلها " كبير كهنة جهنم"[1]...!!

لقد نشرت مجلة " نيوزويك (News Week) تحقيقا مذهلا عن عدد الطوائف التى بدأت تنتشر على نطاق واسع فى أمريكا وأوروبا وذلك تحت عنوان عالم الطوائف الغريب: The Stearmg Cutls World

وتقول هذه المجلة :

إن مأساة مدينة "جايابا" لاتزال ماثلة أمام العين .. كيف استطاع قس مجنون اسمه "جونز" أن يسوق ضحاياه إلى الموت بابتلاع السم .. مئات من الرجال والنساء والأطفال ينتحرون فى حركة تلبية لأوامر الشيطان القس. والذى يعرف باسم الأب " جونز"[2] ...!!!

---

(١) ١٦ يناير سنة ١٩٨٤م.

(٢) وهذا ما حدث أخيرا فى تكساس . حيث قام "ديفيد قورش" بإحراق مئات الرجال والأطفال فى مستعمرة خاصة. حيث يدعى ديفيد بأنه المسيح المنتظر: انظر مجلة تايم (Time) ١٩٩٣/٥/٣م

وبالرغم من مضى خمس سنوات على حدوث هذه المأساة أو هذه المذبحة .. فلا تزال هذه الطقوس تمارس فى كل مكان ... من مدينة "بيرت" فى جنوب استراليا إلى مدينة "باريس" فى فرنسا .. ومن "بوجوتنا " إلى "بومباى" فى الشرق الأقصى.

إنها غارة عاصفة على المسيحية فى أقطار كثيرة كما يقول هذا الأسقف..

ومن الأمور المحيرة .... أن تقف الكنيسة موقفا سلبيا من كل هذه الظواهر العاصفة والمدمرة ، والتى تحيط بها من كل ناحية..

إن الكنائس متفرغة فقط لمطاردة الإسلام وحصاره .. لقد هربت من معركتها الحقيقية لتحارب "بالتنصير " فى جهات أخرى ضد المسلمين فى أسيا وأفريقيا...

وهى بهذا الهروب ترتكب خطيئتين فى حق نفسها ، وفى حق المسيحية فهى:

أولا : تثبت فشلها فى مواجهة الوثنية والخرافة .. وهذه خطيئتها الأولى..

ثانيا : لم تتوقف عن إرسال جحافل المنصرين للعدوان على الإسلام والمسلمين فى أنحاء الدنيا.

وهذه هى أكبر الخطايا .. والعقبة الكؤود فى طريق أى تفاهم حقيقى بين الذئبوالضحايا...

والكنيسة فى النهاية هى الخاسرة . فإذا كانت البهائية أو الماسونية تستهدف الإسلام فى حركاتها السرية والهدامة . فهى كذلك تستهدف المسيحية وبنفس القوة.

وقد حدث عندما توفى "البرت بويك[1]"

رئيس الماسونية الأعلى وانتخب "لمى" Lemy خلفا له : علق صورة المسيح مقلوبة على قصر الماسونية ، وكتب تحتها هذه العبارة الجارحة النابية.

قبل مغادرتكم هذا المكان .. أبصقوا فى وجه هذا الإبليس الخائن ...!!!

ولكن الكنائس مشغوله بضرب الإسلام فقط ، وبمطاردة المسلمين الذين يجلون المسيح كإجلالهم للنبى الخاتم محمد ...!!!

إن الطريق امام الإسلام ممهدة . ولكن .. .. الدعاة الذين يحملون كلمة الإسلام قلة .. وقلة نادرة .

إن من أكبر العقبات التى تعوق حركة سير الإسلام فى أميركا . هذه الخلافات المدمرة بين اتباع مختلف المذاهب ، وبين الذين يتخذون الإسلام ذريعة لتولى أرفع المناصب.

يقول الشيخ محمد الغزالى : قال لى صديق : كان هناك خمسة أشخاص يريدون تكوين جمعية ، فقال أحدهم : أنا الرئيس العام:

وقال الثانى : أنا نائب الرئيس العام.

وقال الثالث: أنا الوكيل العام.

وقال الرابع : أنا المراقب العام.

قلت : يجب أن يقول الخامس : وأنا العضو العام...!!!

لقد سبق أن قمت برحلة إلى شرق أفريقيا. تنجانيقا ، وكينيا ،وأوغندا ، وزنجبار.

---

(١) فضائح التلمود : ترجمة زهدى الفاتح.

لقد فوجئت بصورة بشعة من الطوائف والمذاهب ، والملل والنحل ، شيعة وسنة وأباضية . عرب وهنود . وباكستانيون وكان لكل طائفة مسجدا بل كان لكل مذهب مسجد لا يدخله أتباع مذهب آخر.

فأعلنت أننى جئت إلى هنا لكل من يؤمن الله ربا وبمحمد نبيا ورسولا وبالقرآن هاديا ومرشدا ..

قلت هذا فى الصحف . ،أعلنته فى الإذاعة.

فلم يتخلف عن محاضراتى أحد . وفى هذه اللقاءات قدمت الإسلام كما يؤمن به كل مسلم صحيح العقيدة . وكان من نتيجة ذلك قيام جمعية لمسلمى شرق أفريقيا تستهدف الدعوة إلى الإسلام على هدى وبصيرة.

لقد حدث هذا فى نهاية الخمسينيات. وفى الوقت الذى كان فيه الاستعمار مسيطرا على هذه الدول والولايات.

لا بد من (هدف) عام يتفق عليه كل المسلمين . وفى بلاد كأوروبا يصبح تحقيق هذا الهدف أمرا مقدسا واجب التنفيذ على الفور.

فلنستمع إلى هذا الخبر القادم من الولايات المتحدة:

منذ سنوات أمرت قوات الأمن بإغلاق المسجد الرئيسى فى (واشنطن) فلماذا أمرت قوات الأمن بإغلاق هذا المسجد[1] . لأن القوم هناك يضنون بحرية التبليغ على اتباع الإسلام ؟ كلا ، فحرية الدعوة مكفولة .. لكن الذى حدث أن المسلمين من رواد المسجد انقسموا على أنفسهم انقساما شائنا، ووقعت بينهم فتن عكرت صفو الأمن فرأت الدولة أن تستريح من هذا الشغب..!!

---

(١) الإسلام خارج وطنه – الشيخ محمد الغزالى – ص

ترى ماذا قسم المسلمين هناك ، وأفسد ذات بينهم ،وانتهى بإغلاق مسجدهم؟

قالوا : نزاع بين أتباع السلف واتباع الخلف تفاقم حتى أوقد حربا لا تؤمن عقباها!!!!

وتصورت أنا ما حدث ، يصلى أمام شافعى المذهب فيجهر بالبسملة ، ويقنت فى الفجر ، فيقول له مأموم من السلف : الجهر بالبسملة لم يرد، والقنوت فى الفجر بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار..!!

ثم يحاول هو ومؤيدوه أن يصلوا على مذهبهم هم ، وهنا يتشابكون ويكون النزاع بالأيدى ويخاف نصارى واشنطن أن يتحول إلى تشابك بالنعال أو بالنصال فيغلقون المسجد!!!

وربما كان الخلاف : هل يجهر بختم الصلاة أو يسر؟

هل تقرأ سورة الكهف قبل الصلاة أو سورة أخرى أم لا قراءة البتة؟

وهذه الخلافات الهائلة يمكن تصعيدها إلى مجلس الأمن، ولكن من يدرى!! ربما استعمل الروس حق الاعتراض "الفيتو" فخذلوا السلف ، أو هزموا الخلف!!

إننى أتكلم فى هذا الموضوع من واقع مسئولية سابقة .. ومن خلال خبرة وتجربة طويلة ...

لقد شغلت منصب الأمين العام للدعوة لمدة خمس سنوات كاملة ومن خلال متابعتى لأحوال الدعاة شعرت بغصة وحسرة...

وماذا يمكن أن يقال عن مبعوث لا يعرف الفرق بين الشيعة والشيوعية..!! أو بين آسيا وأفريقيا..؟

إن الصورة كئيبة .. والواقع المر يحتاج إلى مواجهة حاسمة لتغيره وتصححه...

وقد تناول الشيخ الغزالى بقلمه عرض وتحليل هذه القضية[1]. وفيما يلى أنقل ما قاله فى تحليل وتعليل هذه الظاهرة ..

... نظرت بعيدا عن دار الإسلام ، وراقبت زحام الفلسفات والملل التى تتنافس على امتلاك زمام العالم .. فوجدت الإعلاميين أو الدعاة يختارون من أوسع الناس فكرا ، وأرقهم خلقا ....

فلما رجعت بصرى إلى ميدان الدعوة فى أرض الإسلام غاص قلبى من الكآبة ..!!

كأنما يختار الدعاة وفق مواصفات تعكر صفو الإسلام ، وتطيح بحاضره ومستقبله .. وما أنكر أن هناك رجالا فى معادنهم نفاسة ، وفى مسالكهم عقل ونبل ... بيد أن ندرتهم لا تحل أزمة الدعاة التى تشتد يوما بعد يوم.

والغريب أن الجهود مبذولة لمطاردة الدعاة الصادقين، من العلماء الأصلاء. والفقهاء الحكماء ..للقضاء عليهم، وترك المجال للبوم والغربان من الأميين والجهلة والسطحيين يتصدون للدعوة ويتحدثون باسم الإسلام..

تصور تلميذا يقال له : ارسم خريطة لجزيرة العرب ، ووضح مكان الحرمين بها .. فإذا هو يرسم الخريطة وليس بها إلا الربع الخالى ...!

فإذا سألته وأين مكان الحرمين ؟ وضع نقاطا بين تبوك والأردن!.. أو

---

(١) ضوء على تفكيرنا الدينى – الشيخ محمد الغزالى – ص ٣٧ ومابعدها – دار الاعتصام – القاهرة.

تلميذا يقال له : ارسم خريطة لنهر النيل .. فإذا هو يجعل فرعى الدلتا يبدآن من الخرطوم لا من القناطر الخيرية..

إن كلا التلميذين ساقط لامحالة فى هذا الاختبار..

فما الرأى إذا أختير كلاهما مدرسا للجغرافيا ؟!!

أعداد غفيرة من المتحدثين فى الدعوة يشبهون هذا المدرس الجهول..

قضايا صغيرة تتضخم فى رؤوسهم . وقضايا تستخفى وحماس فى موضع البرود ، وبرود فى موضع الحماس ، وأحاديث ضعيفة أو منكرة تصحح، وصحيحة تضعف وترد.

كناضيوف عند أحد الناس .. فسكب فى يدى قطرات من ماء الكلونيا .. فإذا أحد الدعاة يصرخ : حرام ! نجس!

فقلت له : دعنى وربى ، إن مالكا رضى الله عنه يرى ريق الكلب وعرقه طاهرين .. ويراهما غيره نجسين.

فلنتعاون فيما اتفقنا عليه . ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه.

فقال : اليد التى بها (كولونيا) نجسة . وتحرم مصافحتها ! وعلمت أنى أحدث من لا يستحق المحادثة..

كلما سافر رئيس الجمهورية إلى الخارج وبخاصة إلى الولايات المتحدة.

يصيبنى ما يشبه الدوار من شدة القلق ...!

ففى الاستقبال الذى تنظمه السفارة المصرية عند وصول الرئيس إلى المطار يظهر رجال الكنيسة الأرثوزكسية فى غاية الأبهة ..بينما يظهر شيخ لا تراه عيناك إلا بالمجهر ! وفى صورة "زرية" لا تليق بأصغر طالب فى معهد

ابتدائى من معاهد الأزهر .!

من أرسله ؟ ومن وافق على خروجه من القاهرة؟

وعلى أى أساس رشح للسفر ألى أميريكا ؟ وكيف تقبل السفارة المصرية أن يكون مثل هذا ممثلا للأزهر فى الولايات المتحدة ..؟!!!

منذ حوالى عشرين عاما كنت أتابع ما ينشر عن الإسلام فى صحف الغرب الأوروبى . والغرب الأميريكى...

إن اللهجة لم تختلف من قارة إلى قارة ، ولا من قطر إلى قطر ولا من لغة إلى لغة أخرى. كل المجلات كالتايم (The Time) ونيوزويك (News Week) وكل الصحف كالتايمز(The Time)والجارديان (The Guardian) وواشنطون بوست (Washington Bost) ونيويورك تايمز (New York Tims) ولوموند (Lemonde) وسيدنى مورننج هيرالد(Sedny Morning Herald)

كل هذه الصحف وكل هذه المجلات . كانت تتكلم عن الإسلام الخطر والمسلمين الهمج .، والعرب الذين وصفتهم "الصحف" بأنهم مخلوقات أخرى من البشر..!!

وكل هذه الصحف وكل هذه المجلات كانت تتحدث عن الإرهاب الإسلامى، وعن (سلمان رشدى) الذى رفعته هذه المجلات والصحف إلى مرتبة الشهداء ، حتى هدد عضو فى مجلس العموم البريطانى بشن حرب نووية على المسلمين والعرب.!

أما الإرهاب الصهيونى فى فلسطين .. وإرهاب الجيش الجمهورى فى ايرلندا ، وإرهاب الجيش الأحمر فى ألمانيا وإيطاليا ، وإرهاب منظمة (ايتا) فى اسبانيا ، وإرهاب منظمة اليوم السابع عشر فى اليونان . وإرهاب منظمة أيوكا

فى قبرص ، وإرهاب الهندوس المتعصبين فى الهند ، وإرهاب منظمة الغيران فى الفلبين ، وإرهاب عصابات المافيا فى الولايات المتحدة وإرهاب العصابات السياسية فى أمريكا اللاتينية كلها ..

كل هذه المنظمات . لا عيب فيها ، لأن كل القائمين عليها من – البيض كما ليسوا عربا ولا مسلمين.

فى كتاب ظهر فى بريطانيا اسمه (الإسلام والغرب) يقول مؤلفه "بيترماتسفيلد" إن كلمة (عربى) تستحضر فى ذهن معظم الغربيين ، صورة بدوى يرتدى ملابس فضفاضة .، ويتمنطق مسدسا قديما ، وهو يقطع على جمله كثبان الرمال فى طريقه لمهاجمة جيرانه...

لا أدرى إن كنت قد بالغت فى تصوير مدى الجهل الغربى بالعرب والتحامل الغربى ضدهم ، ولكن هنا أتذكر بعض ما ورد فى مذكرات مسئول سابق فى شركة نفط أمريكية ، يقول ذلك المسئول ، واسمه (جرانت بتلر):

"خلال الأسبوع الأول من دراستنا فى مدرسة "أرامكو" وجهت الينا بعض الأسئلة لتقييم معلوماتنا عن العرب ، وكان السؤال الأول :

"ما هو الإسلام"..؟ ، والثانى : " ومن هو النبى محمد" ؟ (صلى الله عليه وسلم) "...

أجاب أحدنا : الإسلام لعبة حظ شبيهة بـ "البريدج"..؟ !!

وقال أخر : " (الإسلام مذهب خفى أوجدته عصابة " كوكلوكس كلان فى الجنوب) . (يقصد جنوب الولايات المتحدة الأمريكية)..

وقال ثالث :"(الإسلام منظمة لماسونيين أمريكيين يلبسون ثيابا غريبة) "..

وعن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) قال أحدنا :

" إنه مؤلف ألف ليلة وليلة . وقال آخر : " إنه قس زنجى أمريكى" . وقال ثالث :" إنه رجل يعيش فى الجبال والصحراء..!!

من الواضح أن السخرية هى طابع هذه الإجابات ،، ولكنها ليست سخرية العارف ، بل سخرية الجاهل الذى يريد أن يخفى جهله ..!!

* * *

وبالرغم من ذلك كله فالإسلام ينتشر فى الولايات المتحدة .. والفطرة الإسلامية تكسب كل يوم مزيدا من المؤمنين بالله الواحد الأحد . وبالرغم من حملات التشويه والكراهية التى شنها اليهود ومن يناصرهم فالإسلام ينمو ويزدهر .. والمسلمون يتزايدون يوما بعد يوم . فهناك عشرة ملايين مسلم ومسلمة ينتشرون فى جميع الولايات والدعوة الإسلامية تشق طريقها بين جميع الأفراد ولن يتأخر كثيرا هذا اليوم الذى يبلغ فيه المسلمون عشرات الملايين اذا أحسن المسلمون اختيار الدعاة.. وأخلصوا النية لله فى الدعوة إلى الله ..!!

إن الإسلام فى أميريكا يحتاج إلى دعاة يحسنون القول كما يحسنون العمل. دعاة يتجسد الإسلام فيهم صورا نورانية متحركة.

ويعجبنى قول أحد كبار الدعاة حين يشبه الإسلام بالحليب الأبيض الصافى النقى .. إذا قدمته فى كوب ملوث أو كوب قذر عافته النفس واشمأزت منه .. وكذلك الإسلام إذا لم يقدمه دعاة على مستوى هذا الدين وعظمته وطهارته نفرت منه النفس . وشاح عنه الوجه ..!!

وفى مصر سمعت هذه النكتة.

تقول هذه النكتة :

إن سائحا أمريكيا كان يركب حمارا يتجول به فى منطقة الأهرامات وفى تمام الساعة الثانية عشر ظهرا سمع صوت مؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة كان صوت المؤذن جميلا . وعميقا . ومؤثرا.

فسأل السائح الأميريكى صاحب الحمار عن مصدر هذا الصوت.

وماذا يقول هذا الرجل الذى يصدر عنه هذا الصوت.

فقال صاحب الحمار .. هذا هو الإسلام ...

وهنا قال السائح : إن الإسلام جميل جدا وعذب جدا .. ولا بد أن أكون مسلما ..!

ومرت ثلاث ساعات . وحان وقت صلاة العصر أمام مسجد آخر ومن سوء الحظ أن صوت المؤذن هذه المرة كان يختلف عن صوت المؤذن الأول فى كل شئ.

فسأل السائح صاحب الحمار للمرة الثانية ما هذا؟

وهنا ضرب صاحب الحمار على مؤخرة الحمار بعصا طويلة وهو يقول فى نفسه أسرع . حتى لا يعود صاحبنا الأميريكى إلى الكفر مرة ثانية..!!!

يقول الصحفى المصرى المرحوم " مصطفى شردى" :

جلست أتابع البرنامج المثير على شاشة إحدى شبكات التليفزيون الأمريكى كان الحوار حول الأمن فى بعض أحياء نيويورك . وهذه واحدة من القضايا التى يوليها الرأى العام هناك اهتماما كبيرا ، وتحدث رجل شرطة مسئول عن حى اشتهر بأن الجرائم ترتكب فيه يوميا فى رائعة النهار.كما اشتهر بأنه الوكر الرئيسى لعدد من زعماء العصابات التى تتاجر بالمخدرات.

وقال رجل الشرطة : إن ذلك الحى ضرب الأرقام المسجلة لعدد الجرائم من كل لون وأن رجاله شعروا باليأس بعد نضال طويل أدى إلى مصرع العديد منهم. حتى أنهم طالبوا بترك الحى وشأنه دون تدخل من جانبهم..!!

وأضاف رجل الشرطة قائلا : فجأة تقدمت إلينا مجموعة من سكان الحى وكانوا جميعا من السود. وقال لنا قائد المجموعة إن الحى يسكن فيه عدد كبير من المسلمين الأمريكيين. من السود والبيض. وأنهم جميعا فى حالة استياء من تدهور الوضع الأمنى فى الحى يهدد الخطر سكانه ، وأنهم عقدوا اجتماعا عندما لاحظوا تقلص نشاط رجال الشرطة وتزايد حركة العصابات وقرروا أن يطهروا حيهم بأنفسهم ويفرضوا فيه الأمن حتى يعيش سكانه فى سلام. إلا أنهم بحاجة إلى مساعدة رجال الشرطة فى البداية . للقبض على مجموعة زعماء العصابات . وتعهدوا بأن يتحملوا المسئولية بعدذلك.

ومضى رجل الشرطة يقول :

درسنا الفكر . كانت جيدة تماما وحصلنا على موافقة لتنفيذها وخلال فترة وجيزة. وبمساعدة تلك المجموعة من المسلمين قبضنا على عدد كبير من زعماء العصابات ورجالها . بينما سارع الباقون إلى الفرار من الحى نهائيا. وبعد ذلك اعلنت تلك المجموعة أنها سوف تتولى الحفاظ على الأمن ليلا ونهارا بتكليف من جميع سكان الحى دون استثناء وشكلوا دوريات مسلحة من الشباب الأقوياء وخلال شهور قلائل . فوجئنا بمعدلات الجريمة فى الحى الخطيرة تهبط بدرجة لم تكن نتصورها . حتى إن ذلك الحى أصبح أهدأ أحياء نيويورك . والجرائم القليلة التى تحدث به ، يرتكبها منحرفون من خارج الحى . لا تلبث فرق الحراسة الإسلامية أن تطاردهم ، وتسلم من تقبض عليه إلى الشرطة.!!

جاء المذيع بقائد المجموعة الأمنية فى الحى . وهو مواطن أميريكى مسلم. وسأله كيف استطاعوا أن يحققوا تلك المعجزة وماذا كان دافعهم..؟

وقال الرجل :

" إن الإسلام يأمرنا بأن نساعد أنفسنا قبل أن نطلب المساعدة من الغير . والإسلام دين سلام يرفض العنف والجريمة بشتى أشكالها . وتعاليم الإسلام هى التى علمتنا كيف نجتمع كأخوة. وكيف نتعاون . وكيف ننظم أنفسنا بحيث نحقق الأمن والطمأنينة لأسرنا فى الحى الذى نعيش فيه..".

وسأله المذيع :

وماذا عن المسيحين الذين يعيشون معكم فى الحى .. إنهم الأغلبية ..!

وأجاب المواطن الأميريكى المسلم :

إنهم أخوة لنا وهم يتعاونون معنا لحفظ الأمن. ويشاركون فى دوريات الحراسة. ولا توجد أية مشكلة بسبب اختلاف العقيدة الدينية .. فنحن نحترم عقيدتهم وهم يحترمون عقيدتنا.

وتحول المذيع إلى الضابط مرة أخرى وسأله :

لماذا لا تطبقون هذه التجربة الناجحة فى أحياء أخرى ..؟!

وأجاب الضابط فى حيرة :

إن المسألة ليست بهذه السهولة . فإن لهذا الحى وضعه الخاص ووجود هذه المجموعة هو الذى ساعد على نجاح التجربة. ويبدو أن دينهم علمهم أشياء كثيرة من أهمها كيف ينظمون أنفسهم وكيف يكونون اقوياء ..!!

ووجه المذيع سؤالا مباشرا إلى رجل الأمن الأميريكى فقال:

هل تريد أن تقول : إن الدين الإسلامى وإيمان هؤلاء به كان وراء نجاح هذه التجربة الفريدة ..؟؟

قال رجل الأمن على الفور :

نعم ... !! !

وتلك هى بداية الزحف الأسود زحف المسلمين السود فى الولايات المتحدة.. ! !!



الفهرس

